

الكاتب المصرى جمال الغيطانى احد اكبر الكتاب العرب المعاصرين ،
نتاج جمال الغيطانى يطرح نوعاً من القطيعة مع الرواية الكلاسيكية العربية فى
اعتماده على شكل روائى مفتوح . يأخذ ذرائعه من الواقع ولا يتقيد بالواقع .
يشطح ، يمزج بين الخيالى والمعاش تغيب عنه الحكمة والعقدة والحل . تغيب
وحدة الزمان والمكان يقترب النثر من الشعر ليتكون نص مغاير للمصيغة التقليدية
فى الكتابة العربية . نص يصعب تصنيفه .. ولئن كان الواقع المصرى هو المنطلق
الذى تتشربق حوله اعمال الغيطانى الا ان هذه الحكايات ليست حكايات
تروى . بل هى انعكاس لتجارب وخبرات تولد مناخاً عاماً مشرعاً على
احتمالات تفسير عديدة .

عيسى مخلوف
مجلة اليوم السابع

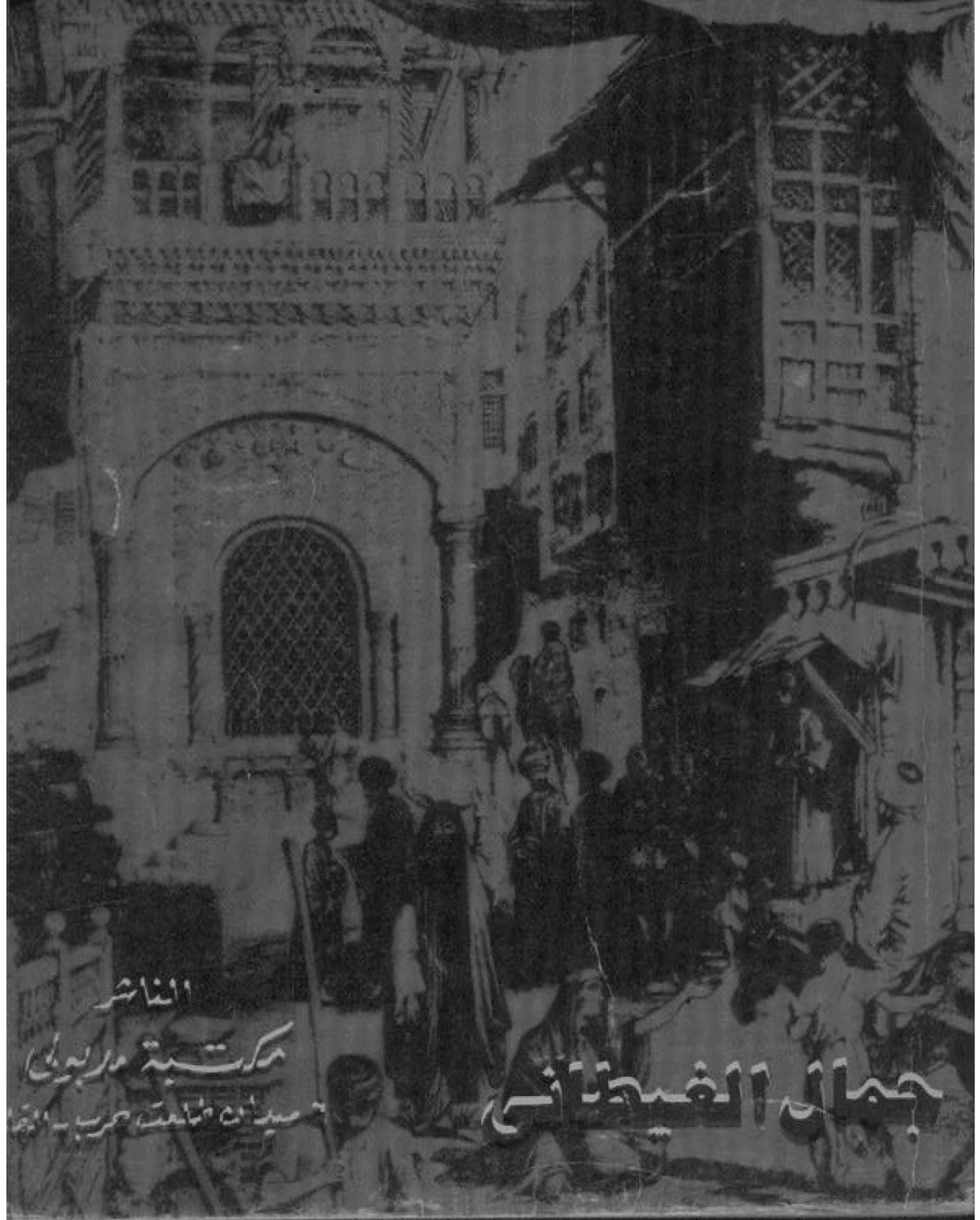
يبدو جمال الغيطانى بسخريته الحادة وكأنه اورو يل الشرق

مجلة ليغنىمو الفرنسية

جمال الغيطانى معلم ، استاذ بحق . واحد خلاصة الروائيين الكبار فى عصرنا .

مجلة كانار اونشيفيه الفرنسية

وقائع حارة الزعفراني



الناشر

مكتبة دار الكتب

ميدان قنصلية حرب - القاهرة

جمال الفيضاني

وقائع حارة الزعفراني
الطبعة الثانية - مايو ١٩٨٥
مكتبة مدبولي

الى أمي

يَا فَارِجَ الْكَرْبِ الْعِظَامِ

.. مساء السبت أول شعبان . وبعد انتهاء الأسطى عبده مراد من صلاة
العشاء بمسجد الحسين . وحضور الاحتفال الدينى الذى تقيمه الإذاعة بمناسبة
غرة شعبان ، حسم أمراً طال تردده فيه .. أسرع الخطى متوجهاً إلى حجرة الشيخ
عطية بأسفل المنزل رقم «٧» بحارة الزعفرانى . يعمل الأسطى عبده سائقاً
بمؤسسة النقل لعموم مدينة القاهرة ، وقبل التحاقه بالعمل مارس قيادة عربات
الأجرة ، وفى هذا المجال عمل بالأشغال التالية .

(أ) عام ١٩٤٩ وبعد تسريحه من الخدمة العسكرية عقب انتهاء حرب
فلسطين ، عمل سائقاً على سيارة أجرة تنقل الركاب بين القاهرة والإسكندرية ،
طرارز فورد ١٩٤١ ، سعة سبعة راكب ، يملكها تاجر خيش بالحرفش اسمه الحاج
أبو اليزيد ، حدث أن دب خلاف بينها فعاد متعطلاً ..

(ب) بعد ثلاثة شهور من البطالة ، عاد إلى العمل سائقاً على عربة
تعمل داخل القاهرة ، لمدة عشرة أعوام لم يختلف مع صاحب السيارة ، وهو حاج
طبيب يعمل مقاولاً للأدوات الصحية ، يتحدث دائماً عن الحظ فى الحياة ، كيف
هجر بلده فى أقصى الصعيد ثم جاء إلى القاهرة ماشياً على قدميه . أعطاه الله
حتى أصبح من القلائل الذين يقومون بتجارة وتركيب الأدوات الصحية من
أحواض ومراحيض وخلافه . كما امتلك سيارة نقل ، وعدداً من سيارات
الأجرة ، أحب الأسطى عبده عمله لتنوع زبائنه وتبادل الحديث معهم ، يقص
دائماً حادثاً جرى له فى الحرب عندما خاض معركة حامية ضد اليهود فى بلدة
فلسطينية اسمها (المجدل) ، أسفل ركبته جرح يحمل آثاره حتى الآن ، يقص
مشاعره لحظة نفاذ الشظية عبر جلده ، كيف ظن أنه مات ، كيف حرك أطرافه ؟
كيف أفاق ؟ مرة واحدة كشف عن مكان الجرح عندما ركب معه شابان من
مصر الجديدة إلى ساقية مكى وأبديا تجاوباً معه . بل أن أحدهما انتقل إلى جواره
مما سره كثيراً .

« .. ملف (أ) يضم بعض الشخصيات
من سكان حارة الزعفرانى ، معلومات
مستقاة عنهم من مصادر شديدة العلم بما
يجرى فى الحارة ..

(ج) اعتباراً من ١٩٥٧ ، انتقل الأسطى عبده للعمل بإحدى شركات الأوتوبيس الأهلية . عمل على خط يصل ميدان السكاكيني بالقلعة ، لم يقطع علاقته بالتاكسي ، يعمل به ساعات بعد انتهاء ودرسته ، لا يعرف بالضبط متى ارتبط بالست بثينة . لكن الثابت بين الأهالي في حارة الزعفراني أنه تعرف إليها من التاكسي ! ، عندما تقول النسوة هذا يخفضن أصواتهن و يبدو على وجوههن اشمئزاز من التاكسي « يعنى لم يطلها من عائلة » يتناولن جانباً آخر من حياة الست بثينة وهو عملها كراقصة أثناء الحرب العالمية الثانية وجعلها ثروة تقدر بحوالى أربعمئة جنيه أغرت الأسطى عبده على الاقتران بها . اشترت له - قبل زواجها - حلة كاملة وثلاثة بنطلونات ، وخمسة قصان وعدداً من الجوارب . وملابس داخلية ، يقول البعض - وهؤلاء قلة - أنه تزوجها قبل حرب فلسطين ، ثم طلقها ، بعد عودته ويعيش معها الآن في الحرام ، ويرد آخرون بأنه لم يطلقها ، العصمة في يدها . وهى تعتدى عليه كثيراً بالضرب ، و يبدو خائفاً منها حتى فى مشيه عند عودته من عمله فى الظهيرة هادئاً مطرق الرأس لا ينظر حوله ولا يسمع له حس كأنه يود عبور الحارة بسرعة ، استهدفه صبية الحارة أحياناً ، صاحوا عليه ، أخرجوا ألسنتهم ، لم ينهرهم ، لم يحرك ساكناً ، بدا خائفاً منهم ولم يشك صبياً منهم إلى أمه أو أبيه ، فى هذه الليلة ، أول شعبان ، لم يدخل بيته ، قطع الحارة حتى نهايتها ، يلاحظ أن الحارة سد لا تؤدى إلى حارة أخرى . يقوم فى آخرها المنزل رقم « ٧ » ، تحت سلمه حجرة ضيقة يقوم بها الشيخ عطية ، دخل الأسطى عبده ، تربع أمام الشيخ الذى أوشك رأسه أن يلامس السقف المائل ، عبث بجبات المسبحة المعلقة على صدره ، قال « خيراً » ، قال الأسطى بسرعة وإيجاز - كما أوصته امرأته بثينة - أن حياته الزوجية مهددة وبيته سيخرب ، ولا يدرى ما يفعل ، لم يعد قادراً على القيام بواجباته الزوجية منذ أسبوع ، عندما تزوج امرأته سألته قبل العقد ، هل بإمكانك سقى الأرض يومياً ؟ لم تصدقه عندما أوماً مجيباً إنما أختبرته جيداً ، منذ هذه السنوات البعيدة لم ينقطع عنها إلا فى أيام الحيض .

إنها تمرض ، يدركها هزال إذا لم يأتها يومياً ، ومرور أسبوع جاف مجذب فترة فظيغه خاصة أن أحواله لا تتحسن وأعصابه تتوتر ، بحيث يتردد مرات قبل ذهابه إلى البيت ، يخشى عليها من الفتنة لأن طبيعتها حامى ، لن تستطيع صبراً مع هذه الحال . قال أنه استعمل وصفات بلدية واشترى أعشاباً من الحمزاوى ، وطبق نصائح سائق تاكسي عجوزاً خبير الدنيا بالطول وبالعرض ، برقت عينا الشيخ عطية فى السواد . سمع صوت أوراق تقلب ، أجرى حسابات ، لفظ متمات بصوت يشبه صوت طفل ، لم يستطع الأسطى ، رفع البصر ، لكن خيل له أن الشيخ لا ينتبه له ، الأوراق تقلب بطريقة غامضة ، همس منكسراً : أنه إذا لم يشف فستطرده ، بعد صمت قال الشيخ .. « تعال إلى صباح الجمعة الذى يلى صباح الجمعة المقبل قبل طلوع الشمس

.. يعمل سيد أفندى التكرلى موظفاً بمؤسسة الأمانات العامة ، يدخل الحارة ومعه أفندية يرتدون نظارات طبية . وزارير مذهبة فى أطراف قصانهم وأحذية غير متسخة ، بعضهم يمسك حقائب سوداء أنيقة ، عدد من أهالي الزعفراني يقولون أن ثمن الحقيبة الواحدة عشرون جنيهاً . ثور تساؤلات عديدة حولهم ، هل هم أقاربه ؟ أو معارفه من ذوى النفوذ ؟ بعضهم يشغل وظائف هامه فى الوزارات والمصالح ذات الصلة الخاصة . علاقته بهم سهلت الكثير من أمور الأهالي ، لم يتأخر عندما لجأت إليه الست وجيدة تطلب منه الوساطة لخدمة ابنها أسامة الذى أنهى المرحلة الابتدائية وإدخاله أحد مراكز التدريب المهني ليقضى فترة بسيطة يتخرج بعدها متقناً لصناعة أو حرفة مما يوفر على عائلته مصاريف طائلة ، و يساعدهم فى مواجهة أعباء الحياة ، وعندما تنفجر البالوعة يقوم بالاتصال الفورى ومجئ أثره عدد كبير من العمال ليزيلوا جميع الآثار القذرة وتنظيف الحارة تماماً ، وعندما لدغ عقرب « عليه » ابنة الست خديجة

الصعيدية ذهب معها إلى المستشفى ، عادت لتروى كيف كلم الأطباء ، كيف تحدث إلى المرضى والمرضات ، كأنه وزير أو مدير ، إنه الوحيد الذى يستطيع إعادة التيار الكهربائى إلى الحارة بعد انقطاعه بدقائق ، كثيرون يتحدثون عن الطريقة التى يديرها قرص التليفون ، إيقاع صوته وهو يصيح « آلو » إنه الوحيد الذى يستطيع الحديث فى أى وقت من تليفون مقهى المعلم الداطورى ، وعلى الرغم من خدماته العديدة لأهالى الزعفرانى فإنه لا يختلط بهم ، لا يعرف أحد شكل بيته من الداخل ، أكد البعض امتلاكه ثلاثة وسخانا وريكوردر كاسيت ، لم تستطع إحدى النساء التصنت عليه لأن مسكنه يقع فى الطابق الأخير من بيت أم كوثر الخامس إلى يمين الداخل من حارة الزعفرانى ، فى مواجهته بيت الحاج عبد العليم المنخفض ذو الطابقين ، هكذا يقوم فراغ فسيح فى مواجهة شقة سيد أفندى ، وبتاريخ ٤ / ٨ / ١٩٧١ ، نقلت أم صبرى إلى الست بثينة خبراً هاماً ، رأت سيد أفندى يدخل بصحبة رجل أسمر يرتدى جلباباً أبيض وعقالاً ويتكلم قائلاً « إيش .. مادرى .. أخى » مصمصة بثينة شفيتها ، قالت أنه رجل محير وامراته الحلوة مستمرة فى تجاهلها لنساء الزعفرانى ، لو وقعت قليلاً فى شرفتها لا تومىء لجارة ، تبدو مشمثة ، قالت أم صبرى ، البيوت أسرار ، ومادامت متعالية هكذا ، ولا تلقى على جاراتها السلام فوالذى يبقيا فى الحارة ، لماذا لا تنتقل إلى حى أكثر رقياً ؟ تجد فيه نديداً ومن يزورها وتزورهن ؟ إن نساء الحارة يرصدنها ، يلاحظن حركاتها عندما تقف فى الشرفة أحياناً ، أو تنشر غسيلاً ، أو تطل ممسكة بمجردل ماء ، تنتظر خلو الزعفرانى من المارة لتسكبه . بعد قطعها للمسافة القصيرة الواقعة بين البيت ومدخل الحارة تحدث النساء عن ثيابها ، يحاولن تخمين أسعارها ، من قامت بتفصيلها ؟ عطورها الفواحة ، كما تحظى تسريحة شعرها باهتمام كبير ، غير أن قوامها الطويل كعود النبات الأخضر المرتوى ، وطريقة خطوها تجعل الجميع يرمقونها بإعجاب ، حدث فى العام الماضى أن عويس الفران أقسم يميناً أثناء استعدادة لنقل طاولات العجين من

منزل حسن أفندى أنور أنه رأى عربية طويلة تقف فى ميدان الحسين ويركبها سيد أفندى وامراته . تذكرت امرأة حسن أفندى ما نقله إليها ابنها حسن ، أثناء عودته متأخراً من السينما رآهما ينزلان من عربية لونها أحمر . عويس أخبرها أن لون العربية أبيض ، نقلت ما سمعته إلى زوجها لكنه نهرها ، أنها فى حالها ولا علاقة لهما بما يركبه سيد أو غيره ، طلب من حسان ابنه ألا يعود إلى نقل مثل هذه الأخبار . أما الست أم نبيلة فأصغت إلى ما يتردد بخذر ، لاتحب الخوض فى سيرة أحد لأنها تخشى سوء العاقبة التى قد تحل بابنتها ، ونبيلة لم تتزوج حتى الآن ، لكنها لم تستطع السكوت عن نقل ملاحظة ، إذ أنها رأت زجاجات خمر فارغة ملقاة فى الزباله التى يزورها عبده الواحاتى الكناس ، سألتها ، قال أن مصدرها شقة سيد أفندى ، قالت أنه رجل « سيور » يسمح لمعارفه بالسهر فى بيته . ولم يحدث أى بادرة منهم تضايق الجيران ، لكن طرأت عدة ظواهر لوحظت خلال الأيام الأخيرة ، ربما بدا بعضها عادياً بالنسبة لواقع الحياة فى الزعفرانى ، كثيراً ما تستيقظ الحارة فى ساعات الليل المتأخرة بسبب شجار يدور بين أسرة واحدة ، ربما يقف أحد الأفراد ويهدد برمى نفسه ، أو يلفظ سباباً فى الحارة مع أنه موجه ضد أحد المقيمين معه بين جدران أربعة ، اشتهرت بهذا أسر بعينها . وخناقات معينة ، منها مثلاً سلسلة المشاجرات الحادة التى نشبت بين زنوبة الممرضة وزوجها عمر الذى عمل كمسارياً فترة من الزمن ثم فصل لسبب لا يعلمه أحد . وخناقات عائلة أم صبرى . وزعيق فريدة البيضاء ضد زوجها حسين رأس الفجلة . ويتميز زعيقها بطبيعته الفكاهة مما جعله يحظى بترحيب الأهالى فلا ضرر منه ، ويصبح مسلياً عندما ترفض مداعبات زوجها القزم . وإذا احتج وخرج من البيت تقف فى الشرفة وتخرج لسانها ثم ترش المياه عليه ، بمجرد اختفائه عند المنحنى تبدأ حواراً مع إحدى جاراتها كان شيئاً لم يحدث . والحارة ترهب شجار الست بثينة ، لأنها تعرف أكبر قدر من الشتائم والأوصاف البذيئة ، ولها قدرة على لفظها بكلمات كبيرة فى أقصر وقت . وأحياناً تعتدى على غريمها

بطرحها أرضاً ثم ضربها بالشيشب فوق أدق أجزاء جسمها حساسية، أن الأهالي لا يتركون الشجار محتدماً، كثيراً ما يذهب الجيران إلى الأسرة المتصارعة، يقضون الساعات، كل فرد من الأسرة يعرض ما يضايقه بصوت عال، أحياناً يهدد البعض بالانتحار، يشروعون فعلاً في سكب البترول، أو إلقاء أنفسهم من الشوافذ، هنا يسرع الجميع، يتعالى الصراخ، وهكذا عرفت أدق أسرار حارة الزعفرانى، تلك أمور عادية. لكن أن يصدر زعيق من بيت التكرلى فهذا يثير اهتماماً مضاعفاً، فى اللحظات الأولى ظن الداطورى أن الأصوات صادرة من بيت الموسيقىار «قرقر» لكن طبيعة الأصوات بدت مختلفة، طريقة الزعيق نفسها اضطرتته إلى نقل جسده الضخم وفتح النافذة محاولاً تتبع مصدر الصوت لدهشته البالغة فوجئ أنه التكرلى، أما عاطف الجامعى ساكن الطابق الثالث بنفس المنزل، والمهتم بإكرام امرأة التكرلى فقال، أنه عندما سمع ارتفاع الأصوات، وتكبير الأطباء، أطل من نافذة المنور الداخلية حيث يمكنه سماع أقل حركة فى البيت، الصمت الليلي فى الزعفرانى ثقيل جداً، لا توجد طرق قرية تجرى فيها سيارات أو ترامويات، الأطفال يأوون إلى بيوتهم مع نزول الليل، تختفى صيحاتهم ويضيع ضجيجهم، بدأ صوت التكرلى واضحاً أثناء رده على شخص آخر يتكلم بسرعة، لهذا لم يستطع عاطف تمييز ألفاظه خاصة أن لهجته غريبة، وفيما يلى بعض ما فاه به التكرلى .. «أنا لست مسئولاً»، «لن أرد ملياً» .. «العيب فيك أنت»، فى الأيام التالية تكررت المشاجرات وبدأ طلوع الحس من بيت التكرلى، وفى اليوم الرابع سمع عاطف، والمعلم الداطورى، وحسان بن حسن أفندى أنور، وأم سهير، كلهم أصغوا إلى صوت إكرام الناعم الباكي «احتملت كثيراً. لم أعد أطيق .. لم أعد ...».

الاسم: حسين الحارونى، الشهير برأس الفجلة ..
المهنة: يقال، يعمل مسحاتيا للحارة والحارات المجاورة، ورث المهنة عن أبيه.
محل الميلاد: حارة الزعفرانى رقم «٣»
محل الإقامة: حارة الزعفرانى رقم «٣»
الملامح المميزة: طوله ١٢٧ سم، رأسه منبجج إلى أعلى بميل. مسحوب كقمع السكر أو رأس الفجلة، عينان مستديرتان كالبلى. سوادهما متجه إلى أسفل دائماً كأنه ينظر هلعاً. شفتاه منفرجتان، أحياناً يرى خيط رفيع جداً من لعاب يصل ما بين فمه وذقنه.

الحالة الاجتماعية وبعض ما جرى فيها:

فى أواخر ديسمبر عام ١٩٥٧، جلس حسين رأس الفجلة أمام مقهى الداطورى صباح يوم أحد مشمس خلت فيه الشوارع من المارة توقفت فتاة بيضاء تمسك صفيحة ممثلة بالكبروسين (فيما بعد عرف أنها تشتري حاجات البيت). ضحكت لفتاة أخرى جاءت من الاتجاه المقابل وسألها عن الخياطة التى فصلت فستانها الجديد، اضطر رأس الفجلة إلى الميل قليلاً ليرى الفتاة البيضاء، ملأ عينيه منها حتى رأى حبات نمش متناثرة على وجنتها، مال على المعلم الداطورى، «إبنة من هذه؟»، بعد نظرة متثاقلة قال المعلم «تزوجها؟» إتسعت إنفراجه فمه، قبض على مبسم الشيشة، هز رأسه متمنياً بصوت عال لو حدث هذا، عندئذ أدلى المعلم ببعض المعلومات، قال ان فريدة هذه إبنة الأومباشى «حدقة» من أحباب الحسين لم يؤذ أحداً ولم يش بانسان ولا يتعاطى المخدرات برغم عمله فى قسم الدرب الأحمر الذى تتبعه الباطنية المزدهجة بتجار

الحشيش والأفيون مما يتيح له فرصة الكيف المجانى ، أب لسبعة ، ثلاثة ذكوره وأربع فتيات . قال الداطورى انه لن يرفض له طلبا ، سيرحب لأن فريدة فرحة عمره الأولى ، فى اليوم نفسه وقبل بداية المساعى ، صعد رأس الفجلة إلى سطح البيت حيث تقيم والدته أم الخير فى غرفة بنتها بنفسها ، لا يدرى أحد عمرها الحقيقى ، جسدها محنى حتى ليكاد رأسها يلامس قدميها ، يزعم البعض أنها تجاوزت المائة عام وأن الأسنان الخضراء نبتت لها . لا تتصل بأحد ، لا تقف مع النساء ، أحيانا تعبر الحارة على مهل شديد ، تقصد زيارة أحد الأولياء . يتدلى من عنقها كيس من القماش المتين لا يدرى إنسان محتوياته الحقيقية ، تغيب أياما عن الظهور ، لا يلتفت اختفاءها نظر أحد ، لكن يحدث أحيانا أثناء وقوف الأهالى فى الشرفات أن يدركهم إحساس غريب ، أنهم مراقبون ، يرفعون رؤوسهم إلى أعلى ، تدركهم رعدة إذ تلتقى عيونهم بنظرات أم الخير التى يبدو رأسها مطلا على الحارة كلها ، يخفى السور جسدها فكان دماغها مقطوع الصلة به . لا يتصل بشيء ، يحار البعض ، كيف انتصب جسدها المنحنى ، لا تلفظ كلمة ، لا تومئ بتحية ، تظل ساعات ناظرة فى اتجاه واحد ، يخيل للجميع أنها ترقبهم ، كل إنسان يظن أنها تنظر إليه هو شخصيا ، يضطر البعض إلى إغلاق النوافذ والشرفات ، إذا ما أطلوا بعد فترة يجدونها على نفس الوضع ، ثم تختفى أياما ، أحيانا تتوقف أثناء سيرها البطيء فى الشارع تنظر من أسفل إلى شخص مما يجعله يولى بعيدا ، هى كل عائلة رأس الفجلة ، لا يقدم على عمل إلا إذا أخطرها ، لا ترد عليه ولا تجيبه ، ربما يدرك من ملاحظها أو حركاتها أو يحس علامات معينة تعنى لديها الرفض أو القبول . لم تتحرك عندما أخبرها . لكنه مضى متحمسا إلى الداطورى وقال إن أمه قد وافقت ، عندما شاع خبر زواجه قوبل بردود فعل مختلفة ، بعض النسوة أبدين إمتعاضا ، خاصة أم صبرى ، وأم حمادة (توفيت منذ أربع سنوات) ، كلتاها أم لفتاة أو أكثر ، هيته غير مشبعة لكن المعروف أنه يرقد فوق ثروة ومع بخله الشديد ، لا يرى طوال السنة إلا

بجلباب واحد ، يقال انه لو خلعه فسيقف الجلباب منتصبا لكثرة ما يحمل من قذارة ، ورث عن أبيه بيتا بأكمله فى حارة الزعفرانى ، وبيتا آخر فى درب الفراخة . وترددت الشائعات : أنه ينوى هدمه وإقامة عمارة ضخمة مكانه ، ورث أيضا دكان البقالة الواقع أمام حارة درب المسط ، أهم ما فيه وعاء زجاجى مستطيل ، ملىء بالليمون المخلل الضخم الذى تشقق لقدمه ولانت بذوره ، يبيع الليمونة الواحدة فى أيام الرخص بثلاثة قروش ، أما الآن فثمنها خمسة ، يبذل فى إعدادة جهدا كبيرا ، يعتبر تحليله سراً لا يجوز البوح به ، لكن أخطر ما يمتلكه مخزن ضخيم كبير يقع تحت بيته فى الزعفرانى ويمتد إلى ما لا يعلمه إلا الله ، مدخله أشبه بالقبر ، يقال انه مسكون ، يتفرع الى عدة مخازن كلها تحت الأرض ، رأس الفجلة يدخله فى أى وقت ليلا أو نهارا ، يتملىء المخزن بقطع أثاث ، وسجاد . وقبعات ، وإطارات صور قديمة ، ومرايا ، وكتب بلغات مجهولة ، واسطوانات ، وعلب خشب ثمين مطعمم بعاج وصدف ، وآلات حديدية ، ومصاعد كهربائية ، ومطابخ تدار بالفحم ، فى إحدى الصفقات أخرج رأس الفجلة من المخزن موتور سيارة ضخما وقبض ثمنه أربعمائة جنيه من أحد التجار ، يقال ان المخزن به عربات كاملة تنتمى إلى طرز مختلفة ، أول أوتوموبيل دخل مصر يوجد لديه ، كما رآه الأهالى يحضر جسما معدانيا هائلا ، سئل عنه فقال انه مدخنة قطار ، رأس الفجلة يغلق البقالة يومى الأحد والجمعة ، يمضى إلى المزادات ، ينتقى منها . يعرفه جميع أصحاب الصالات الأهلية والحكومية فى البلد . كل ما يشتريه يأتى به إلى المخزن ، حدث فى عام ١٩٥٤ أن أرسل أحد الخبثاء عربضة إلى قسم بوليس الجمالية مضمونها أنه يشك فى وجود مومياء فرعونية ، وحلى ذهبية أثرية وجثث موتى لدراسة الطب فى مخزن رأس الفجلة ، حولت الشكوى لسبب ما إلى مديرية البوليس السياسى الذى هاجم المخزن ليلة الخميس ، أحضروا رأس الفجلة ، فك الأقفال الغليظة والعوارض الحديدية الضخمة المشبته ، أبدى كربا هائلا ، عجزوا عن إيجاد أى أثر لمومياءات أو جثث ، ذكر

قائد القوة المهاجمة وجود كثير من الآثار الفرعونية لكن بالكشف عليها وجد أنها مقلدة ومسموح تداولها. ترددت أقوال كثيرة بخصوص واقعة تفتيش المخزن، بعضهم أكد أن رأس الفجلة تمكن بواسطة ما من اغلاق أقسام كاملة من مخزن، بحيث لا يستطيع أدق الباحثين الشك في وجود منافذ أو حجرات أخرى. (يؤكد بعض الأهالي وجود ممر تحت القاهرة كلها يبدأ من المخزن وينتهي في صحراء دهشور)، قيل إن رأس الفجلة رشا قائد القوة بمبلغ هائل ليدلى بتقريره المضلل، وقيل إن للمخزن رسدا من الجن يحجب ما فيه عن البشر عدا رأس الفجلة، لكن البعض قالوا إن الدولة علمت بوجود كميات كبيرة من الذهب في القبو، لهذا رفضت لفت الأنظار إليه. مع إبقاء رأس الفجلة تحت رقابة صارمة ودائمة حتى لا يهرب الذهب إلى الخارج، واعتبرت هذه الكميات من الاحتياطي الاستراتيجي لاقتصاد البلاد. انعكس هذا على ميزانية عام ١٩٥٥، والمصانع التي أنشئت فيما بعد بفضل هذا الغطاء التقدي الغريب، بعد هجوم البوليس السياسي أغلق محل البقالة سبعة أيام متصلة. قضاها رأس الفجلة في المخزن يرتب مقتنياته، لم يره أحد لمدة أسبوع، وهذا يعنى وجود مصادر الاكل والمياه بالداخل والافن أين أكل وشرب طوال هذه المدة؟ يشاع عنه أيضاً هواية جمع النقود. لديه حساب في البنك الأهلي فرع الأزهر ولأن البنك يحتفظ بسرية حسابات عملائه لم يستطع أحد الإطلاع على مقداره، يقول دائماً للمقربين منه إنه لا يدخر أبداً. والجميع يتحدثون عن كميات نقد سائلة في بيته، لكنه على حق فهو يجمع النقود ولا يدخرها. يحتفظ بكل ما يصله من قروش معدنية مستديرة أو مثقوبة، يضعها في صفحية كبيرة حتى تمتلئ، في بعض الليالي يحضر طشتا يقلب فيه القروش، يصغى إلى صوت اصطدامها المعدني، يرتبها صفوفاً، يعدل وضعها، يكتب بها حروفاً وكلمات، ينظم منها أشكالا هندسية غامضة، فيما بعد عرف من فريدة أنه يحتفظ بصفيحة ممتلئة بعملة فضية فئة القرشين المسدسة المصنوعة من الفضة الخالصة والتي اختفت من السوق تماماً لأن القيمة الحقيقية للقطعة الواحدة

تستعدي الخمسين قرشاً بالنظر إلى ما تحويه من فضة. لديه صفيحة أخرى تحوى عملات ذهبية مستديرة يحصها كل خمسة عشر يوماً مرة و يغسلها بماء الورد، لديه عملات من زمن الدولة العثمانية، والمماليك، وعملات هندية، ونقود حبشية، وأخرى صينية، وكلها إما من الذهب أو الفضة، نساء الحارة كلها يدركن هذا، تمنين لو تقدم إلى إحدى بناتهن، أم صبرى دعتة إلى بيتها، أولت له فهو يحب أن يدعى إلى غداء أو عشاء لأن هذا يوفر ثمن وجبة وهو غير ملزم برد هذه الدعوات لأنه بلا زوجة، تندررت عليه أم عليه فقالت للمست بثينة، ربما يتخوف من الزواج لضيق حاجته في عدم رد الدعوات، فجأة، دخل الحارة ثلاث عربات كارو تحمل أثاثاً، عربية تحمل مقاعد ودولاباً منصوباً صففت بداخله جلابيب وفساتين زاهية، أخرى تحمل مساند وأغطية وردية اللون، وصينية بها ثلاث قفل مملوءة بالمياه ومغطاة، ظهر رأس الفجلة، بدأ يشرف على طلوع الأثاث، وعندما انتهى الحمالون قامت مشاجرة بين سائقي العربات ورأس الفجلة حول الأجور، والحقيقة أنه لم يتجن عليهم كثيراً، العربات لم تمش مسافة كبيرة، لكن العريضة أصروا على بتفتيش مضاعف لأنهم لا ينقلون أثاث عرس كل يوم، لم تستمر المشاجرة كثيراً، إذ أن رأس الفجلة تنازل ومنحهم ما طلبوا وهذا يحدث نادراً في حياته. ويعتبر وصول الأثاث مصحوباً بالزغاريد والطبول نهاية لمرحلة مناقشات طويلة مع أهل العروس، في البداية عرض رأس الفجلة إعداد الجهاز من مخزنه في مقابل ألا يدفع مهراً، ربح الشاوش «حديقة» بالفكرة فلو قبض مائة جنيه مهراً لا يضطر إلى إضافة ضعفها وهذا أصعب بالنسبة له، لكن أم العروس رفضت الاقتراح لأن أول فرحتها يجب ألا تبدأ حياتها على أثاث قديم، وهنا قال رأس الفجلة أنه سيدفع في العروس خمسين جنيها ورقة واحدة، أبدت الأم انزعاجاً، قالت إن ابنتها تساوى أكثر من ذلك، بعد أخذ ورد ومناقشات تدخل فيها المعلم الداطوري استقر الرأي على أن يدفع رأس الفجلة ثمانين جنيها ويلزم باعداد المطبخ وأكواب الشاي والستائر وطقم صيني

كامل والشوك والملاعق والسكاكين ومرتببة واحدة ، قال للمعلم الدايطورى إن لديه سريراً مطليا بماء الذهب ، لسنوات طويلة تمتد فوقه أحد أغوات القصر الملكى ، يعنى لم تضاجع فوقه امرأة . منذ حصوله عليه صمم ألا يفرط فيه برغم الأثمان العالية التى عرضها تجار التحف . سينصبه وسينام فوقه ليلة وفوق السرير الآخر ليلة ، وهذا قال الدايطورى اقل ما تشاء لكن لا تتحدث كثيراً عن أمور بيتك . أوما رأس الفجلة مطبعا . قبل عقد القران يومين وقعت مشكلة ، فريدة لم يتجاوز عمرها أربع عشرة سنة ، لكن الدايطورى توجه إلى طبيب ودفع له خمسة جنيهات أخيف مقابلها ثلاث سنوات إلى عمر فريدة . هكذا أصبحت عروساً فى السابعة عشرة ، بعد أسبوع من الدخلة نهامس نساء الحارة بأن فريدة لا تزال عذراء ، لا يعرف كيف انتشرت هذه الأنباء . أضاف الشبان تفاصيل عديدة ، ذكروا خوف البنت من الرقاد إلى جواره بسبب لمعان عينيه فى العتمة ، واشمئزازها من لعابه ، تحدثوا عن كرهها له من أول ليلة لأنه عندما خلا بها بدأ يتفحصها ، يتحسس ذراعيها . بعد أسنانها ، يخصى أصابع قدميها . يطرُق مفاصلها . بلغت الدايطورى بعض الحمسات . استدعاه وأطمعته على ما يقال ، قال رأس الفجلة إن البنت لا تزال صغيرة ، لا تدرى شيئاً عن هذه الأمور . كلما اقترب منها تبسكى فيتعد مرتبكا . هنا ضربه المعلم على ركبته ، البكاء علامة الرضا ، عليه ألا يضجع دقيقة واحدة ويأتى بما يخرس الألسنة ، قال إنه لم يسمع فى زيجة وفشلت أبداً . يجب أن يستر ماء وجهه ، فى اليوم التالى لم تفتح نوافذ العروسين ، لم يفتح دكان البقالة لم ترفع العوارض الحديدية لأبواب المحزن ، نهامس الأهالى ، رأس الفجلة يعصفى حسابه ، بعد ثلاثة أيام مضى إلى دكانه ، جاءت بعض السيدات يزرن الجارة الجديدة فقدمت هن الشربات . بدت حلوة نقصة ، لكن أم صبرى قالت لأم سهر مساء اليوم نفسه ، إنها طفلة لم تنضج بعد ، إنها خفيفة وبها طيش ، قالت أم سهر صحيح إنها بيضاء وعيناها خضراوان كورق الخس ، لكن الشمس يغطى رقبتيها ، أشارت أم نبيلة إلى نخافتها ورقة جسدها ومثلها لا يجدى

معها وصفات المطارين ولا أدوية التسمين ، وبنت أم عليّة إلى أمها الحاد الطويل ، وافقت الست وجيدة وامرأة البنات وروض وامرأة حسن أفندى أنور أن ساقها نحيفتان ، لاحظت زنوبة الممرضة ما غاب على الجميع . فالمشروب الذى قدم ينقصه السكر وهذا يعنى عدم اتقانها لشئون البيت ، وهنا أجمع كلهن على ملاحظة واحدة هى صغر منها مما يجعل قيامها بواجباتها الزوجية من كس وطبخ أمراً مشكوكاً فيه ، أكدت أنها لن تعمر طويلاً ، ثم لاحظن فى الأيام التالية عدة ظواهر : إتماد فريدة عن مخالطة جاراتها حتى أنها لم توجه التحية إلى أم سهر المواجهة لها تماماً والتى لا يفصلها عنها إلا عرض الحارة الضيقة ، مما استقر أم سهر وصاحت تنادى ابنتها (عمرها أربع سنوات وقتئذ) . « ياسهر . يا بنت العسكرية » و التحرش واضحاً لأن والد سهر نجار وليس جندياً . لاحظ أيضاً أقبال فريدة على مصاحبة البنات الصغيرات ، حدث فى ظهيرة يوم الثلاثاء أن سمعت أم يوسف ضجة فوق السلم ، وعدداً من الصبية يتصاحجون ، فتحت باب الشقة ، زعقت لتطرد الفبال الذين يتحدثون ضجة تهدد بإزعاج عمهم طاحون أفندى غريب الذى يشقى طوال الليل ولا يذوق النوم فى هذه الحارة القذرة ، ثم دعت إلى الله كالعادة أن يتوب عليهم من الزعفرانى ، لم تكمل أم يوسف كلامها ، فوجئت بفريدة تجرى وراء الأطفال ، تلهو معهم . من ناحية أخرى أجرت أم عليّة استجواباً دقيقاً لابنتها التى اعترفت باستدعاء فريدة لها ، أعطتها قطعة (مدافعة) طلعتا فوق السطح وعلى مرأى من الأم العجوز عخطا الأرض بطباشير أبيض . وأحضرت فريدة غلبة ورليش قديمة ، بدأتا فى الوثب على ساق واحدة . ودفع غلبة الورنيش عبر المربعات المرسومة فوق الأرض ، لعبتا « الأولى » ، مع مرور الأيام . زارت فريدة بعض البيوت . بدت مرحة ، ضاحكة ، لا تقول هما ، لا تقلق من غد ، لا تشكو نقصاً فى زيت أو سكر ، ولا تميل هامسة لتقترض خمسة قروش ، لا تتردد فى خوض أى حديث ، حتى الدأم سهر سألها عن أحوال زوجها ، لم يتدخل عنها مرجها الطقولى وهى تصف

أحواله . أدلت معلومات قيمة تناقنها الألسنة ، بسرعة ، ساهمت في تغيير الصورة الشائعة ، قال الحاج حنفي عساس البهائم ان الله عوضه خيراً ، بل أحسن إليه العطاء ، قالت أم سهر ان ما وصفته فريدة يفوق كل التقديرات ، ونهت إلى طريقة مشيها بعد الزواج . قالت أم صبرى انها قابلت فريدة عند محمد الحضري ولاحظت امتلاء حافظتها بالنقود ، وبدا واضحاً من المتابعة الدقيقة التي قامت بها أم سهر بحكم موقعها القريب لما ينشر من ثياب على الحبل الغسيل أن عدد الأطقم الداخلية الشفافة الغالية تجاوز العشرين ، جميعها وارد الخارج والغسائين لا حصر لها ، أبدت الست بشينة قلقاً بالغاً عندما رأت صباح أربعاء عربية صغيرة تدخل الحارة ، يدفعها رجل يرتدى قميصاً وبنطلوناً وصندلاً ، تحمل غسالة كهربائية ، أبدت غيظاً مكثوماً ، متصبح الغسالة محوراً لأحاديث النساء ، سيذهبن للاطلاع على طريقة تشغيلها ، الست بشينة حريصة على سبقها إلى شراء الأجهزة الحديثة ، معها طال الزمن بحارة الزعفراني لن ينسى سكانها أول راديو دخل الحارة عام ١٩٥١ . أثناء حفلات أم كلثوم الشهيرة تضعه على حافة النافذة المطلّة على الحارة بعد استدعائها لأبى غزالة الكهربي و تركيبه فيشة بجوار النافذة ، يصغى الرجال والنساء ، إذا حدث أن تشاجرت احدها مع الست بشينة تعلن غضبها ، ليس من المعقول أن تفتح الراديو لتستمع إحدى عدواتها ، هنا يتساءل الرجال عن ذنبهم ، يقول حسن أفندي أنور « انت الخير والبركة » . . . تشعر برضاء لأن ما يقال لها بصوت عال يعتبر تعريفاً بغرابتها ، تعلن أنها من أجل الناس الأصلاء في الحارة من أجل الكرام وليس من أجل الدخلاء الذين ابتليت بهم الزعفراني على آخر الزمن ، الذين طفحتهم الأحياء القادرة . من أجل الذين بنوا الحارة طوبى وطوبى وحرسوا على بعضهم البعض ، من أجل الطيبين مستفتح الراديو . لا تنسى الحارة أيضاً أنها أول من أدخلت البوشاجاز . يوم أحضرته زفة الأطفال ، وقفت أمام كل بيت تشرح للنساء مزاياه وطريقة تشغيله ، وعندما يجين ميعاد تغيير الأنوية ترعق من النافذة منادية أحد

الأولاد ليستفجل الرجل ، أثناء تبادلها الحديث مع إحدى جارئاتها يعلو صوتها فجأة ، « صينية البطاطس في الفرن ولا بد أن تدخل لتلاحظها » . عموماً لم تصدر الست بشينة طويلاً ، بعد شهر واحد من وصول الغسالة إلى بيت رأس القبلة دخلت الحارة عربية يد تحمل غسالة مختلفة الطراز ، أعلنت في حديث لها مع الست الطاف أن غسالتها لا مثيل لها وأنها غالية الثمن ولا يوجد منها في مصر إلا أربع ، ثلاث في قصور الحكام والرابعة في بيتها هي . تعمدت الحديث بصوت عال أثناء وقوف فريدة في الشرفة ، لكن امرأة رأس القبلة لم تلق بالاً إلى الاستفزاز المتعمد . في المساء قال قرقر الموسيقار لطاحون إن الأر بعائة جنيه مدخرات الست بشينة نقصت بعد شرائها الغسالة ، في الصيف التالي لزواج رأس القبلة فوجئت الحارة بسابقة ذات شأن ، إذ رأت أم سهر في صباح باكر عند نزولها لتشتري الفول والحليب ، رأس القبلة يرتدى معطفاً جديداً ويمشي بجوار امرأته وخلفها رجل يحمل حقبتين ، أومأت إليهما أم سهر بتحية صابحية ، تساءلت عن وجهتهما ، قالت فريدة بلهجة صيبانية أنها مسافران لقضاء أسبوعين في المصيف ، سرعان ما انتشر الخبر في الزعفراني كلها ، أصبح المحتوى الرئيسي للحديث الصباحي المتبادل عبر الشرفات وفوق السلام ، قيل إن هذا من علامات الساعة لأن رأس القبلة لم يذهب إلى سينما أو مسرح أو مدينة ملاه في حياته ، كيف هان عليه السفر ومصاريف المصيف ، قال الداظوري « الحب يصنع المعجزات » لاقى الخبر انزعاجاً شديداً لدى الست بشينة ، ألقت اللائمة فوراً على الأسطى عبده زوجها . ذكرته باقتراحها منذ عامين للسفر إلى المصيف أسبوعاً لراحة بدنها ، لم يرد ، لم يقسم أنها لم تقترح عليه هذا أبداً . طلبت منه حكى هذه الواقعة لكل من يقابله ، فكرت في الذهاب معه إلى إحدى قريباتها ، تختبئ أسبوعين وترجع لتقول انها سافرت إلى رأس البر ، بدا لها الأمر مكشوفاً ، سيتولون انها غارت من امرأة رأس القبلة ، لم تنم ، في اليوم التالي قامت بعدة زيارات سرية إلى جارئاتها ، هاجت فريدة التي أدخلت بدعاً جديدة إلى الحارة ،

أكدت أن الذهاب إلى المصيف عار لأن النساء يكشفن صدورهن وأخاذهن ،
وفوق الرمال تحدث أمور منكرة وديئة ، خفضت صوتها عندما قالت إن البنت
لعبت برأس الفجلة وأقرته على السفر . هناك ستفرد به ويسهل عليها خداعه مع
الشبان ، في الحارة ترقبها عيون الأهالي الأحرار ، والأطهار ، لكن هناك يحدث
كل شيء تحت عيون أغنى الأزواج ، قالت لو أنها ابنة حلال لاصطحبت الأم
المعجوز معها لم يكفها تسبها في الجفرة بين رأس الفجلة والمعجوز ، إنما تركتها
وحيدة تنوء بثقل أحوالها المأنة ، أكدت أن رأس الفجلة رجاء فريده لتوافق على
سفر أمه ، قال لو تركاها فرما تموت وحيدة ، تأكلها القطط والفئران ، رفضت
فريده تماماً ، لماذا ؟ لتسرح في المصيف بدون رقيب ، فجر أمس أنت المعجوز
طويلاً وأشفقت عليها الست بثينة ، يجب على نساء الحارة الوقوف يداً واحدة في
مواجهته هذه المسخرة ، يكفى افلات رأس الفجلة وزواجه من حارة أخرى ،
ردت أم عليبة غاضبة ، لو جاءها مثله في كفة وثقله ذهباً في كفة أخرى فلن
تقبله زوجاً لابنتها ، قالت الست بثينة لنفسها ، المرأة تبدي الرقص الآن لكنها
حظيت في الجرى وراءه لتزوجه عليه حتى أنها اقترضت ثلاثة جنيهات لتشتري
أوزة وسحبا وخضاراً عندما أولت له ، قامت الست بثينة بعدة زيارات يومية
متعاقبة لجاراتها لدرجة أنها نسيت وزارت أم يوسف مرتين في يوم واحد وقالت
نفس الكلام وعندما انتهت إلى ذلك أدركت الضرر الذي قد يلحق بهدفها .
لكنها أبدت حرارة وغيرة لا نهاية لها طوال الأيام التالية حتى تقاطع الحارة
الفاقة الصغيرة ، ولعام دكان محمد الحضري قالت أم نبيلة لأم يوسف إن الست
بثينة آخرت من يغار على الحارة وذلك لماضيها في الرقص وفجورها المعروف ، لم
تكلم وطلبت من أم يوسف ألا تذكر شيئاً على لسانها بما قالتها تحجباً لوجع
الرأس ، بعد أربعة عشر يوماً سمعت أم سهر ضجة وحركة في الزعفراني ، أطلت
والصباح باكراً ، توافد بيت رأس الفجلة مفتوحة ، صاحت تستفسر عن بداخل
الشقة ، من يدرى ؟ ربما دخل بعض المصوص ، اصفت إلى وقع خطوات سريعة

فوق بلاط الشقة ، فريده تطل منسمة ، جلدها الأبيض اكتسى لونا برتقاليا .
أبدت أم سهر ترحيباً فائقاً ، وصلت الأتياء إلى الست بثينة حوالي العاشرة فهي
لا تستيقظ من النوم أول النهار كنساء الحارة ويقال هذه عاداتها منذ عملها
كراقصة أيام الحرب ، علمت بترحيب أم سهر الحار وقولها بالحرف الواحد ، إن
الحارة أظلمت بسفر فريده ، وأضاءت بعودتها ، علمت أيضاً بزيارة فريده لأم
يوسف وامتدادها ثلاث ساعات ، لم تعرف ما جرى خلالها ، والحقيقة أن فريده
حملت كيساً مليئاً بحب العزيز وآخربه حلوى سمسية وحمصية ، قدمتها إلى
جاراتها ، حككت عن المصيف ، كيف نزلنا البحر في مكان قصي ، لم يتوغلأ إلا
لموضع غطت فيه المياه ثديها ، ضحكت ، قالت ، إنها ضغطت رأس زوجها في الماء
مرات ، تخبط يديه كسمكة لم تفارقها الروح ، لكنه تجرباً وفعل مالا يجب فعله في
الماء ، أبدت أم يوسف دهشة ، قالت فريده أنه تسأل عن إمكانية حدوث هذا
أمر عليه ، جلساً متواجهين على مقربة من الشاطئ الضحل ثم اقترب منها ،
رأسها يبدوان للناظر من الشاطئ منفصلين ، لكن جسدهما ملتصقان تماماً ،
قالت أن هذا مثير للغاية ، وتلك أجل مرة ، اشترى لها كل ما اشتيت ، أكلت
جلاس اسمه كلوكلو وجبري سويس مشوى ، تعرضا لمضايقات أثناء مشيها في
الغروب ، أضحكها بعض ما أطلقت الشبان على زوجها ، تسأل أحدهم ،
كيف ينبغي هذا القرد تلك الحورية ؟ هنا ضحكت فريده دفعت أم يوسف في
ركبتها ، قالت « ظنوني ابنته » في المساء لا ينزلان ، دائماً يجلبها إليه أول الليل ،
لا يتركها حتى الفجر ، تضحك فريده بخجل طفولي ، تسألت أم يوسف ، هل
حدث هذا كل يوم في المصيف ؟ قالت فريده هذا يحدث يوماً منذ زواجها ،
في البداية بدا لها الأمر بلا معنى لدرجة أنه كثيراً ما غمره العرق وارتفع صوت
تنفسه أثناء نومه معها بينما تتسلى بمص قطعة حلوى ، أو تضربه على ظهره معاتباً
بين الحين والحين ، أو تطلب منه أن يروي لها نكتة ، والغريب أنه يلي كل ما
تطلبه لكنه لا يتوقف أبداً ، تعودت ذلك ، نصفي أم يوسف متعجبة للبساطة التي

تحكى بها حديثها وتشجيل ما سمعه وتقول لنفسها ، يا سلام ، يضع سره في
أضعف خلقه ، قالت فريدة إن زوجها ابتج جداً ، لو رغبت السفر في أى وقت
فسيطلق البقالة ويصحبها ، ضحكك أم يوسف ، قالت إن سفرها لم يعجب
البعض ، أبدت فريدة دهشة ، بعض نساء الحارة لا يضررن الحب للناس ، لا
يشركن الخلق في حالهم ، من هؤلاء بثينة الراقصة ، لا ينجو أحد من كلامها ،
عجبرية تفرش الملاة ولا تتورع عن خلع ثيابها كاملة في أى مشاجرة تخوضها ،
منذ سفر فريدة لم تكف عن التشنيع ضدها ، ترددت أم يوسف عندما لاحظت
عدم اهتمام فريدة ، قالت إنها تطلق اسماً لا يليق على سى حسين ... زمت
شفيتها ، قالت إنها لا يمكنها لفظه فهي تحترم سى حسين وتراه رجلا يفي بكل ما
يحتاج إليه بيته ، قاطعتا بحركات سريعة هزت جسدها ، كأنها طفل يجذب ذراع
والده ليشتري له الحلوى « والنبي قولى والنبي قولى » ، استغفرت أم يوسف ،
قالت « تسميه رأس الفجلة » ، لمدة لحظة بدا على فريدة تعجب ثم علا ضحكها
مرحاً ، قالت أم يوسف إن الأمر لا يضحك ولو سمعت من يصف زوجها بمثل
هذه الكلمات لفتحت كرشه ، تخيلت فريدة لحظة دخول زوجها ، عيناه
المحلقتان إلى الأرض ، رآته يعنى عقلها إذ يستيقظ في الليل ، يتأمل تقوده ،
أحياناً أثناء إنهماكة تفرسه ، تدفع أصابعها تحت إبطيه ، تدغدغه ، لا يتملك
نفسه ، يتلوى ضاحكاً ، ما أدق الوصف . في العصر نادتها أم سهر ، بدا ذهابها
إلى الحرم مسلياً ، تصغى إلى حكايات وتسمع أخباراً ، أخذت معها بعض
الخلوى ، قالت أم سهر إن هذه تكاليف لا داعى لها ، لم ترد فريدة إلا بكلمتين
« خذى .. خذى .. والنبي خذى » صاحبت أم سهر أثناء تناولها لأقراص
السبسية والحمصية ، اللهم صلى على النبي ، اللهم أحرسها اللهم لحجها ،
يا بركة السيد ، بعد حديث قصير قالت إن لديها ما تود إطلاعها عليه ، مرة أخرى
أصغت فريدة إلى ما قالته بثينة عنها ، ما أدهش أم سهر أن فريدة لم تبتدئ إنفعالا
إنما قامت فجأة بحجة انتظارها لبعض صديقاتها ، في الحارة وقف ثلاث فتيات

يرتدين الزى المدرسى ، صحن مرحبات عندما رأين فريدة ، علمت الست بثينة
أن كل ما قالته وصل إلى فريدة مضافاً إليه ما لم تنفذه به ، كتبت غيظاً أراجأت
إنتقامها منهن إلى فترة أخرى ، تمت لو أبدت الست الفعوصة أى بادرة عدوانية
عندئذ ترحبها عجباً ، تفجر كل ضيقها . تخوض معركة من أغنف معاركها ، خناقة
تورخ بها الحارة لسنين مقبلة ، فريدة لم يهمها من الأمر كله إلا وصف ، « رأس
الفجلة » ، وعندما صادفت بثينة في الحارة وتذكرت أنها صاحبة الوصف سرت
روح مرح عابت داخلها ، أحتت رأسها بحية ، لكن بثينة تجاهلها ومطت شفيتها
احتقاراً ، ما غاظها تجاهل البنت لاستفزازها مما جعلها تعتبر ذلك تحدياً يجب
ردعه ، لم تعد فريدة تنادى زوجها إلا « يا رأس الفجلة » ، في ليلة قالت له
« أحبك يا رأس الفجلة » ، صفق بيديه ، حرك ساقيه عالياً ، قال مبتهجاً ،
« قولى مرة ثانية » ، كررت « أحبك يا رأس الفجلة » وهو يبتدى مزيداً من
السرور مع أنه خاض في اليوم نفسه مشكلة بسبب هذا الوصف ، إذ صاح عليه
بغض الأولاد ، « هل هلاكك يا رأس الفجلة » . أبدى غصاً ، طار وراءهم لم
يلحقهم ، حدث أن انفصل أحد الخبثاء من النصية وأمسح حمدي عن رفاقه ،
اقترب قائلاً إن زعيم الأولاد هو « مرزوق » ابن أم مرزوق ، اتجه رأس الفجلة
فوراً إلى قسم الجمالية ، طلب من الضابط النوبنجي فتح محضر ليذلى بأقواله ،
أرسل الضابط يستدعى مرزوق ، عندما رأت أمه العسكرية ويده ورقة
صاحبت ، « يا خرابسى » ، ذهبت إلى القسم ليأخذوها بدلاً من ابنتها ، يكت ،
استعظت رأس الفجلة ، ذكرته بأولاده المقلين ، أصر على شكواه وضرورة المضي
في الإجراءات وإرسال الصبي إلى الإصلاحية لأنه كاد يفقد حياته بسببه ، في
هذه اللحظة دخل عسكري ممسكاً بمرزوق من ياقة جلبابه ، صرخت أمه « وحياة
الست فريدة » ، اضطرب رأس الفجلة قليلاً ، لحظ الضابط تردده ، سأله « هل
ترغب في الشنائل عن شكوك ؟ أو ما موافقاً ، هنا التفت الضابط إلى مرزوق
طالباً منه تقبيل رأس عمه ، تقدم الصبي خائفاً ، لم يشب على قدميه كثيراً لأنها

مستقاربان في الطول ، أقسم فيما بعد لأصحابه أن ملمس دماغ رأس الفجلة كثمر اللفت ، احتج بعض الأهالي ، يعرض مستقبل صبي صغير للخطر ؟ على الأقل يتسبب في ضربه بالقسم مما يصيبه برعب لا تزول آثاره منها عاش ، وربما سبب هذا مرضاً ، شجعت هذه الأقوال « مرزوق » ، تربع منتظراً مرور رأس الفجلة تحت الشرفة ، وألقى الماء المتجمع في صينية القفل ، تصادف وقوف امرأته ، رآته مبتلا ، شبت على قدميها ، غمرت بعينها عندما رآته يرتجف برداً ، أصرت متخايبة على استحمامه فوراً بالماء البارد الطاهر ، تمت وجود صاحباتها لينظرن سرواله وخوفه كحصى من المياه الشتوية ، بعد يومين رماه مرزوق برأس كرنبة ، اتجه إلى الداظوري طالباً منه التدخل لحمايته ، هنا استدعى المعلم أم مرزوق وطالبها بوضع حد للاعتداءات المتكررة والتي يمكن أن تستفز رأس الفجلة . وتعهدت أم مرزوق بمنع ابنتها فهي وحيدة بلا سند ، وزوجها يعيش بعيداً عنها ، ولا تستطيع الذهاب إلى القسم مرة أخرى ورؤية الضابط « أبو نجوم » فيما تلا هذا من شهور وأعوام فضجت فريدة . أصبحت أنثى فاخترة وأما لفتاتين ، نشوة وميرفت ، إنهما لا تحملان من أبيها أي شبه ، عندما تفرج الأسرة تبدو الأم وابنتاهما كشقيقات متقاربات السن ، أما أبوهن فغريب أرسل لمصاحبتين ، لم تخل فريدة عن هجتها الصبيانية ، شاركت ابنتها اللعب واللهو لتشبع رغبتها في العيب الصبياني ، الثابت أن الفتاتين لا يكتنان احتراماً لوالدهما . إذا ما نشب نزاع طفيف ننحازان فوراً إلى جانب أمهما ضد رأس الفجلة ، من يراه الآن لا يلمح آثار مرور الزمن ، شعر رأسه أسود كما هو ، خطواته ، حجم جسمه لم يزد ، لم ينقص عيناه تطلان على العالم بتعبير لم يغيره تعاقب السنين ، غير أن أهالي الزعفراني يمكنهم القسم غير حائثين إن واحداً لم يبررأس الفجلة يخرج من بيته خلال الأيام الثلاثة الأخيرة : الثابت أيضاً أن أي واحد من الأهالي لم يستفسر عن غيبة رأس الفجلة ، لم تسأل عنه أم سهر التي تسكن في مواجهته ، لم تذكر أم يوسف كلمة ، بل إن عدداً من نوافذ الزعفراني لم يفتح خلال الأيام الأخيرة ،

حتى نافذة الأستاذ عاطف الأعزب الذي تعودت الحارة وقوفه قبيل الغروب مرتدياً حلتته الكاملة صيفاً وشتاء ، يبدو أن بعض الهموم غير العادية شغلت الأهالي عن بعضهم البعض ، الثابت بالدليل انقطاع ، وبالرجوع إلى عدة مصادر تاريخية ، وإلى حكايات العمرين الشفهية ، أن هذه سابقة لم تحدث قط في تاريخ الزعفراني . في اليوم الرابع لاختفاء رأس الفجلة خرج من باب بيته ، اتجه إلى داخل الحارة ، لم يطأ هذا الجزء طوال حياته إلا مرتين . الأولى للغزاة في وفاة جد حسن أفندي والثانية لمعينة شيزلونج قديم أرادت صاحبته المرحومة أمينة بيعه بعد أن ضاق بها الحال ، توقف قليلاً أمام البيت الأخير . عبر الباب المظلم ، جاء الصوت غامضاً كأنه قادم من تحت الأرض :

« أدخل بسلام الله » :

مع خطوه إلى داخل الحجره سمع الشيخ عطية يقول إنه يعرف كل ما جاء حسين الحاروني ليقصه ، لن يخبره بشيء إلا يوم الجمعة المقبل . بشرط مجيئه قبل طلوع الشمس على الدنيا بسبع دقائق ...

الساعة الثامنة مساء اليوم ، الأربعاء ، ساعة حاسمة بالنسبة لعاطف الأعزب ، الموظف بالهيئة العامة لزراعة الخضراوات ، خريج الحقوق ، الجامعي الوحيد بالزعفراني ، الساكن بمفرده في شقة ثلاث حجرات وصانة بالطابق الثالث ، منزل رقم ٥ ، أو كما يعرفه الأهالي بيت أم محمد مع أنها ليست مالكته ، نسب إليها لأنها أقدم ساكنة ، وجلوسها الدائم أمام بابه ترى الضوء ، تشم الهواء ، أحياناً تتبادل الحديث مع النساء ، أما صاحبة المنزل فهي أم كوثر الاسكندرانية المقيمة بجارة بير جوان ، لا تحب إلا مرة واحدة في الخامس من كل

شهر لتحصل الأيجار، الآن ينظر عاطف الأعزب من بين فرجات المصراع الخشبي للنافذة، يبدو جزء من أرض الحارة والبيت المواجه له، يضيق بضوء الفانوس، يودلو اعتمت الحارة كمعظم لياليها مع أنه نزع كثيرا لشراء مصباح كى يبقى الفانوس مضاء، الأولاد لا يبقونه سليا يومين متتاليين، أثناء لعبهم يشوط أحدهم الكرة فتخطم اللبة، يسرعون بالجري مع أن أحداً لن ينال منهم. ربما زعق عليهم البعض لاعين جدودهم وأبائهم وأمهاتهم المواتى يدفعهم إلى الحوارى تخلصاً من زحامهم وضوضائهم، يود الآن لو تخطمت اللبة، يلوح قشر بطيخ، بقايا خضراوات، حطام سلة ملقاة، منذ سنوات أضيئت الفوانيس بالغاز، يذكر رجلاً يحمل سلماً طويلاً يستند إلى الجدار. يشعل المصباح، يتغيب أحياناً فيظنى الليل بلا مقاومة. الآن يخفق قلب عاطف، يتلع لعابه، «روض» تعبر الحارة، توجه إلى باب الشقة، يفتح على مهل، يصغى إلى وقع الشبشب فوق السلام. لا يسمع حساً مما يدل على صعودها بخذر، إذا استوقفتها امرأة فلديها الحجب والأعذار، عندما تطرق الباب ستدخل معه إلى حجرة النوم فوراً، الغرفة الأولى لا يوجد بها إلا مكتب وثلاثة كراسى ورف يحمل كتباً قليلة، دخولها غرفة النوم مباشرة سيوفر عليه مرحلة الانتقال من غرفة المكتب، سيدعوها للجلوس فوق السرير، فى لحظات قصارى استدعى مراحل تعرفه بروض، فى خروجه ودخوله يعرف أن حركاته مرصودة. أقل نظرة تحسب عليه فهو الأعزب الوحيد. فى الشهور الأولى التى تلت بدء إقامته، جاءه الحاج حتقى عباس البهائم، تحدث إليه، اقترح عليه إحضار والدته من البلدة لتقيم معه، تخدمه وتؤنسه، أجابه بحفاء، لم يتحدث إليه أحد بعدها. عندما عرف الأهالى أنه موظف محترم وجامعى أظهروا له احتراماً، لم يبد منه ما يضايقهم، مع مرور الأيام لاحظ أن نساء الحارة يرقينه باهتمام لحظة خروجه اليومى قبل الغروب، يرتدى حلته ونظارته ويلمع شعره فى ضوء النهار الخافت الراحل، يعيش متمهلاً حتى يختفى عند المنحنى، فى هذه الفترة - رحيل النهار - تطل

النساء، يتبادلن الحديث أو يطلن النظر إلى الحارة حيث لا تجدد الحركة ويتدبر ظهور الغريب فيها لأنها حارة سد، تدور تخمينات كثيرة حول مقصده، قالت الست بشينة إن زوجها أثناء عمله يالتاكسى بعد الظهر، أوقفه ثلاثة شبان وامرأتان، قوجىء أن أحد الثلاثة هو عاطف، من الحديث المتبادل عرف أنهم يقصدون بيت أحدهم، خبيرته الطويلة فى التاكسى أدرك نوعية الشهرة التى سيفضونها، لم يعرفه عاطف، بدا أكثرهم مرحاً، وأفدحهم بجواباً، أشدة دهشته فلتته شخصاً آخر لكنه رأى وجهه جيداً فى المرآة المعلقة أمامه، فى رواية أخرى قالت أم يوسف إنه شوهد مع بنت كالمصر فى شارع فؤاد، علفت أم سهر قائلة إن هذا طبيعى بالنسبة لشاب فى سنه، ليفعل ما يشاء خارج الزعفرانى مادام يحافظ على حرمة جيرانه ولا يخرج مشاعرهم، ثم قالت أم يوسف بعد فترة إنها رآته يقبل البنت الممرضة فى مستوصف الشهداء، لم يفت الست بشينة السؤال عن الظروف التى رأتها فيها أم يوسف؟ قالت إنها ذهبت لتأخذ حقنة بتسليخ فى العضل بسبب التهاب لوزتها، عندما دخلت المستوصف حوالى الثالثة والنصف وجدته خائلاً. المفروض أنه يغلق من الثالثة حتى الخامسة لكن فكرية الممرضة تسكن شبرا، وبدلاً من ذهابها وعودتها فإنها تفضل البقاء فى المستوصف، إذا جاءها أحد ومعه حقنة تستفيد بالقرشين إذا أعطت الحقنة فى العضل. وثلاثة إذا حقنت فى الوريد، عندما دخلت لم تجد فكرية فى الصالة، ولأنها تتردد كثيراً على المستوصف عرفت أنها موجودة فى غرفة الغيارات، لأن حجرتى الكشف مغلفتان ومفاتيحها لدى الطبيب، قطعت الممرضة الموصلة للحجرة الغيارات التى هى فى الأصل مطبخ الشقة. هنا كاد قلبها «ينط» من صدها. رأت سى عاطف متجنباً على فكرية يعصرها فى أحضانها، يقبلها كما يحدث فى السينما، يمض شفتها السفلى بينما تمض هى شفته العليا، شهقت الست بشينة، «يا ابن المشيمة»! قامت لتقص الحكاية على أم سهر، أضافت موقفاً عرت خلاله صدر فكرية المعرضة وأحاطت ثديها الأيمن بيد عاطف، لم يفتها أيضاً

إدراك لهجة الاعجاب التي تتحدث بها أم يوسف عن سى عاطف ، بعض النساء أدركهن حنق خفى لعدم التفاته إلى ما تحويه الزعفراني من كنوز ، في البداية قلن لأنفسهن إنه تعلم في الجامعة ومن الطبيعي أن يرافق فتيات جيالات ، لكن فكرية سمراء وقبيحة وبموضة ، والحقيقة أن عاطف حرص جداً ألا يشوه سمعته برغم تعرضه لضغوط من أصحابه . حدث أن اصطحبوا بعض الفتيات ، حاروا في التوجه بين إلى شقة ، رفض بشدة التوجه إلى بيته ، منذ حوالي ستة شهور وأثناء خروجه الصباحي قابل شابة بيضاء ، واسعة العينين ، تحمل طبقاً مليئاً بالفول ، تجاوزته ، قاوم رغبة خفية في النظر إلى الخلف ، قضى يوماً مشعباً بالنظرة المخملية الأسبانية ، شبه خفى يجمعها مع « رحمة » لم يحدده بالضبط ، أهى طريقة المشي ؟ أم طبيعة النظرة ؟ إنه يرقب نساء الحارة من عزلة ، لم يرها من قبل ، من هي ؟ في اليوم التالي قابلها عند جامع سيدى مرزوق ، الحركة هادئة في الطريق ، صبية مدارس ، رجل يبدو أنه يعمل كمسارياً إذ يسك حافظة جلدية تحوى تذاكر ، تمهل قليلاً بجوارها ، تسرب إليه وجودها الأنثوى ، بعد خمسة أيام من اللقاءات الصامتة توقفت أمامه . فتحت ملاءتها ، منح ثوبها المنزلى القصير ، على مهل بدأت تحكم لف الملاءة ، هل تشبه رحمة في نظراتها ؟ تشابكت عيناها ، قالت بوهن ، صباح الخير ياسى عاطف ، وسرت حرارة في دمه ، مشيت أمامه ، تجاوزت بائع الفول ، ودكان الحليب وبوابة بيت القاضي . ماليت إلى حارة قمرز ، قال صباح الخير ، قالت صباح الهنا ياسى عاطف ، زرع صوتها شوكا في جسده ، إلى نخاعه نفذ هذا التعب الذى يطل خفيفاً من عينيها ، قالت إن اسمها روض ، ابنة أم صبرى ، لم يرها من قبل لإقامتها في بيتها بالدرب الأحمر ، لم يعد بيتها الآن ، طلقت من زوجها عبد الرسول عامل المصبغة ، تكررت اللقاءات خاطفة ، سريعة في قبو قمرز ، في إحدى المرات أمسك ذراعها حتى انخسرت الملاءة عن كتفها ورجته إنقاء الفضيحة ، هى تحت أمره لكن في السر ، كيف والعيون مفتوحة ؟ لاحظ أهدأ أوقات الحارة ، بعد الغروب اليومى ،

تخلو الشرفات ، يمكن لروض الخروج حتى شارع الجمالية ثم العودة بخطى سريعة إلى بيته . أم محمد تنام مع مجيء الليل ، على المكوى لا يأتى مبكراً وأمراته الر بيفية تغلق الباب خوفاً من المدينة ، الآن يفتح عاطف أفندى باب الشقة ، بقدر ما يرغب ضمها ، بقدر ما يود التطلع إلى عينيها طويلاً ، باحثاً عن الشبه الخفى والمعنى الغامض المستعصى عليه ، يشدها إلى صدره ، تهمس « أنا مشاقة .. مشاقة قوى » . تلقى ملاءتها فوق السرير ، يبدو ثوبها المنزلى القصير . يكشف عن طلائع فخزين ، مرمريين ، قوين ، لم يترهلاً ، تتحرك حتى تقسح له مكاناً ، عندها ألقمت شفتها السفلى يداً قلبه يشب . ماذا جرى ؟ في المرات السابقة مع الأخريات لم يتأخر حتى هذه اللحظة ، مغامرات عابرة ليس من صفاتها الاستمرار . نساء يجهلن ، لا تخصص واحدة منهن ، كاديتهورو بعرض سمعته للخطر تحت القبول مقابل ضمة أو قبلة . لا ينقصه الآن إلا أن يبدأ ، حرارة جسدها تصله ، لكن ... ربما حدث هذا بعد التصاقه بها ، يقبل رموش عينيها ، يسك طرف الثوب ، تحرك جسدها لتساعده في خلعه . تدفع نهدىها المستيقظين إلى صدره ، ماذا جرى ؟ يستعد . يواجه أوضاعاً لم يعرفها من قبل . « مالك .. مالك ياسى عاطف ؟ » ، صوتها مشبوب بالرغبة ، يقول ، « أفضل لو تكلمنا قليلاً » ، بدا له قطار بلا جرار ، وجه بلا أنف ، يصفى إلى ارتعاشاتها وتأججياتها ، حتى الآن لا يستطيع معالجة هذا اللهب ، تدرك روض صعوبة الأمر ، عليها بالانتظار قليلاً رغم خدر جسمها المصحوب بدفع أنفاسها التي تفقد السيطرة عليها فتتحول إلى ما يشبه الشخير الخفيف غير المنتظم . منذ مجيئها إلى الزعفراني لم يقرأها ذكر . من السهل عليها الذهاب إلى المعلم فرغلى القماكهى ، ترددت عليه كثيراً أثناء إقامتها مع زوجها ، منذ لقائها بالأستاذ لا تفكر فى المعلم ، لم تستجب لداعيات الحاج نصيف صاحب الخيز ، ملأ عليها الأستاذ عقلها وقتها . بعد تحية الصباح الأولى مريومها حليماً طويلاً ، تعيش خطوة الشائى ، أصبحه عندما يزيح النظارة إلى أعلى . تنظر من النافذة وسرور

حبيب يملؤها . هذا الأفندي يخصصها بنظراته ، بأحاديثه ، بلامستها في القلوب ، كثيراً ما حدثت البنات اللواتي يتعلقن بأذرع الأفندية ، بنات الثانوي الماشيات بجوار فتيانهن ، وجناتهن المغمرة بخجلا ونشوة ، عندما مرت بأعمارهن رأيت الشقاء كله والغضب كله ، تذكر مرورها أمام حديقة ، غطاء خضرة ، يجلس فوقه شاب وفاتة ، تذكر لون حقيبتها البيضاء التي اسندتها الى جوارها ، تمنيت لو خرجت الى حديقة مع رجل ، ليس المعلم فرغلي ولا الحاج نصيف إنما إنسان آخر لم نستطع تحديد ملامحه وقتئذ ، جنون ، يهمس إليها بكلمات وتهمر خجلا ، تمنحه نفسها رغبة ، لا يملك رباط سرواله الطويل مجرد اختلاله بها ثم يغور فوقها ، هل يقبل عاطف أفندي مصاحبها يوماً إلى حديقة ؟ ألن ينجل من ملأها ألف ؟ تود عندما لو أخبرت زوجها السابق عبد الرسول الصباح ، أذاقها الهوان ، إنتقلت معه عبر حجرات مظلمة ، زعيقة الصباحي ، يرمى إليها قروشاً عشرة ، عندما تتسائل .. كيف تدبر أمرها بهذه القروش القليلة ؟ يترقق ، إن يوميته سبعة عشر قرشاً ، هل يضرب الأرض فتطرح بطيحاً ؟ هل يصنع الفلوس ؟ يكفي أنه لا يفطر ولا يتناول غذاءه معها ، لتدبر نفسها وتحمدها ، لولا المعلم فرغلي وبعض زياراتها القليلة لعبد الكتيبي الساكن خلف الجامع الأثرى لتعفن فيها من الجوع ولحف اللبن من ثديها ومات ابنها سيد . محمد الكتيبي يحلولة تأملها عازية ، يطلب منها الوقوف ، يربسانه على ظهرها ، بأسى ، هل مثل هذا الجمال يلتقي الإهانة ؟ أما المعلم فرغلي فيقول بعد أن يدس في يديها ربالاً إنه لم ير امرأة أمشعه كما تمشعه روض ، ونبع كلامه بتجشؤ تقشعر منه ، تود لو تقول هذا لعاطف ، كلهم يبدوا إعجابهم بأنوثتها . إنه صامت ، يرقد بجوارها هامداً ، عريه يسعداها ، الآن اجتازت لحظة أدركت معها أن لا أمل ، بدأت تشعر براحة ، بعد أن تجرد من ثيابه لم تر الحالة التي تحيط به لحظة خروجه ، بدا جسمه نحيلاً وحاقوا رفيعتان جداً ، لكن من الآن يمكنها التباهي بيثا وبين نفسها بأنها رفيقة عاطف ، غير بيع اجرامه ، لم تدرك طبيعة عمله ولا اسم الوزارة أو الهيئة التي

يعمل بها ، أولوية التعليم الذي تلقاه ، يكفى شهادته العالية ، صحيح أنها لن تستطيع إعلان علاقتها ، لكن مجرد ترديدتها التفاصيل بينها وبين نفسها سيرضيها جداً ، إذا قابلها محمد الكتيبي أو المعلم فرغلي فستعذر عن صحبتها ، ستقول أنها تعرفت إلى شاب طيب معه شهادة عالية وموظف ، إنه يفار عليها جداً ، وعدا بصحبها إلى حديقة ، لا ، ستقول أنه يخرج معها يوماً إلى الحدائق ، يجلسان على شاطئ النيل ، يمسك يدها ويهمس لها ، ربما يسخر المعلم فرغلي ، يبدو حزين في عينيه محمد الكتيبي ، ستقول بسرعة أنه سيتزوجها ، لقد عرفها بأمة والترتيب تجري كالمعتاد في أي زيجة محترمة ، وودت لو تقول لها هذا ، كان مجرد نطقها بحقه فعلاً ، أما الآن فعلها بذل جهد مضاعف لترضيه ، ظهر اليوم ، أذابت نصف صابونة معها ، اقترصتها من فريدة امرأة رأس الفجلة ، ينظر إليها وفي عينيه كرب هائل ، يود لو تقدم ، تموت في غيبته خطوات تمنى لو تحققت ، يود لو تكف عن احتكاكها به وتمرير أناملها على ظهره ، يهمس « قومي .. البسي » ، يرى خصرها الرقيق ، استدارة ردفها ، أنيساط فخلديها ، صدرها النافر لم تلبه مداعبات زوج غشوم وآخرين لا يدري عنهم شيئاً وفقير مدقع ، ماذا جرى ؟ ماذا لو عرف أصحابه ؟ كيف يذكر الموقف بعد إنصرافها ؟ كيف يعبر الزعفراني ؟ قالت أنها ستجىء مرة أخرى ، صباح .. انتظري .. قام ، ستر جسمه بلاءة السرير ، دس يده في جيب جاكته ، مد إليها جنباً كاملاً ، اتسعت عينها ، فيها عتاب وذلك الشعب ، قالت « .. لا يصح باسي عاطف » ...

.. طلب الشيخ عطية من عويس الفران أن يحدّثه عن أمرين ، الأول تفاصيل أحواله ، ما جرى له منذ نزوله القاهرة ، الثاني ، اسم أمه ، يدا لعويس سهولة الطلب الثاني ، أوشك على التفوه بالرد ، لكن نظرات الشيخ إنقذت في عتمة الغرفة ، خيل لعويس أنه رأى حبشي مسبعة مستديرتين توجهتا في الظلام

موضع العيينين ، طلب سماعه أولاً ، قال عويس - ورهبة تغشاه - أنه خلال الأيام الأخيرة وقع له عارض يمنعه من رزق جاءه في الشهور الماضية ، هذا العارض يساوى بينه وبين النساء ، هنا جاء صوت الشيخ غريباً كأنه صادر من غرفة شديدة الاتساع يتخللها دخان كثيف منتظم . ولم يستطع عويس تسديد البصر إلى الأمام . تسأل الشيخ عطية عن عدد الأيام التي تعطل فيها كرجل ؟ . قال عويس ، سبعة ، قال إنه تلطم طويلاً ، ومارس مهناً صعبة منذ مغادرته قريته في الصعيد وهو ابن ست عشرة سنة ، جاء إلى مصر ماشياً ، في طريقه جنس قطناً وحصد غلة وتسلق التخليل مربوطاً بحبل ليجمع محصول البلح . عزق أراضى . نقل المياه بالشادوف . حل الحجارة من فوق الشاطيء إلى القوارب الكبيرة . كبس القطن بقدمة واستشق الشعيرات . حتى نزل القاهرة فضى إلى مقهى السلام بالحسين حيث يتوافد بلدياته . في البلدة قالوا له ، أبواب الرزق مفتوحة في مصر ، بما ضرب معه الحظ قيمتك ثروة كبعض أهالي البلدة الذين قارقوها حفاة ثم أصبحوا تجاراً كباراً ، بل أن أحدهم وهو إبراهيم بك يقوم ببناء العمارات الحكومية . يسكن بيتاً حوله حديقة في مثل الروضة ، من الصعب مقابلته لانشغاله وسفره المستمر . على باب خديوان يتعان الداهل إليه . عنده طبايح وأنصائي في عمل نوع معين من الخلوى يحبه ويشاق إليه كثيراً ، حول أصبعه خاتم بألف جنيه ، قال عويس إنه لازم المقهى طويلاً والمعلم لا يأخذ ثمن المشاريب ، هكذا يعامل بلدياته ، ينتظر التحاقهم بعمل ، عندئذ يحصل ديونه ، يقولون إن إبراهيم بك مدين له حتى الآن عشرة قروش ، يقول إنه لن يسدد « البريزة » ، ستبقى ديناً عليه حتى يتعظ ويتقى ، إبراهيم بك يجيء إلى المقهى كلما زار الحسين . يجلس فوق الدكة المفروشة بالخصر ويدخن الترجيلة ويتحسر على أيام زمان البسيطة الخالية من الهموم الكبيرة . قال عويس إن المعلم يستوجب القادمين من البلدة ، يستطلع أخبارها ، من مات ؟ من ولد من تزوج ؟ من قتل ؟ هل أقيمت بيوت جديدة ؟ والطرق . ألا تزال كما هي ؟ عندما ذكر

عويس خيراً عن الدار الجديدة التي شيدها الحاج أبو الفضل سأل المعلم عن عدد أدوارها ، لون طلائها . شكل مدخلها ، سمك جدرانها ، دورة المياه ، هل أقيمت خارج الدار كحديقة بيوت البلدة ، أو أن البيت له دورة خاصة به ؟ عويس لم يدخل الدار ، أمثاله يترجلون إذا تصادف مرورهم راكبين أمام الحاج . لكنه وصف الدار وصفاً تفصيلياً ، علل هذا برؤيته الدار قبل سكناها عندما دخلها حاملاً صندوقاً خشبياً كبيراً يحوى ما لا يعلمه ، أبدى المعلم تأثراً ، هز رأسه حزناً ، قال أنه لن يعرف ملامح البلدة عندما يسافر إليها ، كل شيء يتغير ، كل شيء لا يبقى كما هو ، في الأيام التالية طلب المعلم من عويس أن يكرر وصفه للبيت الجديد ، استفسر عن كيفية إمداده بالمياه ، وشكل صوامع القمح داخله ، وكيف يبدو إذا نظرت من بيت عائلة عمراة المجاورة ، استمر عويس يصف البيت يومياً حتى جاء المعلم صنيبر صاحب القرن القائم عند مدخل الزعفراني ، طلب رجلاً يعمل عنده لنقل الخبز ، لحسن حظ عويس أن شخصاً آخر وصل منذ أيام إلى المقهى قادماً من البلدة مما جعل المعلم يتخلى عنه بسهولة ويقدمه إلى الحاج صنيبر . هكذا تجاوز حدود المقهى الذي لم يعرف مكاناً غيره ، لم يعد يتخذ رصيف الحسين مستقراً لجسده في الليل ، يأوى الآن إلى القرن ، في الصباح يفتح الباب فيدخل الهواء البارد مبدداً من صدره رائحة الهباب والسقف المنخفض وبقايا العجين المتخمر والردة ونشارة الخشب . يجيء الأولاد يطلبون عدداً من طاولات العجين ، في البداية يطلب من الأطفال الانتظار ليصحبوه ، بعد أسبوعين عرف البيوت السكان بالاسم ، وعدداً من سكان الحواري المجاورة المتعاملين مع القرن ، يكفى عجى طفل ، يطلب عدداً من طاولات العجين عند الست كوثر في درب الرصاص مثلاً ليومي عويس برأسه ، يقول له سألق بك بعد تخمر العجين ، في منتصف النهار يضي بالأرغفة الساخنة الشهية فوق قفص ، يمنحه الزبوك تعريفة أو رغيفاً طازجاً على سبيل البقشيش ، يحدث أحياناً أن يقلق في رقاده ، يسمع دقات مكتومة صادرة من أحد بيوت

الزعرافاني ، يعرف قورا أن الست أم سهر أو أم يوسف - تبعاً لقوة أو ضعف
 الدقات - ستخيز اليوم ، تعود النوم بالفرن ، لم يعد يزججه اظلامها المغم ، زحف
 الحشرات طرية الشمس ، جرى الفئران الضخمة ، ولا أقوال السكان عن
 العفاريات التي تسكن الفرن بالذات ، في ليلة نام بحقل بطيخ ، في الصباح
 أحس بشيء متكور في سرواله ، مد يده ، وجد ثعباناً غليظاً آوى إلى الدفء بين
 ساقيه ، سألت أم يوسف أكثر من مرة عن حالته أثناء نومه بالفرن ، قالت إن
 عفر يتأسد طريق زوجها ، أما ابنتها يوسف فقابلته عسكري سألته عن حارة
 الزعرافاني ، قال له أنت بها ، ضحك العسكري وأدار ظهره مولياً ، هلع يوسف إذ
 رأى ساقيه عاريتين لها حوافر كالعيز ، لجأت إلى الشيخ عطية ليعدها حجاً
 يزيل أثر الصدمة من ابنها ، ولولاه لجن يوسف ، قال عويس إن حديثه مع أم
 يوسف آثاره ، وقوفها في قبض النجوم وثدياها الصلبان خاصة عندما تميل
 لتساعده في رفع الطاولات الخشبية ، عندما أرسلت له مع ابنتها طبقاً من البطيخ
 التهب مرقده ، تذكر أحاديث بلدته عن نساء مصر ، ضعفهن أمام الصعادية ، مرة
 التقى بالنصبي يوسف يشتري أرغفة ، انزعج ، سألته ، هل كفوا عن الخبز ؟ قال
 يوسف إن الأرغفة البتية خلصت ، سيخبزون غداً ، أم يوسف تعجن مرقين في
 الأسبوع ، انقضت أيام ، يتوقع لحظة تستدعيه إلى داخل الشقة ، يطبق عليها ،
 يصغي إلى تأوهات ، تحول أصابعها في شعر صدره ، لكنه لم يتجاوز عتبة الباب
 حتى أيقن أن طبق البطيخ لم يكن شيئاً ، عندما ذهب إلى كريمة في حارة موسى
 داعيته ، دفعته في صدره ، قرر ألا يدع الفرصة تفلت ، عندما دغته للدخول
 ليلتقط الفاسه ارتفعت ساقاه ، رمى نفسه عليها فالتخلع قلبه عندما صرخت ، استمر
 محاولاً احتضانها ، استدعى مشهداً من فيلم رآه في سينا الكواكب عندما احتضن
 البطل امرأة قاومته ، عند لحظة معينة ارتخت يداها فجأة وأغمضت عينها بينما راح
 الجمهور يزغق معبراً عن إعجابه بألفاظ السباب ، عاد عويس إلى الفرن
 مضروباً ، متوهم الرأس ، صفعه الحاج صنيبر ، طرده ، أثناء خروجه سمع إحدى

النساء تتسائل .. من يتصور يوماً أن عويس .. وقال البعض أنه كثيراً ما
 اصطحب الساقطات إلى الفرن ، جاءه الليل بلا مأوى ، في ساعة متأخرة دخل
 الزعرافاني ، الفرن يقع عند مدخل الحارة ولا يحتل إلا جزءاً ضيقاً من الأرض بينما
 يمتد عمقه إلى حارة المسط مما يجعله منفصلاً عن الزعرافاني ، اعلى الطاولات
 المرصوفة ، ينكي عندما تذكر أن يدا غيره رصت الطاولات ، نام فوقها حتى
 الصباح . أهالي بلدته أوصوه بادخار جزء مما سيكسبه للأيام السوداء . اقتطع
 مقداراً من دخله ، ثلاثة جنيهات وضعها في متدبل ، عقده ، ربطه أعلى ذراعه ،
 اضطر إلى سحب قروش من المبلغ الذي ود لوغاه بحيث يصل إلى عشرين
 جنيهاً ، عندئذ يحقق حلمه ، يشتري عربة يد مغطاة بلونين ، أحمر وأبيض . يرسم
 عليها شكوكو ونساء يرتدين ملابس لف وعلى مقدمتها يكتب الله أكبر بخط كبير
 ويرسم علم البلاد ، يبيع الآيس كرم صيفاً وحمص الشام شتاء ، يلتف الأولاد
 حوله . يطلب منهم الانتظام في الدور ، يخصص ركناً لعرض البسكويت الأحمر
 المخلق على البخت ، عربة تمكته من استجار غرفة وسفره إلى البلدة شهراً
 واحداً يعود بعده مع إحدى بنات عمه . في اليوم السابع لطرده اشترى بثلاثين
 قرشاً كيزان ذرة شامية ، شواها في فرن بعيد بحارة الجوانية ، تذكر الرجل العربي
 الذي يحىء من نزلة السمان بالهرم راكباً جملاً ، على جانبيه جوالان مليتان بالذرة
 التيلة . يشوى الكيزان في فرن الحاج صنيبر ، يلف الحوارى مبتدئاً بالزعرافاني ،
 قبيل القروب يعبر ميدان الحسين عائداً ، راقبه طويلاً ، عرف أنه يبيع ما يشويه
 في أقل من ساعة . هذا ما أغراه بشراء الذرة . قال عيسى إنه راح ينادى « الكوز
 بقشر » ، باع حتى تزول الليل عشرين كوزاً ، مع مرور الوقت تبرد الذرة ، يد
 يديه ، يتحسسها داخل الخيش ، بعد صلاة العشاء نادى « الكوز بتعريفة » ، في
 هذه الليلة رأى رغباً ، فيما بعد عرف أن الرجل العربي يتردد على الحى منذ
 أربعين عاماً . المناداة على البضاعة تستمر مراناً وقدرة . لا يكفي الزعيق ، عاد
 إلى قهوة المعلم أبي الغيط ، رآه في نفس موضعه فوق الدكة الخشبية ، يدخن

الشرجيلة ، يتابع الزبائن ، ينادى الجرسون ليبنى طلباً هنا أو ليرد على زبون هناك محارس على متعة زبائنه ، قال عويس إن المرأة راودته عن نفسها ولما رفض صرخت « ولت » عليه الخلق . عانى مصاعب شديدة لما اضطره إلى السفر ، قال كاذباً إنه رجع منها لتوه ، أبدى المعلم سروراً ، وقال إن عوض جاء منذ يومين لكنه عبيط لا يعنى . وصف عويس البيوت والطرق كما رآها منذ عام ، إذا تذكر قولاً ببناء بيت بعد ستة شهور يقول أنه شيد فعلاً ، عندما بدأ وصف الطريق المؤدى من الجسر إلى البلدة وقال إن القناة الموصلة إلى حوض الماكينة باقية ، أبدى المعلم تعجباً ، أخبره البعض منذ شهرين أن القناة ردمت وشق بدلاً منها ترعة أعرض يعوم فيها الأطفال ، أكد عويس بقاء القناة على وضعها ، هذا ما رآه قبل سفره صباح اليوم ، غبار السفر مازال عالقاً بجلبابه ، طلب من المعلم النظر ليتأكد بنفسه ، سرح المعلم قليلاً ، سأل باهتمام عن رائحة التين عند المنحنى القريب من الجسر ، وسرعة تدفق المياه فى حوض الماكينة ، قال عويس إن رائحة التين عذبة خاصة فى الليل وتشم من بعيد ، المياه تجري كمعادتها ، هن المعلم رأسه ، لكن الزمن يضى والأحوال فى تغير مستمر ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . راح يردد ها عندما أخبره عويس عن قدوم بائع غريب يبيع السكر الأحمر عند الجسر ، أبدى المعلم جزءاً ، من أين جاء الغريب ؟ ما هى بلدته ؟ ما اسمه ، قال عويس إنه مجهول للجميع ، أبدى المعلم تأثراً ، هل استباح البلدة الأغراب ، لكنه الزمان الذى لا يرحم ! بعد يومين أرسل عويس إلى وكالة يزرعة الغربية ، عمل حالاً يتقل صناديق الصابون ، يدحرج براميل الزيت عبر الشارع من القنطرة حتى المعمل القريب من باب النصر ، فى الطريق يناديه أطفال من الزعفرانى « عم عويس » ، يقول لنفسه ، هؤلاء زبائني عندما أبيع الذرة وحصص الشام ، يدركه حين إلى جسد أم يوسف عندما يدخل الجلباب بين مفترق ردفها ، طردوه من الوكالة بعد فترة بدون سبب . عمل بأحد دكاكين المورق يحزم الصحف القديمة وينتزع أغلفة الكتب ، ثم خادماً بطعم ، عمل

مساعداً لتجار يصنع البراميل فى شارع أمير الجيوش ، ثم فى محل تبييض النحاس ومصغياً إلى شكاوى صاحبه من قلة العمل بعد انتشار الألومنيوم ومتجاوياً مع سخطه على الزمن ، ثم غاسلاً للصحن بمطعم جلال فى شارع بيت المال ، وعاملاً فى مصبغة الخرنفش القديمة بقلب النيلة فى الأحواض ، يعمل الخياط إلى السطح ينشرها فوق الأعمدة ، تسول أحياناً فى مولد سيدى البيومى ، ومولد سيدى مرزوق تراحم حول الرجال الذين يجيئون إلى أبواب الحسين حاملين أرغفة الفول النبات ، جرى خلف السيارات التى تحمل عرساتاً عقدوا زواجهم فى مسجد الحسين (لم يزد ما يدخره عن ستة جنيهات) ، بدا المبلغ ضئيلاً عندما سأل تجار العربات الخشبية فوجد أن السعر تجاوز الخمسين جنيهاً ، لم يفقد أمله فى امثلاك عربة ذات يوم ، قال عويس إن الله شاء له الراحة بعد أربع سنوات داخ فيها ، حدث أثناء جلوسه بالمقهى أن اقتراب منه رجل نظيف الثياب ، قال إنه المعلم ضانى صاحب حمام الأحرار الشهير ، توسم خيراً فى عويس وعرض عليه عملاً يتمتع به الكثيرون ، سيصبح نظيفاً ، سيأكل لحماً يومياً ، وسيقيم عجائاً بشرط تواجده طوال الليل فى الحمام . سيأخذ مرتباً كاموظفين ، ما سيؤديه سهل ولذيذ سيلتقى كل ليلة بعدد من الأفندية المحترمين ، بعضهم يحتل مراكز مرموقة فى المجتمع ويمتلك مصائر العديد من الناس . وبعضهم مشاهير يظهرون فى التليفزيون ويسأهم المذيعون فى الراديو وهذا يجعل محبتهم سريراً للغاية ، إذا أنتع الواحد منهم جيداً ربما منحة بقشيشاً كبيراً ، جنيهاً مثلاً ، أبدى عويس موافقته القوية أكل زوجاً من الحمام ، فرك جلده فى الماء الساخن ، فى المساء خلا إلى أفندي أبيض املس الجسد ، لم يلفظ كلمة واحدة عدا تأوهات متفمة ، بعد أسبوع عرف أن حجرة خلت فى بيت الأسطى رمانة السياسى وإيجارها ثلاثون قرشاً ، ذهب فوراً واستأجرها من صاحب البيت الصول سلام ، لم يد عليه أنه تذكر عويس أو قضبحة مع كرمه ، دفع ستين قرشاً ، إيجار شهر وشهر تأمينا . امتلك مفتاحاً لسكن يخصه ، أول الشهر فوجئ بضالة راتبه ، أعطاه المعلم ضانى

جنبها واحداً ، عرف أن الزبائن المحترمين يقدمون مبالغ طائلة لهذا ينذر دفع بقشيش إليه ، اضطر إلى إبداء الرضى ، كثيرون على استعداد للمجيء مكانه ، الجنى مبلغ ضئيل فعلاً لكنه يضمن تسليد الإيجار ، والذهاب إلى السينا مرتين شهرياً وأكل قطعة بسبوسة أسبوعياً وطبق كشرى ، حرص على هذين الصنفين لاستمتاعه الخالص بهما مع أن المعلم ضانى لم يخل عليه ، فى البداية استجوبه بدقة ، أى أنواع الطعام يشربعه بالرغبة العنيفة ، قال إنها الكوارخ ، أما السمك الذى أصر المعلم على تقديمه إليه فيدفع بالنوم الى جفنيه ، سمع المعلم ضانى يقول لأحد زبائنه أن عويس يكلفه كثيراً لارتفاع أسعار اللحم ، خاصة كوارخ الضأن التى يفضلها ، لكن لا بد من الإغداق عليه حتى يرضى زبائنه الكرام ، قال عويس إنه أثناء دخوله الزعفرانى قابلته أم يوسف ، سألت عن أحواله ، هل تزوج ؟ قالت إنها سمعت بما جرى مع البنت كروعة « المسلوقة » ، دفعته فى صدره ، أدركه العمى ، الثار أمامه لكنه لم يقطف ، ضحك ، تبدد من جفنيه ظمأ الكاوى إلى النوم والراحة ، قال إن عينه لم تغمض أبداً عن رؤية التفاح ، ضحكت « والله وعرفت تشكلم يا صعيدي » ، « هست أنتظر فى الساعة الحادية عشرة ليلاً » ، تذكر انحناءها والبروز المحدد الذى يحدثه خواف سروالها تحت ثوبها الرهيف ، تمنى طويلاً احتواء جسدها ، هى بالذات ، لم يذهب ، باستطاعته التقيب عن الحمام ساعة أو ساعتين لكنه لم يمضى إليها ، عندما تمدد فى حجرته ثنى ثوبه عدة مرات تحت رأسه ليستخدمه كوسادة ، شىء ما قبض صدره ، منعه عن التفكير فى أم يوسف ، لم تأخذه الشهوة ، هل يعجزه عمله عن معايشرة النساء ؟ خاف ، هل يتقلب حاله بعد حين فيصبح كأحد زبائنه ، فى اليوم التالي سحب زبوناً يقال إنه صاحب منصب كبير فى أحد الجرائد ، بعد أول مرة قال للمعلم ضانى ، هذا من بحثت عنه طويلاً ، لم يتمتع شخص كعويس . قال المعلم إنه تعب كثيراً حتى انتقى عويس من بين العديدين ليخلو بسعادته . سيحرص عليه حتى لا يستهلك نفسه مع الآخرين ، سيمنعه من

مضاجعته أى زبون ، قال الزبون ، إذن هو رجلى منذ الآن ، قال المعلم ، وجب بإسعادة البك ، عويس يعرف أن المعلم يقول نفس الكلام لجميع الزبائن مستغلاً قدرة عويس على المضاجعة الجيدة سبع مرات يومياً ، فى ليلة العجز الأولى أبدى البك الصحفي ضيقاً . سأل عويس ، أما من أمل ؟ أجهد عويس نفسه بدون جدوى . استدعى البك الصحفي المعلم ضانى غاضباً ، أقسم المعلم أيماناً عديدة أنه لم يقدم عويس إلى أى زبون برغم ما عرضده الآخرون من مغريات ، خاصة فى هذه الليلة . تكرر الأمر فى يومين متعاقبين ، مما دفع المعلم إلى الزعيق وصفع عويس صارخاً ، « أنت أكلت كارب كامل وكيلو لحمه اليوم .. كيلو لحمه أنا لم آكل مثله » فى اليوم الثالث طرده ، ذهب عويس إلى مستشفى الحسين الجامعى ، كشف بثلاثة قروش ، قرر الطبيب سلامة أعضائه ، ربما عملت له أم يوسف عملاً بسبب عدم استجابته لها ، نسي مره قطعة قماش عندها اعتاد وضعها فوق رأسه أثناء حمله الطاولات الخشبية ، لديها أثر منه . لهذا جاء إلى الشيخ عطيه ليأتى له بالفرج ، قال إنه تعب من الجرى وراء رزقه ، مصر هرسه منذ مجيئه إليها . لم يبق إلا القليل ويكتمل ثمن العربى ، عندئذ يترك الحمام إلى الأبد ، يسرح وراء رزقه .

سكت ، عينا الشيخ تبرقان ، أصوات الزعفرانى لا تصل إلى داخل الحجرة .

قال الشيخ ، استمر ..

قال عويس إنه يطلب السر . شخص واحد من الزعفرانى تردد على الحمام وهو شاب صغير اسمه سيمر ، أكثر من ضاجعهم خلاعة وإتيافاً للحركات والأصوات ، قال عويس إنه اشتاق إلى البلدة ، يود ركوب قطار الثامنة صباحاً ، أيام سوداء مرت عليه فى القرية أحياناً يصحب بعض الرجال ، لا يقوم ، ينتظر

تناوهم الشاي ليشرّب كوباً ، أيام البلدة الصعبة لا تعادل يوماً واحداً من الأسبوع الأخير ، إنه يريد العيش في هدوء والعربة مستحق له هذا ، قال إن امرأة أخرى بادلته صباح اليوم نظرة ذات معنى في الحارة .

توقف عويس لحظة ، تساءل .. هل يذكر اسم أمه ؟ قال الشيخ ..
استمر ..

قال إنه لكثرة ما رأى في الحمام يظن كل من يراهم في الطريق إما قادمين إلى حمام أو خارجين من حمام ، قال إنه ينجل الآن من التردد على مقهى أبي الغيط ، سكّت عويس ، كأن أمراً خفياً صدر أسكته ، لم يستطع التطلع ورؤية الملامح الغريبة ، صوت الطفل التبعث من جسد شيخ ، هل يتحدث أحد الجان من خلاله ؟ قال الشيخ عطية .. أجب عن سؤالي الثاني .. ، قال بسرعة إنه مستعد لخدمة الشيخ ، شراء حاجاته ، حمله فوق ظهره إذا أراد الانتقال من مكان إلى مكان ..

« أجب عن سؤالي »

قال عويس بصوت عال كأنه بوغت فجأة ، « اسم أمي تحية .. »

طلب منه الشيخ الانصراف والمجيء لحظة طلوع الشمس يوم الجمعة ..

« تقرير مبدئي عن أحوال حسن أفندي أنور » :

يضخر حسن أفندي أنور بأمرين يرددهما دائماً ، أنه لم يدخل قسم بوليس طوال حياته كشاك أو مشتك منه ، وأنه لم يقترض ، ولم يقرض ، وعندما يتوجه إلى سيدنا الحسين لصلاة الفجر في رمضان أو يوم الجمعة يدعو بالتجاح لولديه وهما حصاد عمره ، سمير وحسان ، ويستنزل اللعنات على بعض من كادوا له في

المصلحة ، أو صابقوه في الطريق العام ، أو أفلقوا راحته أثناء تومعه ، أحياناً يذكر اسم شخص معين في يوم واحد مرتين ، يغضب عليه في الدعاء الأول ثم يتحدث أن يلتفتي به ، تقول العكارة من نفسه إزاء هذا الشخص فيدعو الله ألا يقبل دعاءه الأول ، حدث أن التفتي بسيد أبو المعاطي مدير الإدارة التي يعمل بها ، تطلق بصوت مسموع ، « صباح الخير يا أفندم » ، لم يتوقف سيد بك ، لم يرد التحية ، غمره حزن قائم لم يبدده أربعة فناجين قهوة سادة مع أن هذا أمر نادر إذا اعتاد شرب قنجان واحد بعد وصوله ، وآخر قبل انصرافه ، لماذا لم يرد سيد بك تحيته ؟ هو الموظف المنتظم الذي لم يأخذ أجارة عارضة إطلاقاً طوال خدمته ، لم يتأخر دقيقة واحدة يوماً عن التوقيع في دفتر الحضور ، لم يتحایل للاستئذان قبل ميعاد الانصراف الرسمي ، ملفه يضرب به المثل في نظافته ، هل تم عليه أحد ؟ هل وصلته فرية ؟ أم لأنه مؤهل متوسط ؟؟ بالضبط .. سيد بك خريج كلية التجارة وهو خريج المدارس الثانوية التجارية ، عند هذا الحد يوشك على الاختناق ، يقرر الذهاب إلى عبد العظيم أفندي زميله في الدراسة ، ثم الوظيفة ، يمسك ملفاً به بعض الأوراق الرسمية حتى يوحى لمن يراه في الطرقة أو فوق السلم أنه ينتقل من مكتب إلى مكتب لينهى أموراً معلقة ، يقف بباب المكتب فيبعد كفاح طويل ومكائد متينة تمكن عبد العظيم أفندي من الاستقلال بمكتبه في حجرة خصصت كمطبخ قبل استيلاء الحكومة على البنى ، ثم حقق انتصاراً ساحقاً عندما تمكن من إدخال تليفون يضعه فوق نسختين ضخمتين من القاموس التجاري الموحد ، يومها لم يشعر حسن أفندي بالغيرة إنما صرح أمام عاشور وجابر حفظي وحسن دسوقي أن ما أحرزه عبد العظيم أفندي يعتبر مكسباً لحملة الشهادات المتوسطة التدرج الذين خدموا الحكومة سنيناً طويلة ، قال إن خريج الجامعة بمجرد استلامه العمل يتجونه مكتباً فوقه بنورة وأحياناً تليفوناً خاصاً ، عندما تلقى عبد العظيم أفندي التهنئة صرح أن باله لن يبدأ وأن عينيه لن تقرا إلا إذا حصل على تليفون بقرص يمكنه به طلب أي رقم مباشرة وبدون الحاجة إلى السوئش ، في

نفس اليوم كتب حسن أفندي عدة مذكرات يرجو فيها الموافقة على تركيب تليفون بقرص نظراً لحاجة العمل الملحة إليه ، فكر وقتئذ أن الحظ ربما أتاه فيجيبه تليفون بقرص . هنا يحقق خطوة متقدمة على عبد العظيم أفندي ، وإن لم يتحقق هذا فأقل ما سيحدث أن يأتي تليفون عادي ، عندئذ يقف مع عبد العظيم على أرضية واحدة ، مضت فترات متعاقبة وحتى الآن لم يصل التليفون برغم تكراره الطلب مراراً وحرصه كل مرة على ذكر رقم المكاتب السابقة بخط يارز أعلى الخطاب ، في نفس الوقت تقدم بطلب إلى مصلحة التليفونات لتركيب جهاز بمنزله ، قيل له إن الزحام شديد ولا بد وساطة ، ذهب إلى مدير أمن سابق من بلدياته ؟ أخذ منه بطاقة إلى أحد أقاربه الذي أرسله بدوره إلى صديق له يعرف موظفاً كبيراً بوزارة المواصلات ، بعد سنة من تقديم الطلب تم تركيب التليفون ، وعد هذا انتصاراً له ، فن ناحية هو صاحب التليفون الوحيد بالزعفراني أما المصلحة فينفرد بامتلاكه تليفوناً في المنزل بين حملة المؤهلات المتوسطة ، طبع بطاقات جديدة تحمل اسمه وفي الركن رقم تليفونه باللغتين العربية والإنجليزية ، وزع البطاقات على أصحابه وزملائه ، طلب منهم أن يتحدثوا إليه في أي وقت ، بمجرد وصوله إلى المصلحة يتصل بالبيت ، أثناء جلوسه مع زملائه يرفع السماعه ، يتحدث إلى البيت ليعرف أي طعام طبخوا ؟ مع إنه هو الذي يشتري الخضار واللحمة والسمن والزيت وسائر مستلزمات الأسرة ، وفي صباح عيد الفطر اتصل بسيد بك في بيته ، قال إنه يهنئ سعادته بقدوم العيد ، وأنه يتحدث من البيت ، جاء صوت سيد بك بارداً خالياً من الحرارة ، لم تستغرق المكالمات دقائق ، لكنه ظل منفعل طوال اليوم ، لاحظت امرأته ارتعاش يديه إذا تناول كوباً أو ملعقة ، خطوة خطيرة أن يتحدث إلى سيد بك في بيته ، هل يسبب له حرجاً ، هل يلفت نظره ؟ لكن ما يشفع له أن اليوم عيد ، الآن يجلس أمام عبد العظيم أفندي ، يسأل عن أحوال زميله ثم يقول إن الإنسان يحار في فهم أحوال بعض المديرين ، يرفع عبد العظيم أفندي عينيه ، ماذا جرى ؟ يقول حسن

أفندي إن عدداً منهم لا يمكن احتراماً للخبرة الطويلة التي اكتسبها بعمله في الحكومة ، يهز عبد العظيم أفندي رأسه ، يقول إنه يرى العجب العجيب من بعضهم ، فوجيء الأسبوع الماضي بجرس التليفون يدق ، قال آلو ، فوجيء بصوت من الطرف الآخر « يا عبد العظيم » ، عرف على الفور صوت أحد المديرين الشبان فجهاز التليفون المخصص له من نوع جيد بوضوح الأصوات تماماً ، رد عليه : « عبد العظيم أفندي من فضلك » تساءل الشاب « ما الفرق ؟ » قال إن الفرق كبير ، عليه تعلم مخاطبة من هم في مثل سنه ومركزه قبل رفع السماعه ، أغلق التليفون في وجهه ، قال حسن أفندي وهو واثق تماماً من كذب زميله « أحسنت » ، تهجد راجياً إصلاح الأحوال ، قال حسن أفندي « يا عبد العظيم بك ، أربعة لا تأمن هم ، المال لو كثر ، والحاكم ولو قرب منك ، والمرأة وإن طالت عشرتها ، والدهر ولو صفا » ، انصرف مقتنعاً بمشاركة زميل له ضد سيد بك مع إنها لم يذكر اسمه ، يعرف حذر عبد العظيم أفندي تعرف المصلحة إنه يسك عدداً من الورق الأبيض بمجرد وصوله المكتب ، وقلم رصاص ، واستيكة ، يكتب في الركن الأيمن من كل ورقة أربعة سطور متعاقبة ، (وزارة الإنتاج مصلحة الكفاية والعناية بالمنتجات ، إدارة التكاليف — قسم الوارد) ثم يصيغ بعض الردود بعناية فائقة ، عرف عنه اتقانه لصياغة المكاتبات الرسمية ، حتى استدعاه مدير عام المصلحة يوماً وكلفه بكتابة مذكرة على ورق أزرق لرفعها إلى سيادة الوزير ، قضى في إعدادها ثماني ساعات كاملة مما يحق له الحصول على أجر إضافي — لم يطالب به — حتى الآن لم يبح لأبي غلوك بضمون هذه المذكرة الخاصة برغم محاولات العديد من زملائه ، عاد حسن أفندي إلى مكتبه وغصة حلقه أقل تحجراً ، في العصر دخل إلى مأوى الحسين ، دعا كثيراً على سيد بك ، أرجا من حبيبه وشفيعه سيد شباب أهل الجنة أن يحقق رغبته ولو مرة ، أن يرسل وكيل الوزارة في طلبه ، أن يستدعيه مدير عموم المصلحة ، يكلفه أحدهما بكتابة مذكرة كما حدث مع عبد العظيم أفندي ، أو يوجهها إليه شكراً ، حكى ما جرى

لامرأته مع بعض الإضافات ، كزعيقة في وجه المديرين ، صياحه إنه أحسن منهم ، أمره العيال الجدد خربجو الجامعة بالخروج من مكتبه ، رفعت الست سنبة يديها ، استنزلت اللعنات على سيد بك برغم حديث زوجها عن وقتته الصلبة واحتقاره له . حتى اضطر سيد بك إلى الليل على عبد العظيم أفندي طالبا منه رجاء زميله بضرورة احترامه أمام الموظفين ، أثناء الطعام يسألها عن سمير وحسان ، تلاحظ فخره الدائم بهما ، لا يخرجان إلا بإذنه ، يقبلان يده في الطريق إذ يلصقانه ، لم يلعبا في الحارة أبدا ، لم يذهبا لتسوق جبل الدراسة ، كما علق اسم سمير على لوحة الشرف في مدرسته الإعدادية ، في حفل مجلس الآباء سلمه الناظر ميدالية تذكارية ، كثيراً ما ينتبه أثناء حديثه عنها فيخشى العين خاصة عند جلوسه إلى عبده البرتقاني وعض الرماح بمقهى الكلوب المعصري ، لكل منها ابن لم يفلح في التعليم ، الأول هرب ابنه من البيت وعمل ممثلاً في جوفه تطوف بالموائد ، أما الثاني فقوى ركوب العجل حتى استدرجه عجلا تقي للعمل عنده ، يستدرك حسن أفندي فيحكى حادثة عن عصيان سمير أو حسان ، وعدم انتظام سمير في الصلاة مما اضطره إلى ضربه أكثر من مرة ، والحقيقة أن هذه الواقعة صحيحة ، سمير لا يصلي بانتظام ، استدعاه والده ، أغلق باب الحجرة ، قال إنه لا يتصور سمير الهاديء الذي يحمر خجلاً إذا تكلم بصوت عال ، يخالف أوامر ربه ، هنا اعترف سمير بأن ثيابه أحياناً ... ، أطرق ، فهم الأب ، لم يقبل العذر ، طلب منه الاستحمام المستمر ، في اليوم التالي ذهب إلى الشيخ عطية ، رجاء إعداد حجاب لسمير ولده لظنه يتمكن عين منه ، إنه يسأل بدقة عن أحوال سمير وحسان ، هل أخذ كل منها حقيبة كتبه كاملة ؟ هل وصلتها خطابات ؟ منذ عامين لمع فوق الراديو مظلوما كتب فوقه (السيد المحترم الأخ سمير حسن) ، دعر لحجىء خطاب خاص إلى ابنه ، قرأ مضمونه ، ارتعشت أطرافه ، يطلب كاتبه نسخ البسملة ألف مرة ، أوشك لحفظها على الاختناق ، استقر من امرأته عن تاريخ وصول الخطاب ، هل قرأه سمير ؟ قالت إن الخطاب لم يفتح فكيف

يقرأه ؟ بخذر أغلق النوافذ ، أخضر موقد السبرنو الصغير ، أشعله ، جمع الرماد ، ألقاه في دورة المياه ، شد السيوف عدة مرات ، من يدري ، ربما تسعى إحدى الجمعيات السرية لتجنيد ابنه ، فكر في حبس ولده شهراً في البيت ، تصرف كهذا سيلفت النظر ، تحدث إلى عبده البرتقاني عن خطاب وصل إلى نجل أحد زملائه بالمصلحة ، لجأ إليه حائراً ، أبدى البرتقاني مخاوف ، تلك طريقة معروفة ، تتوالى الخطابات ، يرتفع حجم التكاليفات حتى يجد الابن نفسه عضواً في جمعية أو تنظيم يخارب الدولة والمجتمع ، ارتعش قلب حسن أفندي كفرخ الحمام المبلول ، مرت عليه ليالي سوداء ، كل خطوة في الحارة بعد الواحدة صاخاً يظنها لبعض الذين يقصدون اعتقال سمير ، يحمل مصباحاً ، يدخل به إلى سريره ليؤكد من تمدده في السرير ، ربما وضعوا شخصاً آخر ، سارع إلى كتبه ونقلها إلى حجرة نومه . خط فوق كل منها بوضوح « هذا الكتاب يخص حسن أفندي الحرب ، لكن وجود كتب عن الحرب قد يثير التساؤلات ، ينتمى الأمر من بعيد إلى الانقلابات العسكرية ، أضاف سطرأ إلى ما كتب فوق الكتب العسكرية ، « اشتريت هذا الكتاب لهوايتي الخاصة بمعرفة تاريخ الحروب — غت لدى هذه الهواية مع الحرب العالمية الثانية » ، يومياً يسأل امرأته ، ألم تصل خطابات ؟ تنفي ، يطلب منها أن تقسم ، تقسم ، يهضم ، تبدأ امرأته في قص أخبار الحارة ، ما شاهدته عند دخول عربة الخصار ، تذكر أسعار الكوسة ، البصل ، الخلاء المستفحل ، تقص حديثاً أجرتة مع إحدى النساء ، هنا يقول إنه يفضل الابتعاد عن نساء الزعفراني فالاختصار عبادة ، ثم أن الحارة لث من جميع الأصناف ، ولأول مرة يسكنها أعزب يمكنه استضافة امرأة في أى وقت لولا بقطة الأضواء من أبناء الزعفراني ، قالت امرأته إن عاطف مهذب وخريج الجامعة ، التقص حسن أفندي كأن ماء مغلياً صب فوقه ، زعق قائلاً إن أفند خلق الله هم خربجو الجامعات ، لا يفقهون شيئاً ، حامل الابتدائية القديمة متبحر في العلوم أكثر

من دكتور هذه الأيام ، قامت امرأته تهديته ، بعد لحظات خفض صوته ، لم يعتد الأهالي طلوع الحس من بيته . هنا يجب الإشارة إلى أن حسن أفندي يسكن بيتاً من طابقين . إنه الثالث إلى بين الداخل إذا لم تحسب فرن الحاج صغير ، ولد حسن أفندي بالحارة ، في البيت المجاور المفلق منذ شهر بعد اخلائه تمهيداً لخدمه وترحيل سكانه إلى مدينة نصر ، فيه استقرت عائلة حسن أفندي زمناً ، ترك له والده نصف فدان في البلدة ، وقطعة أرض مجاورة للبيت يقال إن والده اشتراها بجنه واحد منذ عشرات السنين ، اقترح عليه أصحابه بيع نصف الفدان واستثمار ثمنه في بناء بيت من طابقين فوق قطعة الأرض الخربة ، أبدى امتعاضاً ، نصف الفدان لا قيمة له لكنه يذكر الناس به في البلدة ، به يعتبر نفسه من أصحاب الأطباء بين الموظفين الذين لا يمتلكون إلا روايتهم ، بعد فترة سمع الأطفال بصيحاتهم ، « هيا نلعب في خراية حسن أفندي » ، تشاءم وقرر بناء الأرض ، لكن كيف وقله لا يطاوعه على بيع نصف الفدان ، يبدوا أن الحس استجاب لدعائه ، بعد أيام التفت بعينه المفاول بذيابته ، قال إن كل ما يملكه مائة جنيه في البوطة ، أبدى المفاول ترحيماً ، قال إنه سيقسط الباقي على عشرين سنة بفوائد بسيطة ، لم يحسم الأمر فوراً ، حكى ما جرى لامرأته ، لأصحابه ، لعبد العظيم أفندي ، لبعض المصلين الذين يجاورونه في الحس ، بعد شهر أربعة عزم أمره ، بعد سنة انتقل إلى البيت الجديد الذي يقيم به الآن ويؤجر الطابق العلوي للدائري ، تنفاهل به إذ أنه ألحج حسان بعد تسعة شهور من الإقامة فيه ، بعد زواجه تردد طويلاً على الأطباء المختصين أكدوا إن العيب به هو ، يبدوا أن العلاج أثمر ، بعد مجيء سمير كفت الست سنية عن الانجاب ، حمد الله ، تعهدما بعنايته ، كثيراً ما غادر عمله إلى بيته خلسة ليطمئن عليها في صغرها ثم يعود ليوقع في دفتر الانصراف ، وضع خطة دقيقة لتربيتها والبعث بها عن أولاد الحرام ، يلاحظ برضا عدم خروجها من البيت كثيراً ، لم يزرها أحد من زملائها ، لم يصفر لها أحد من تحت الشرفة ، لم يلقا عند الناصية ، الآن وصل

سمير إلى المرحلة الثانوية أما حسان فبعد شهر يحصل على الثانوية العامة ، وصوبها إلى الجامعة هدف أساسي ، عرف بنفسه أوضاع حملة الشهادات المتوسطة ، كثيراً ما يفض عينه على لافتة كبيرة تحمل بخط بارز اسم الدكتور حسان حسن أنور - دكتوراه في الطب - زميل بكلية الدراسات الطبية بلندن ، عندما يرى اسم ابنه معلقاً هنا . . هنا في ميدان الأزهار ، يعرف الراحة الحقيقية ، لو تألم أحد معارفه يذكر له عنوان الدكتور حسان حسن أنور ، يجيب على تساؤل محدثه « نعم . . ابني » ، يتأن يخرج بطاقته يقول ، « عندما يرى حسان الكارت سيبدل عناية خاصة و يقدم ميعاد الحجز » ، يطلب منه سيد يك توصية ، سينسى كل شيء بينها فلا شماعة في المرض ، يدير رقم التليفون ، يتحدث إلى . . ، يوصي خيراً بسيد يك وحرمة وأولاده ، إنه يرى نفسه متجهاً إلى مكتب مدير عموم المصلحة ، يطلب التغيب لمدة يوم واحد ، سيوافق المدير لكنه سيبدى دهشة ، يقول إن طلبه أجازة خبر يستحق النشر ، عندئذ يترك خجلاً ، يقول بصوت متواضع ، « ابني الدكتور حسان سيسافر إلى إنجلترا لمدة عامين » ، يهنئه المدير ، يفضي مع امرأته وسمير إلى الطائر ، يلوح لهم حسان ، تعلو به الطائرة ، لن يحتمل لحظة الفراق ، يقول همها منذ الآن ، لا يدري لماذا يتخيل ضرورة اتصاله جنسياً بامرأته يوم سفر حسان ، إنه يقرأ أخبار المجتمع في الصحف ، « سيد يك يشكر الطبيب الانسان الدكتور حسان حسن أنور » ، « عبد العظيم أفندي يشيد بفضل الدكتور حسان حسن أنور صاحب الفضل بعد الله في شفاؤه » ، أما سمير فلم يستقر حتى الآن على اختيار مهنة محددة له ، سأله عما يود دراسته ، أخرج وجد الفتى كبت ، أجاب بليونة « أي حاجة يا بابا » ، سمير يتلطفه ، منذ شهر مال عليه المعلم الدائري ، قال بلهجته الناعسة إن سمير شوه في حارة أم الغلام بصحبة شخص سيء السمعة اسمه مهدي ، بكى سمير طويلاً ، أقسم أنه لا يعرف شخصاً بهذا الاسم ، في اليوم التالي اشترى أبوه ملابس داخلية من مقاسين مختلفين ، أبدت امرأته دهشة ، ما الحاجة إلى هذه

الشياب والأولاد عندهم ما يكفيهم ، قال إن أحد الموظفين وزعها عليهم ، يساعد نفسه ببيع البضاعة ، اشترى منه السراويل القصيرة لسمير والطويلة لحسان ، بعد أسبوع قام إلى المطبخ ، أضاء النور ، بدأ يقلب سبت الغسيل القذر ، قلب سراويل سمير ، عرضه للنور ، رأى البقع الصفراء المتجمدة ، عاد إلى نومه هادئاً ، مطمئناً إلى رجولة ابنه ، الآن ، يأوى إلى فراشه والليل ينتصف ، ينظر مفتوح العينين إلى السقف المصنم ، يستعيد أحداث يومه من خلال صياغة صحفية ، جديدة تخصه ، يرى المانشيت أحمر اللون .. « اعتداء صارخ على حسن أفندى انور » .

« أحداث خطيرة في مصلحة الكفاية » .

« حسن أفندى يتحرك بسرعة في مواجهة سيد بك ، عبد العظيم أفندى يندى تعاطفاً تاماً ، و يعلن تأييده لموقف حسن أفندى » .

« مقابلات هامة » .

استقبل حسن أفندى مساء اليوم بمقر منزله الدائم المعلم الداطوري ، صرح المعلم عقب الاجتماع إن المقابلة تمت بناء على طلبه وذلك لبحث الاضطرابات التي تجرى في الزعفراني ، وظاهرة تشاجر الأزواج خلال الأيام الأخيرة ، ثم تبادل وجهات النظر مع حسن أفندى واتفقا على ان زمان الهدوء ولي وفات ، وانتهاء زمن أهل الخير والمودة .. » .

ثم يذكر حالة الطقوس ، يؤلف المقالات ، حتى يتسرب النعاس إلى مواد صحيفته ، من الشايت إنه وجه جهده منذ سنوات لتربية الأولاد ، أما امرأته فهتمة بولديها ، زهدت في واجباتها الزوجية ، تناسب هذا أحواله تماماً ، صحته لم تعد كأيام زمان ، الأمر يكلف الآن جهداً ، مستحضرات من الحمزاوي ، وصفات بلدية ، إنها تبدي اهتماماً به ، تحنو عليه ، تحرض على نظافته ، تغضب

كقطعة إذا شمت رائحة دخان من فيه ، لم يتم حسن أفندى الليلة مباشرة ، يسمع زعيقاً ، بكاء متصلاً ، يضع عنواناً كبيراً ..

« قلائل واضطرابات في الزعفراني » ..

— ٧ —

كل المعلومات المعروفة عن الشيخ عطية غير مؤكدة ، ثمة حوادث تروى عنه لكنها منقولة عن أشخاص آخرين ، لا يستطيع أحد أن يحدد عدة أمور تدور حول تاريخ مولد الشيخ . يذكره المستون أمثال الشاويش سلام ، وأبو حافظ الخال إلى المعاص منذ عشرين سنة وعم عبده بائع غزل البنات ، باعتباره أحد مصور طفولتهم البعيدة ، يذكر المصوّل سلام إن أخته لم تنجب بعد زواجها ، انقضى عامان ، أظهر زوجها قلقه خاصة أنه تعرض لمشاغب جسام مع أسرته ، راح والده يسأله بعد شهرين من زواجه « ها .. ما الحالة » وهذا من عادات الأسر حتى إذا ثبت عقم الزوجة طلقت بغير نقاش . لكن الزوج تمسك بها ، بذل جهداً كبيراً عند الأطباء ولم يفلح . حتى قالت أم سلام إنها ستلجأ إلى شيخ مبروك يقيم في الزعفراني — وقتها أقامت الأسرة بحارة الدرب الأصفر — اصطحبت الأم ابنتها ومتديلاً للزوج ، جاء معها وعمره وقتئذ ثمانى سنوات ، يذكر الآن دخول أمه وشقيقته على الشيخ عطية في حجرته العتمة ، يريق عينيه المستديرتين ، لا يستطيع استدعاء أى حادث سابق لهذا الموقف إلى ذاكراته ، إنها أقدم صور عمره ، يبدو له الأمر بعيداً متتمياً إلى زمن ناء ، ما يثق منه أنه رأى الشيخ عطية رجلاً مسناً وقتئذ . لهذا يؤكد إنه تجاوز المائة وخمسين عاماً ، يذكره برهة ، يفضلته ألحيت المرحومة أخته أربعة كلهم ذكور ، مات منهم ثلاثة والوحيد النسيق أنجب ذرية وفيرة العدد ، يقول البنات إنه لم ير الشيخ عطية يخرج من بيته . لكنه عندما جا إليه منذ سبعة أعوام ليعده عملاً يلين به قلب ابنه الوحيد

الذى رحل إلى أوروبا ونسى والديه تماماً رآه عجوزاً مستأله حية يتخللها بياض ، أرسل ابنه خطاباً بعد سبعة شهور ، وعلل البعض طول المدة المتقضية بين كناية الحجاب ووصول الخطاب إلى بعد المسافة بين الأب وابنه ، مما يؤثر على قوة الحجاب ، استمر الابن يرسل خطاباً كل سنة أو سنتين يرفق به حوالة على أحد البنوك بمبلغ بسيط ، لكنه لم يكتب عنواناً أو رداً ، علل البعض هذا إنه يعيش متنقلاً ، أكد هذا اختلاف طوايع البريد الملصقة على كل مظروف ، تؤمن أمه إن بركة الشيخ ستعيده يوماً ، سيطرق الباب وعندما تفتحه ستجد ابنها بلحمه ودمه ، سيرسوفى أحضانها ، يصبح « أمى » ، تقبله ، يمس « القرية أرهقتنى » وبعد انصراف الجيران يسند رأسه إلى ركبها ويجكى لها ، أم رأس الفجلة شوهدت تتجه إلى غرفة الشيخ ، منذ سنوات قالت للست وجيدة إن الشيخ باركها وهي طفلة ، يومها انتهرت الست وجيدة فرفضت العجوز الصامته دائماً ، سألتها ، هل تعين على الشيخ ؟ قالت ، وكيف لا .. وهو البركة كلها ؟ إنها تذكر ما جرى للشيخ حسين صاحب البيت الذى يقيم فيه مولانا الآن ، رفض ملحه سكناً فى البداية لما اضطره إلى المبيت يومين متتاليين فى الخرابة التى يقوم فوقها الآن بين أم لبيلة المدرسة ، قام الشيخ حسين .. فجأة سكنت العجوز ، نظرت غاضبة ، لم تتحدث إلى الست وجيدة حتى الآن ..

فى مولد الحسين نجىء الصوفية وأرباب الطرق ، ينزلون عند بعض السكان ، يفتشون الحارة ، الشيخ يحتجب خلال الموالد ، يتردد اسمه فى قرى مصر وكفورها ونجوعها ، بل إن ركاب الدرجة الثالثة فى قطارات الصعيد يعرفون عجوزاً يمر بين السقاعد يتلو شعراً يتضمن أسماء جميع أصحاب المقامات والمشايخ وأولياء الله الصالحين بمصر ، يذكر بينهم الشيخ عطية ساكن الزعفرانى ، يؤكد الأهالى إنه سيرى القيامة بعينه ، ولد من بطن أمه نابت النعجة ، تكلم بالقرآن قبل خروجه من الرحم ، ماتت أمه بمجرد ولادته ، البعض يقول إنه رأى الدنيا فى

الزعفرانى ، آخرون يقولون إنه استقر فى الحارة بعد طواف عظيم ، سيقوم الناس ذات يوم فلن يجدوه بينهم ، سمع البعض صوته يتلو الآيات البيئات فى ليالى المطر الشتوية ، ورآه عدد من الأهالى يخرج إلى الزعفرانى فى أشد الليالى برداً ، معارفه من أجناس مختلفة ، يجيء إليه المغاربة أثناء انجابههم إلى مكة للحج ، زبونة المطلقة ساكنة الطابق الوحيد المتبقى فوق غرفة الشيخ سمعت ضحكات وقوراً تتردد أثناء زيارات هؤلاء ، رأت هنوداً وسمعت الشيخ يقول لهم « أهلاً بآبائكم العمومة » ، جاء زنوج ورجال ملاعهم صينية لكنهم يتحدثون العربية ، لم ير الأهالى طعاماً يجيء إليه أو بقايا تخرج من عنده ، يقولون إن الجن يتقدمونه ، يطيطون إلى السماء ، يتصنتون على ما يتهاوى به الملائكة بخصوص مصائر الناس ، فى عام ١٩٤٤ قال للست أم سامية إن شمس يوم الجمعة القادم لن تشرق على إبنك ، وفعلت صعدت روحه إلى السماء قبل شروقها بساعة .. يذكر أحفاد الشيخ حسين إن فقهاً كسيحاً جاء محمولا على كتفى نوبى طالب فى الأزهر ، فى هذا الزمن البعيد لم توجد أزفة مساكن ، لهذا لم يفكر صاحب البيت فى تأجير هذه الغرفة الواقعة تحت السلم والثلى جاءت زائدة كنتيجة لتقسيم البناء ، وموقعها ، إذ أن السلم يعتبر سقفها ، لكن فراغها يتد إلى ما دون مستوى الأرض بمحوالى مترين ، عند دخولها لا بد من نزول خمس درجات ، خالية من التوافد ، شبه مثثة ، يتسع جدارها القبلى حتى ليبلغ طوله أربعة أمتار ونصف ثم تضيق حتى لا يتجاوز جدارها البحرى متراً إلا رباعاً ، بلاطها من حجر مصقول يتأثل تماماً أرضية الزعفرانى ، رفض الشيخ حسين تأجيرها ، قال إنه أقسم ألا يأوى أعزب فى بيته ، إنصرف الشيخ وصاحبه النوبى الذى يحمله ، فى اليوم التالى جاء تجار بخور وعطور ، رجوه تأجير الغرفة هذا الكسيح الزاهد ، قالوا إنهم يبذلون جهداً حتى يقبل دخول متاجرهم والبقاء فيها لحظات ، قال الشيخ حسين إنه أقسم ألا يؤجر لأعزب ، ثم لماذا الإصرار على هذه الغرفة بالذات ؟ قال بالنسبة لعزوبيته فلا ضرر منه ولا نفع ، أما اختيار الحجرة فن أسرارته التى لا

يسأل فيها ، طلب منهم مهلة حتى اليوم التالي ، في المساء وبعد صلاة العشاء ومصافحة جاريه فوجيء بأحدهما يخاطبه باسمه شيخ وقور ، أشيب اللحية ، رجا الشيخ حسين أن يمنح غرفته لعطية الصالح العابد ، ثم همس ، ما هكذا يجب معاملة النواصلين ، في اليوم التالي جاء ، الطالب النوبي وهو ، طلعا إلى صاحب البيت ، خلا به الشيخ عطية ، ومنذ هذه الليلة لم يخرج من الزعفراني ، في الصباح التالي جاء الطالب النوبي بعربة يد ، تجمع عدد من أطفال الحارة يرقبون ما ينقله النوبي ، عدد من كتب قديمة ، صندوق كبير بني اللون .

أحيانا يتحدث عنه الناس ، يتساءلون ، بطرحون الاستفسارات ، يسكتون فجأة ، تمتد صمتهم شهورا حتى يقع أمر ربما شديد الضلالة ، ينمو الحديث عنه ، لكن في جميع الأحوال لا يفارق الأهالي شعور بأنه على مقربة منهم ، يرقبهم ، يعرف ما يدور بينهم ، نساء الزعفراني مفرعات بنسب الخوارق إليه ، يقطن إنه متزوج من جنية رائعة الحسن ، يرحل إلى أماكن مختلفة من العالم ممطيا ظهر أحد المردة تؤكد إحداهن إنها فتحت باب حجرته فلم تجده ، قادر على اتخاذ هيئات مختلفة ، ربما يتخفى في تلك القطة السوداء المارة الآن ، ينتهين فجأة إلى تجاوزهن الحد في الحديث ، بعضهن يتذكرون السلام المظلمة التي سيصعدنها أثناء عودتهن ، يهمن « والله كله بركة » ، ينتقلن إلى موضوع آخر .

يرهبه الأهالي بلا شك ، لا ينسون المصائب التي تعرض لها بعض من حاولوا النيل منه ، في سنة ١٩٤٢ ، أثناء اشتداد الغارات الجوية على القاهرة ، انتشر عدد من المصوص يستترون بالظلام ، يبدو أن أقاويل وصلتهم حول محتويات حجرته من مجوهرات و يواقيت ، زمرد ومرجان ، لم يرهيبهم ما تردد عن وجود ققم يضم عفرينا محبوسا عنده ، ربما انطلق لاصطدام أحدهم به أو بأمر من الشيخ نفسه ، حاول ثلاثة منهم الهجوم على الغرفة ، وقف اثنان بالخارج ، خطا ثالث إلى داخل الحجرة ، لم يقرب بابها ، قبل أربع خطوات زعق ، ارتدى ممسكا

بطئنه ، هرع زميلاه ، شيء ما أخافها ، طبيعة الأصوات التي يصدرها ، صراخه الممدود كالعويل ، ربما غموض الليلة ، هربا ، في الصباح وجد السكان شخصا مشوه الملامح كأن يدا ضخمة لوته بعنف ، بيده خنجر ومقاليح وز كية قماشها مخطط بالأحمر والأصفر ، حاولوا تحريكه لكنهم عجزوا ، نقله جنود البوليس متخشيا ، تبين أنه هارب من عقوبات لا حصر لها ، ثمة حوادث أخرى جرت شكلت جوا من الخذر والخشية تجاه الشيخ ، تكشف هذا منذ سبع سنوات عندما احتجب الشيخ ، انقطع زواره الأغراب ، أغلق بابه ، قبل اختفائه قال لمن جاءوا إليه أنه سينقطع لأن عملا جليلا وعظيما سيستغرقه ، في البداية دارت تكهنات ، قيل أنه سيقلب حجارة البيوت ذهبيا ، سيوزع على أهالي الزعفراني جرعات من ماء عين الحياة فلن يموت أحدهم أبدا ، سيملا البيوت عسلا مصفى وخيزا وجبنا ولن يجوع أحد أبدا ، أبدى عدد قليل مخاوف ، كيف ينتظر خير من كسح ، مقعد ؟ ، لامهم السامعون وطلبوا سحب ما قالوه ، بمضي الزمن نسي الأهالي ما قيل عن عمله الجليل ، زنوبة المطلقة ترى بابه مغلقا باستمرار ، بعض الأطفال يدخلون الفناء لالتقاط كرة أفلتت منهم أثناء اللعب ، يرققون الباب بسرعة ويخرجون ، تجنب بعضهم الاختفاء في الفناء أثناء لعبهم عسكر وحراميه ، صحيح أن الباب موصد ، لا صوت يسمع للشيخ ، لكن احساسا غامضا يثقل فوق الكبار والصغار كلما التفتوا ناحية البيت أو تذكروه ، منذ شهر واحد ظهر شخص نوبي ، رأت زقونة الباب مواربا ، قالوا إنه عاد من سفر طويل خلال الليل والزعفرانيون نيام ، سرت إشاعة بعودته غاضبا ، أوجد هذا خوفا في قلوب البعض — خاصة السكان القدامى ، على أية حال لم يجد الأسطى عبده إلا الشيخ يلجأ إليه في محنته ، بل أنه تفاءل ، لو أدركه العجز منذ ثلاثة شهور لما وجد الشيخ ولما استطاع التماس العون منه ، وحتى مساء الجمعة بلغ عدد المترددين على الشيخ عطية ستة رجال وامرأة واحدة ، كلهم من الزعفراني ، طلب منهم الحضور يوم الجمعة قبل شروق الشمس والسبعة هم ،

١ - الأسطى عبده السائق بالنقل العام .

٢ - رأس الفجيلة .

٣ - عويس الفران .

٤ - علي المكوحي .

٥ - طاجون أفندي غريب .

٦ - روض ابنة أم صبرى (أحضرت معها منديلا وقالت إنه أثر لشاب

تعرفه أصابة ارتخاء على الأعصاب) .

٧ - فرقر الموسيقىار .

« ملف ٢ »

بعض وقائع أولى
جرت يوم جمعة

لحظة دخول على المكوجى إلى حجرة الشيخ عطية ورؤيته عويس
الفران أصيب بدهشة ممزوجة بخجل ، خفت حدة مشاعره قليلا لحظة وصول رأس
الفجلة الذى عاش طوال عمره متجنباً دخول بيوت الجيران ، لدرجة أنه أثناء جمع
عبيدية المسحراتى يقف فى الحارة حاملاً قفة ويرسل ابنته الصغيرة لتجمع له
أطباق الكعك أو تقودا قليلة ، ان ملاحظه الآن تتغير تبعاً لتزايد دقائق قلبه ، يدرك
أنه فضح . صمم الا يوضح بكلمة واحدة عن حالته أمام أى شخص من هؤلاء ،
عندما جاءت روض تمتمت « بسم الله .. ماشاء الله » ، اضطرب خطاها ،
وقفت بعيداً عن الرجال ، تنظر إلى الشيخ عطية متوسله ألا يفضحها ، لم تسمع
أنه أذى مخلوقاً من قبل ، عندما دخل الأسطى عبده مرتدياً حلتة الصفراء ، فوق
صدره شعار الهيئة ، أوتو ييس مجنح ، أدركهم شبه يقين أنهم جاءوا فى ظروف
واحدة ، ما أدهشهم هو وجود « روض » ، لماذا جاءت ؟ ان أبصارهم مطرقة ،
الصمت ثقيل ، ما يغشاه كل منهم أن يوجه الشيخ إليه حديثاً يكشف أحواله
ويجعله « جرس » ، الأسطى على يعرق ويتشعر جلد ظهره ، بعضهم تحراً ورمق
الشيخ ، للدقة يمكن القول أنهم نظروا إليه جميعاً ، من هنا يمكن تكوين صورة
واقعية سريعة للشيخ ، انه قصير القامة إلى حد لا يتجاوز معه طول طفل فى
الثامنة ، ضيق الكتفين ، عريض الخوض ربما لاثناء سابقه الكسيتين تحت
جسده ، يفوض رأسه حتى لا تبدو له رقبة ، إنما ثلاث دوائر من اللحم كل منها
تعلو الأخرى ، وجهه بيضاوى ، متورم ، أو هكذا يبدو خاصة أنه بدون تجاعيد ،
فه صغير مزوم ، جفونه غليظة ، جلده مترهل ، يخيل للنظر إليه أنه لو مد يده
وأمسكه فسيستطيل معه إلى مالا نهاية كالحلاوة السائلة ، هذا ما يعطى وجهه
كله طابعاً غريباً يتناقض مع لحية الصغيرة البيضاء ، يبدو كجنين أجهض ثم ما

حتى حد معين أما عيناه فتستديران تماماً ، تبرقان ، خضروان ، أمامه أوان
نحاسية منقوشة ، الى اليسار أربعة صناديق خشبية فوق بعضها ، عتمة الغرفة
يتخللها ضوء خفى المصدر ، أيقن قرقر الموسيقى أنه باستطاعته قراءة كتاب صغير
الحروف بدون صعوبة ، ربما تسبب هذا الضوء الغريب إلى جانب عوامل أخرى
فى عدم القدرة على إطالة النظر إلى الشيخ ، شيء ما يصد نظراتهم عنه ، لا
يسمح للعين بالاستقرار أكثر من لحظة فى اتجاهه ، عندما رفع رأسه أدركوا أن
الشمس تشرق فى هذه اللحظة ، أصغروا إلى صوته البطيء ، القادم من كل مكان
فى الغرفة .

« لم يكتمل العدد بعد » .

يدير إهاميه حول بعضها إذ أن تتواء صغيراً يبرز جلبابه ثم يختفى ، تذكر
عويس الشيخ صالح عمدة بلدته ، عندما يجلس فوق الدكة الكبيرة أمام المسجد
الصغير ، يرسل نظراته فى اتجاه واحد بينما إهاماه يتابعان بعضها .

« لن أفضل الحديث إلا إذا جاء سبعة آخرون .. أغنى البعض ، لكننى
أطلب أربعة عشر ذكراً . منهم عاطف ابن حسنين جودة » .

ارتعشت روض ، مشى الفيل دافئاً تحت جلدها . تخشى الفضيحة .

« أريد الذكور فقط . ربما أبدى البعض مانعة ، لكن ما يشكومنه كل
منكم ، ما أخبرنى به سرا . سيلقاه عند من يقصده » .

بداية اليوم .

لم ينصرفوا ، الأمر يبدو معقداً ولا يمكن لكل منهم التصرف بقرده ،

تابعوا السبت «روى» أثناء ابتعادها ، لماذا جاءت ؟ عويس يوشك أن يقول «كل منكم يعاني ما يعانيه الآخر» ، لم يلفظ كلمة ، يحتفظ بسافة تفصله عن الباقي ، الأدب واجب ، لا يصح الاقتراب من أبرز سكان الزعفراني ، لأول مرة يتقف مع عدد من الأهالي ، أنه غريب عنهم ، لا يتبادل الحديث مع أحد ، ولا يجلس على فهوة المعلم الداطوري ، ولا يقوم بزيارة زعفراني واحد ، ثم جاءت هذه المرأة في حارة درب الرصاص لتجعلهم ينظرون إليه بضيق ، بعد فترة من سكنه نسي أمره لأنه ينام النهار كله ولا يراه أحد عند خروجه الليلى إلى الحمام ، ثم أمور مستقع اليوم ، ما هي إلا مقدمات لأحداث أخرى ، يذكر صباحا بعيداً في قريته ، صحا على صراخ في بيت أبي مسلم ، قام بجري ، خاض أشعة الشمس البكر التي تفرش البلدة ، قتل فيض الله أثناء مبيته بحقل البطيخ ، يبدأ جو من الخدر والترحيب بلف القرية ، قد يطول أو يقصر ، ربما امتد أعواماً ، يدرك الجميع أن من الحق عائلة أبي مسلم قتل أحد أفراد أسرة «عوض الله» ، لن تنتهى الأمور في الزعفراني عند ذهابهم صباح الغد إلى الشيخ ، قال على المكوجي لا بد من التصرف بسرعة لأن المهلة محدودة ولا بد من ذهاب كل منا إلى رزقه ، أو شك الأسطى عبده أن يسأل كلا منهم عن السبب الذي دفعه لزيارة الشيخ عطية لكنه خشى مطالبته بذكر السبب ، كل منهم يتجاهل ما جاء الآخر من أجله ، قال إنه لا يدري إلى من سيتوجهون لكنه يعتقد أن ذكر الشيخ عطية لاسم عاطف أفندى يوجب الذهاب إليه ، هنا نظر طاحون أفندى إلى الأسطى عبده باعتباره أقرب الموجودين إلى مسئوله الوظيفي ، صحيح أنه سائق أوتوبيس وطاحون أفندى سائق قطار ، لكنها بصلات في الحكومة ، قال إنه سيقابل عاطف ، أوحى في هجته وإشارة يده إلى صدره أنه قادر على مناقشته بأسلوب يرقى إلى مستواه ، نظر إلى الباقي ، رأس الفجلة لا يخفى استمراره إذ تجمعهم الظروف مع عويس الفران ، ملامح وجهه لا تبرز مدى حقيقته ، هذا ينظر بطرف عينييه ويتحرك بعيداً ثم يعود للوقوف كما أنه نفخ ثلاث مرات بضيق ، أنه يجير

على إجابة كل ما يتطلبه الموقف حتى تعود إليه قواه وهديء فريضة التي تسخر منه علائقية الآن لدرجة أنها أول أمس ملأت كوباً بالماء البارد وسكبته في قفاه ، لم ينهرها ، «عينه مكسورة» ، الأسطى عبده يشير إليه ، وأنت ؟ ، قال إنه سيذهب ليدعو التكرلى ، أن الأسطى على المكوجي يعجب في سره ، كيف تختمه فريضة الحلوة التي تصغره بأعوام كثيرة ، منذ شهرين حل بنفسه فستانين ، ذهب بها إلى شقة رأس الفجلة ، عندما فتحت له فريضة الباب ورأى ذراعها الممارتين وحسدها يضوى من خلال القميص الشفاف ، ابتلع ريقه ، عويس الفران ينظر من موضعه البعيد نسبياً إلى رأس الفجلة ، يلعب النفوذ التي تحير امرأة خضراء العينين ، حلوة ، على معايشة رجل كهذا ، يذكرها إذ تنحنى كاشفة عن نهدنها الصغيرتين الصليبين عندما تساعد لرفع طاوولات العجين ، تمتد ذراعها إلى أعلى فتكشف إبطارثها ، أثناء نزوله تتعمد أم يوسف كنس السلم ، واضح أن طاحون المتعجرف هذا لا يكفها ، حسرة تلامس روح عويس ، أضاع فرصاً ذهبية للمتعة مع أم يوسف ، بمجرد زوال هذه النعمة ، واكتمال مدخراته سيشتري حربة اليد ، يهجر الحمام والأفندية وعهدهم الليلى ، يجنى اللذات من بساتين أم يوسف ، من فريضة ، حرم هؤلاء الذين يتجاهلونه الآن ، يخفون أحوالهم بالأنفة والشموع الكاذب والاعراض عنه ، قال الأسطى إنه سيتحدث مع المعلم الداطوري ، وقال قرقر إنه سيتوجه إلى عاشور التجار . هنا قال طاحون أفندى ، لا بد من الذهاب إلى حسن أنور ولديه ، أنه من عقلاء الزعفراني ، من يذهب إليهم ؟ تبيينوا أن الوحيد الذي لم يكلف عويس الفران ، هل يصح إرسال فران ضائع إلى موظف يخدم الدولة منذ ثلاثين سنة ، أعلى رأس الفجلة أنه متصرف ليفتح الدكان ، قال الأسطى عبده ، لم يبق إلا عويس ، رفع عويس يده بالتحية ، قال على المكوجي ، عويس «لبلب» في الكلام ، ورفع عويس يده مرة أخرى عجباً .

التكرلى:

يعرف رأس الفجلة ويسمع عن مخزنه الغامض ، وعلاقته بفريدة امرأته ، من خلال ما تصفى إليه زوجته عبر الشرفات ، من متابعتها مرة أو مرتين لفريدة وهي تأتي بحركات مضحكة لحظة خروج زوجها ، مع ذلك أبدى برودا وسأل « من سيادتك » ؟ ندم رأس الفجلة على توجيهه إلى هذا الشاب الطرى ذى الصوت الرخو الذى لم يدعه حتى للدخول ، لكن « ما يريك على المرأ الا الأمر منه » .. أنه مضطر إلى الملاينة حتى يقنعه بالجمىء صباحا ، تساءل التكرلى عن الشيخ عطية ؟ أبدى رأس الفجلة دهشة ، كيف يحمله والزعفرانى تعيش ببركته ؟ ان ضيقا يخفق التكرلى منذ أيام ، ليلة البارحة أوشكت الفضيحة على الاندلاع ، تشاجر مع أحد ضيوفه ، اضطرت اكرام امرأته إلى التدخل بينها ، لماذا يريد الشيخ عطية ؟ ربما يطالبه بمغادرة الحارة ، هؤلاء المشايخ جواسيسهم الذين ينقلون إليهم الأخبار فيواجهون بها الناس ، يبدو الأمر معجزة فى نظر أمثال رأس الفجلة هذا . خطرت له فكرة بعيدة تماما عما يمكن أن يوحى به الموقف .

كيف يقبل رأس الفجلة امرأته ؟ من يراها لا يصدق أبدا أنها متزوجة من هذا الشانخ متفرج النعم ، لو عشقها أحد مشايخ العرب لدفع لها آلاف حتى تطلب الطلاق ، أو مائة جنيه لو اقتصر الأمر على متعة ليلة واحدة ، وهدية ، زجاجة عطر أو راديو ترانزستور مع ريكوردر كاسيت . لكن ما العمل وهو يعطى « الخلق للى بلا ودال » ، يقدر التكرلى المرأة بما يمكن دفعه لها مقابل متعة عابرة ، أثناء مشيه فى الطريق يقول لنفسه ، هذه عشرة جنيهات ، هذه تساوى خمسة ، قال رأس الفجلة إن رجالا آخرين سيذهبون إلى الشيخ ، هل سيعقد مجلسا ليفضحه ؟ ربما حكى وقائع واستدعى أشخاصا ، خاصة أن عددا من الرجال المترددين عليه فى الأيام الأخيرة متوترون جدا ، أعلن أحدهم - مدير

تكنوبلى - أن هذا لم يحدث له مطلقا ، طالب بجنياته الخمسة ، قال التكرلى إنه لا يستحق استرداد ما دفعه لاختلاله بأكرام وخلعها ثيابها كاملة ، لم تبق قيصا أو سروالا ، كشفت نفسها له ، لاعتبه وناغشته أكثر مما يحدث عادة مما كلفها جهدا تستحق معه بقشيشا مجزيا ، أما توفيقه أو فشله فقير مسئول عنه ، ربما أصغى أهالى الزعفرانى إليها ، يحاولون دائما التصنت عليه ، خاصة عاطف الساكن تحته ، رصد نظراته الشرهة إلى نادية ، سيولجى الشيخ بنعم ، سيلوح بصلاته الوضيعة مع بعض ذوى النفوذ ، سيتخذ موقفا إيجابيا ، سيطلب اللبنة من بعضهم طرد الشيخ من الحارة خاصة أن الدجل والشعوذة يعاقب عليها القانون ، يشير إلى احتمال نشر شائعات عنهم بواسطة هذا الرجل مما يضر مراكزهم والعيار « اللبى ما يصيب يدوش » ، أخفى توتره ، بصوت ناعم قال لرأس الفجلة انه سيذهب معهم لبرى حكاية هذا الشيخ ، سيرغم على الاستيقاظ مبكرا ، فإين سيتقايون ؟ ؟

عاطف:

يفزع من مواجهة الليل وحيدا ، لهذا يخرج منفردا ، هاربا من العتمة ، يخشى عمق اللون الرمادى وصدى أحاديث بعيدة وأطياف وعبر روائح وبقايا زحام طرقات عبرها يوما برفقة من أحب ، يلجأ إلى الزحام محتميا من الليل ، يمضى بلا قصد ، يتأمل القمصان ، الساعات ، الأشياء الأثوية ، يود الاسراع لكنه يطيل النظر إلى علب الروائح والساعات الدقيقة الملونة تعرض على الاناث داخل الدكاكين ، الآن يتأمل و ينظر ولا يشتري ، لمن سيقدم هدايا الحبيب ؟ قبل عيد ميلادها الرابع والعشرين ذهب إلى صاحبه فريد عند حدود المدينة ، استشاره فيما يمكن تقديمه ، اقترح فريد فستانا ، اقترحت أمراة ساعة ، أعجبه ما قالت ، حيار أمام المتاجر ، عندما عزم أمره ودخل ، سأله البائع هل يفضلها للسهرة أم للعمل ؟ قال البائع إن الساعات المزخرفة اللامعة لا تصلح إلا للسهرة . أما الساعات العملية فلا تفارق المعصم أبدا ، انتقى ساعة بين ، بين ، عاد إلى

امرأة فريد، أبدت إعجابها، قال « تفضلي »، ابتسمت « تعيش وتحب لها »،
عندما مضى إليها خفت خطاه، لانت الأرضة، بدت له الطرقات المؤدية إلى
بيتها رحبة وهواؤها أصفى والناس الماشون جديرون بالحب، ود لو تحدث إلى
راكب الأوتوبيس المجاور له، إلى الكسارى، إلى الركاب، وعندما وقف
بواب العمارة دس في يده ورقة مالية، عشرة قروش، أحاطت عتقه بذراعها،
أسرعت تنادى أمها لترها هدية عاطف، في عيد ميلادها، إن عاطف لا يشي
الآن في الطريق المؤدية إلى بيت رحمة، في لحظات الليل الأولى يرى فتاة، يجوع
إلى الحب، يمضى محاطا بسور خفى يعزله، يفضل في وسط المدينة، انه الآن في
البيت، مستسلم لمحى الليل، أحزانه متضاعف، تمسى هيا ثقيل لكنه بعيد،
لا يرغب في الخروج، لو علم فريد لا عثر هذا علامة، كيف يمضى عليه ثلاثة
أيام لا يخرج أبداً؟ لم يفكر في الذهاب إلى المستوصف ليعتصر فكريّة الممرضة
بين أحضانه كما فعل مرة واحدة ثم أنقطع تماماً، ربما تذكرة روض الآن بدهشة،
ربما بالاحتقار، استسلمت له بلا معاناة، أغمضت عينها وانفجرت شفتاها،
فاجأة صوت « رحمة » وهسهات ليا ليها ومرات تناولها الطعام، عندما التظا
في درب قرمز، لمح أسى في عينها الواسعتين، بدت راغبة فيه، لحظة دخولها
حجرة نومه أيقن من ذهاب أيام الشوارع والوحدة الملتاعة في قلب الزحام،
حديث الناس وهمس الفتيات وعروض الباعة وتوسلات الشحاذين، لم تخف
روض شيئاً، اشتهاها، قرر أن يقص لها ما رآه مع رحمة، بعد عجزه يتردد كثيراً
في الإفصاء إليها بما انتهى إليه حبه، ستظن عدم قدرته معها سبباً لا ابتعاد
« رحمة » عنه، لو قص ما جرى على أصحابه لقالوا إن هذا أمر عاذى لا يستحق
الانزعاج، ثبت فاعلية على أيديهم وهم شهود، لكن خوفاً يقبض قلبه، ما
أصابه أكبر من عارض طارىء، ربما ينزع الخجل من الخروج، بتخيل روض
مطلّة من النافذة، تهمس لنفسها أو لإحدى صاحباتها، هذا الأفندى الأثيق
الجامعى، الطويل، العريض (غالوش)، الآن يتقل الليل عليه.

يطرق الباب ..

يتخاف محى روض، ربما تلتفت حولها الآن، تبتعث منها رائحة صابون
معطر رخيص، يود لو تنصرف، هل يضيف إلى عجزه عجزاً جديداً؟ لتدعه
حتى يدرك منبع الوباء، حاول بمفرده أمس، أول أمس، لا فائدة، تهاجمه
موجات متتابعة من الذكرى ولا يستطيع صدا، انه أعزل، مستسلم للعتمة، ماذا
بقى أمام الليل ليهدمه؟ من عاداته النظر أحياناً إلى الشرفة، أو تقليب رواية
بوليسيه، لكنه منذ عودته يلتصق ظهره بالجدار، يبدو الزمن وعرا في نهاية النهار،
كأن ما جرى في حياته كلها وقع في نهار واحد هو الذى يراه راحلاً.

طرقات من جديد، معال، رجل ما، من؟

لا يستنظر محى أحد، في مكتبه أفضاه الانتظار، تخيل إليه أنه لورقع
رأسه سيرها واقفة بالباب، ضحكها التي استبقها من زمن الطفولة، من؟

انه رجل قصير القامة، نحيل، رآه كثيراً أثناء دخوله وخروجه الحارة.

« طاحون غريب .. سابق بمصلحة السكك الحديدية ».

تساءل عاطف عن الشيخ عطية، من هو؟، لماذا يطلبه؟ عند الباب
كرر طاحون رجاءه، ألا يخلف الأستاذ عاطف الميعاد، لقد اضطر إلى طلب يوم
إجازة مع ان إجازته تسبب ارتباكاً، يتغيب عن قيادة قطار الصعيد الذى يعمل
عليه منذ زمن، عندما عاد عاطف إلى موضعه أدركته رعشة، عينا طاحون
تحمقان إليه من جوف العتمة، فيها سخرية وتعبير واضح « الحال من بعضه ».

ينزل الآن مسلم بيته . أيقظ ولديه مبكراً حتى لا تدركه أشعة الشمس فيفسد اللقاه ، لا يستطيع رفض طلب للشيخ عطية حتى لو جاء به عويس القران صاحب الأمور الخزنية ، نادراً ما يطلب الرجل الصالح من أحد الأهالي الحضور إليه . كثيراً ما يجيء أهالي الأرياف إليه عبر المسافات الطويلة ثم يكشفون أنه محتجب فيعودون خائبي السعي ، يرتدى ولداه ثيابها كاملة وكأنها ذاهبان إلى صلاة العبد ، يضيفان بصحته . يضطران إلى المشي ببطء معينة ، يكرههما على زيارة بعض الأقارب ، يطيل جلوسه ، يضطران إلى السكوت ، في الطريق يلتمح بعض معارفه ، يسرع الخطى حتى يتعد مسافة عنها ثم يلتفت إليهما ، يزعق طالبا منها التقدم لمصافحة أحد زملائه ، يشير إلى حسان قائلاً إنه في الثانوية والنسبة متجهة إلى الطب بإذن الله ، أما سمير فيدرس بالإعدادية ويتوق دخول الهندسة ، لا يخفي على حسان تباهي والده بها . لا يضايقه هذا ، سمير يخجل ، يرى والده أشبه بالهروج . تخفيف الحركات ، قال لأخيه ان والدهما يعرضها كالقردة . أيدى حسان ضيقاً ، قال إنه تعب كثيراً في حياته ومن حقه التناخر بها ، الآن يتبادلون النظرات . سهرتا حتى ساعة متأخرة يستذكران دروسهما ، تمنيا لو امتدت بها ساعات النوم قليلاً خاصة أنهما في العطلة التي تسبق الامتحانات ، ان رجالاً آخرين من الحارة يقفون أمام غرفة الشيخ ، سمير ينقبض قلبه . ربما قال لوالده تفاصيل عن علاقته بعطوة الطعمجي ومبروك طالب الأزهر ثم ان وجود عويس هذا أزعجه . لمح مرة في الحمام ، اكتفى يوماً يدخلون المغطس ، هل يذكره ؟ يحرص ألا تلتقي نظراتها ، انهم يتصافحون ، يتبادلون نظرات قلقة ، طاحون يقف مشدوداً ، عاطف يقف شاحب الوجه ، يده أمام صدره ، يتقلقل قلبه من ساق إلى أخرى ، عويس يبدو نشيطاً ، التكرلى يقف بعيداً عن الحاضرين ، يتجاهلهم ، قال طاحون ان شروق الشمس سيتم في

السادسة وأربع دقائق ، اتصل أمس بأحد أصدقائه في جريدة « النداء » وأخبره بالتوقيت المضبوط ، الآن الساعة السادسة وثلاث دقائق ، قال حسن أفندي إن ساعتته تشير إلى السادسة تماماً ، أكد طاحون أفندي دقة ساعتته ، أحضرها أحد أصحابه العاملين في المطار ، اشتراها من السوق الحرة ، اعتماده عليها في معرفة مواعيد وصوله وقيامه من المحطات دليل على دقتها ، ختم كلامه بنظرة باسمه إلى التكرلى وعاطف ، فيما بعد عندما استعاد كل منهما الموقف بفردته ، لم يستطع أن يحدد بالضبط من الذي صاح قائلاً « تفضلوا » .

(ملخص ما قاله الشيخ عطية في لقائه بأربعة عشر ذكراً من حارة الزعفراني ، وبالحظ احتجاجه أثناء الحديث خلف ستارة لونها بني باهت يميل إلى الأصفر) .

بدون أي مقدمات ، قال الشيخ عطية إنه عالم تماماً بأحوال الواقفين أمامه ، وحال كافة الذكور الزعفرانيين ، جميعهم فقدوا رجولتهم إلى حين ، ان بعض المعطيين (استعمال كلمة العطب ، وكررها مرات) ليسوا رجالاً أصلاً ، الوضع الجديد لن يغير من جوهرهم . في هذا مظاهر لا أصل لها ولا صورة عندهم .

• أي ذكر سيخطو فوق أرض الزعفراني سيغضب .

• أي طفل سيولد منذ الآن فوق الزعفراني خاسر مقدماً .

• أي امرأة زعفرانية تضاجع رجلاً من أي مكان في العالم ، سيلحقه عجز مهبط اختلقت حسنيته أو ملته ، قال إنه استثنى من ذلك ذكراً زعفرانياً واحداً . وامرأة زعفرانية واحدة ، لحكمة أفسدها ، لأسباب خفية لن يعلن أسمها أبداً .

قال إن كل من يترددون على حارة الزعفراني سيصيبهم الطلسم ، حدد
هذا بالمتحدثين في تليفون حسن أفندي أنور وكل من يزعم في الحارات المجاورة
بحيث يسمع صوته السكان الزعفرانيون ، كل من وقف خارج الحارة وصاح
مناديا أو سائرا من زعفراني ، سيخطب أيضا ، كل من حاول الحاق الضرر بأي
طفل أو امرأة أو رجل زعفراني ، أي إنسان يحاول دخول الحارة ، سواء حاول
عبور جوف الأرض ، أو التعلق بالسواء .

قائ إن ما أصابهم وما سيصيب الآخرين لن يفلح فيه أي علاج طبي .
أو نفسي .

قال إن ما لحقهم هو البداية .

قال إن طلسمه قوى ، متحرك ، شامل ، نافذ ، واعر ، أعده لحكم
ارتأها ، وتدابير سيعلن عنها في حينها . لن تقتصر على الزعفراني إنما تشمل
الدنيا وسائر الموجودات وجميع أنواع المخلوقات ، ما دفعه تأمله في الأحوال
والمصائر ، وأسباب ناشئة ، دائية ، سر الطلسم لا يعرفه إلا هو ، لن يفكه إلا هو ،
لن يفلح أي طلسم آخر في إفساد آثار طلسمه ، ما أعده الأول من نوعه والفر يد
في مكشوفه ، لن يصفى إليهم ، فكل قول عبث ، وأي جهد ضائع ، عليهم
الانصراف ومتابعة ما سيقلده ، ما سيطلبهم عليه ، لن يقبل بحىء أي إنسان
إليه . سيقوم عمومي فقط بالتدرد عليه مرتين ، عند شروق الشمس ، وعند
غروبها ، لسمع منه وبتقل عنه .

« ملحق تابع لملف ٢ »

ما جرى خلال الجمعة
وأيام تالية

يمكن القول إن أحداً من رجال الزعفراني لم يذهب إلى عمله . حتى الرابعة بعد الظهر لم تسمع الأصوات اليومية المعتادة ، امتنت الأحاديث الصباحية فوق السلام ، وعبر الشرفات ، والصيحات المتفرقة الى تسمع عادة بين الحين والحين كزعيق امرأة تأمر ابنها بوضع إناء فوق منضدة ، أو إعادة شيء إلى مكانه ، خلعت الحبال تماماً من الغسيل ، لوحظ خروج عدد كبير من الأطفال حتى التاسعة صباحاً ، عرف فيما بعد أنهم منحوا مصروفاً على غير العادة ، ذهب معظمهم إلى سينا الكواكب التي تعرض أربعة أفلام منذ التاسعة صباحاً وحتى الرابعة مساءً ، بعضهم — وهؤلاء أكبر سناً — ذهبوا ليركبوا دراجات ، خلعت الزعفراني من ضجيج الأطفال المعتاد ، المدارس الابتدائية أغلقت أبوابها منذ فترة واعتاد الأهالي صباحهم ، لم يلعب أحد منهم الكرة الشراش ، لم يتماسك اثنان ويصرخ أحدهما حتى تظل أمه من الشرفة ، تبدأ توجيهه (أمسكه من ياقته .. خذ طوبة واضربه .. اختبئ .. هناك .. اضربه .. اضربه) ، هنا تظل أم الطفل الآخر ، تبدأ مشاجرة عنيفة ربما انتهت بتدخل الرجال بعد عودة كل منها إلى بيته ، صمت الزعفراني لاحظته الباعة الذين دخلوا الحارة ، لم تشتت منهم امرأة واحدة ، لم تناد أم سهر التي تعودت أن توقف كل بائع وتسأله بصوت عال عما يبيعه مع أن صوته يبع من وصف ما يعرضه ثم تجادل في الأسعار ، معظم الأحيان لا تشتري ، لهذا يتجاهلها كثيرون ، ليس بمعنى عدم ردهم على نداءاتها أبداً فهم لا يجربون ، ربما اعترضت طريق من يضايقها بجردل ماء قدر ، لكنهم يجيبونها بدون حماس ، ويتخذون المناقشة معها وسيلة لإعلان الأسعار على النساء الأخريات ، لم تظل أم سهر مع أن تولفت بيتها ظلت مفتوحة ، أدهش هذا عشر بائعاً بياهم كالآتي :

• ثلاثة ، أولهم اسمه البيومي من بولاق المذكور ، الثاني اسمه عبد الهادي من العطوف ، الثالث صعيدي اسمه ونيس ، كلهم باعة خضار .

• بائع قماش متجول اسمه هريدي ، يسكن الحمازوى الكبير ، يحمل لفات قماش باتسنا وكستور ويكنا ، يبرز من تحت أبطه متر خشبي يقيس به .

• فسوق بائع البطاطا ، يرى دائماً بحارة درب الفراخة أول الليل نائماً فوق عربته .

• امرأة تباع اللبن الرائب ، تحملها في قربة موضوعة في قفة فوق رأسها ، ممشوقة القوام ، صوتها حلو ، تأتي مشياً من نواحي شبرا الخيمة ، لا يعرف اسمها .

• بائع غزل بنات ، لم يبع بنعريفة واحدة في الزعفراني نظراً لغياب الأطفال .

• سمكري متجول اسمه عم رضوان ، يشاع عنه قضاؤه فترة بمستشفى المجانين ، إذا طلع بيتاً ليصلح موقداً ، يجلس فوق البسطة تتحلق حوله النساء ، يرقبته بخذر ، يحاولن استثارته ليقص بعض ما رآه في المستشفى ، لكنه لا يتكلم كثيراً ، وربما انطلق في الغناء فجأة ، أو البكاء الحاد ثم يتوقف كما بدأ ، ويقال إن سبب ذهاب عقله حبه لامرأته التي هجرته منذ عشرين عاماً ، ولما يتردد أنه فحل مع النساء ، كثيرات أقن معه علاقات جنسية أثناء غياب أزواجهن ، أغراهن على ذلك فحولته ونقص عقله ، إذ من سيطن أن امرأته ترضى لمجنون أبله مثله ، بعضهن يعطينه نقوداً ، أو طعاماً ، يحكى أنه ثار على امرأة جميلة من حارة الجوانية يتمنى الكثيرون مجرد النظر إليها ، وقف في الطريق بصيح بأعلى صوته ، يا امرأة أنا غمت معك . يا ، لم يصدقه أحد ، ولا زوجها حتى ، شجع هذا

نساء آخريات ، وفلائل يجزمون بتعقله التام ، و يروى البعض أنهم سمعوه ذات ليلة في حارة الوطاويط يسخر من يظنون جنونه ، والله أعلم ..

يضاف إلى هؤلاء ساعى اليريد .

في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق عاد أحد الغائبين ، أنه الأسطى
رمانة السياسى ، كل ما رآه بدا له جديداً ، تعجب لنسيانه بعض معالم الحارة
خلال استعادته لها في سجنه ، عند مغادرته مبنى هيئة الأمن الأعلى منذ ساعة
راح يشغل استقبال الزعفرانى لعودته ، صياح امرأة « الأسطى رمانة خرج » ،
تخرج أم سهير ، تميل بجسدها الضخم من الشرفة ، ترعق .. الله أكبر .. الله
أكبر .. جيران العمر سيقدمون مشاعر الأسرة التى يفتقدوها ، مضى كل زملائه
إلى زوجاتهم ، هو لا يمضى إلى عائلة ، تخيل تتابع الجيران على حجرته ، يقولون
« حمد الله على السلامة » . يرد التحية مرتين ، الأولى خفية إذ يهمس قلبه .. أى
سلامة ، والثانية منطوقة « الله يسلمكم » ، هل انتقل السكان إلى حارات
أخرى ؟ أخبار الزعفرانى لم تصله لعدم وجود من يرسله ، خلال غيابيه يأتى أحد
أقاربه إلى الوصول سلام كل شهرين أو ثلاثة ليسد إيجار الفرقة الزهيد ، فى
المرات السابقة ضاع ما استأجره من حجرات وما اشتراه من أثاث قليل ، أقسى
ما يواجهه العائد عدم وجود مأوى فى زمن يضيق الناس ببعضهم ، الآن يصعب
السلم متمهلاً ، تباطأ دقات قلبه ، شقة الأسطى على المكوى مغلقة ، لا يدرى
من يسكن الغرفة الواقعة تحت السلم ، الهدوء الثقيل يعيد إليه صمت الزنانات
حيث الحبس الانفرادى ، السجن داخل السجن ، حيث تنفى أصوات الدنيا عدا
قطار تعود سماعه آخر الليل ، يتردد مرتين ، تمام الثانية يبدو نائياً ، يضيف إلى
همه هموماً ، فى المرة الثانية يبدو الصوت قريباً ، يسمع صوت المعجلات عندما
تعبر فواصل ما بين القضبان ، الآن يفتح حجرته ، الغبار والعنكبوت والصدأ
وضيق الملابس والجير فوق نافذة الزجاج الوحيدة ، يجلس على حافة السرير ،

يضع يديه متلاصقتين بين ساقيه ، ماذا جرى ؟ يعمق الصمت مع أن الحركة
تتزايد عادة فى هذا الوقت ، تملأ أصوات اللعب و يضطر إلى النزول ليطلب من
الأولاد الابتعاد بالكرة قليلاً حتى يمكنه النوم . كأن الزعفرانى كلها تشيع جنازة
ما ..

الثانية والنصف ارتفع صوت مذياع باللحن المميز ، نشرة أخبار الظهيرة ،
أول صوت مرتفع يسمع فى الحارة منذ شروق الشمس إذا استثنينا صياح الباعة
وضجة الأطنان لحظة خروجهم شبه الجماعى ، بعضهم فضل ركوب المراجيح فى
ميدان الحسين ، وشرب العصير من دكان خارالمبو فى العتبة ، وهؤلاء بدأوا العودة
حوالى الثالثة ، معاد الغداء تقريباً ، حوالى الرابعة خيل إليه انه يسمع زعيقا ، لم
يستطع تحديد مصدره ، لا بد أن بعض أهالى الزعفرانى الطيبين انتقلوا إلى
أماكن أخرى ، هذا طبيعى ولو أنه يقبض قلبه ، يجسد عزلته ، ويذكره بمضى
الزمن وما يصحب انتقاله من تغير الأحوال ، الثبات الذى أوثق أيامه ، جرت
خلاله متغيرات عديدة فى حياة الآخرين ، معالم المدينة تبدلت ، رأى وفقاً تدور
العربات فيه . إلى اتجاهات مختلفة ، لون الأتوبيسات الأحمر لم يألفه ، هدموا
المباني القديمة بميدان الحسين وأقاموا مباني جديدة ، يتضاءل هذا إلى جانب ما
رآه فى الزعفرانى ، الصمت ، ليته جاء من طريق بيت المال ، ومر بمقهى
الداطورى ، لكنه أثر الوصول إلى الحارة عن طريق أم الغلام الجانبى ، الرابعة
والثلث سمع صوت الست بثينة والأسطى عبده ، اعتاد الزعفرانيون خناقهم
المستمر ، ورغم تكراره إلا أن مجرد بدئه يدفع النساء إلى النوافذ ، خاصة خديجة
الصعيدية التى لا تخرج من بيتها أبداً إلا بصحبة زوجها النجار ، المشاجرات
تكسر حدة الرقابة التى تعيشها خاصة وأنها لا تملك جهاز راديو ولا يسمع لها
بالذهاب للفرجة على التليفزيون عند الست فريدة امرأة رأس الفجلة ، أول من
علقت الايرال المعدنى فوق شرفتها ، الست خديجة لم تخرج ، لم تظل عند تردد

صوت الست بثينة وهذا عجيب ، ما جرى قى شقة الست بثينة عرف فيها بعد ،
إذ أن الأسطى عبده توجه إلى امرأته بعد انصرافه من حجرة الشيخ مباشرة ، لم
يدع لها فرصة لتغسل وجهها ، ألح في طلبها ، نامت مرفوعة الساقين ، لعل
وعسى ، لم يقل لها ما أعلنه الشيخ ، تعجبت ، ماذا جرى له ، منذ أسبوع يفشل
يومية حتى ضاقت به ، لكنه واصل محاولاته ، من يدرى ، ربما قصده الشيخ عندما
قال إن شخصا واحدا لديه القدرة فى الزعفرانى ، وصلت إلى درجة من الإثارة
والتوهج وهو غير قادر على إطفاء نارها ، بعد يأسه فى الثالثة حكى لها ما جرى ،
لم تصدق ، قالت إن هذه حجة يتعلل بها ، منذ الآن لن تستطيع اقتناء رجل فى
المظهر فقط ، قال إن الأمر لا يخصه بمفرده بل ما جرى له جرى للأهالى كلهم ،
لكنه ، تكور مذعورا ، فى أسوأ أحواله يعدو أمامها عبر الحجرات ، أو يرد
ضربات ، مرتين ، عضها فى كتفها ورد فيها ، بدا ضيلا فى عينيها ، أمسكت
شبهها ذا الكعب الخشبى ، استغرتها عيناه المتوسلتان ، تقسو عليه بدافع غامض ،
ربما لأنه قلبها طوال اليوم كالسمكة ولا فائدة ، يرفع يديه عتيا كطفل ، يعلو
صراخه قبل أن تلمسه ، فجأة ترمى الششب ، تنجه إلى اللبكونة ، لم يتوقف عن
الصياح ، تعلن أن بعض أولاد الحرام الذين آوتهم الزعفرانى سنين طويلة يتسبون
الآن فى إيداء الخلق ، لن تسكت على ما حدث ، إذا ظن البعض أن أعمالهم لا
يمكن قهرها فهناك من لديهم أعمال أخطر ، هانت الزعفرانى طالما عبث بها من
لا أهل لهم ولا فصل .

يصغى الأسطى رمانة السياسى بدهشة ، ماذا يجرى ، يطل من النافذة
الضيقة فى نفس اللحظات التى توقفت بثينة خلالها لترى أثر ما صاحت به ، لم
يخرج أحد ليسمعها ، تلمح رمانة ، تتوجه إليه بالحديث ، قالت إن الحارة خلعت
من الرجال وجميع ما جرى وما سيجرى لهم يستحقونه لأنهم فقدوا رجولتهم منذ
زمن ، ماذا يجرى ؟ عاد إلى داخل غرفته ، لا يود إطالة النظر إلى أى امرأة حتى

لا يشق عليه أحد . ينظر إلى العروق الخشبية التى تصلب السوق المرتفع ، بثينة
تعرفه تماما ، لم تقل له كلمة . لم تهته ، يتسم بسخرية ، يصغى إلى قولها
« خلعت الحارة من الرجال » .

حوالى الخامسة توجه التكرلى إلى عاطف ، لم يعرف ما دار فى المقابلة
لكن شهود التكرلى قبل المغرب يتحدث إلى طاحون قال إنه فى سبيل اتخاذ
اجراءات مضادة بواسطة معارفه ، تمنى طاحون له التوفيق ، بدا متحفظا ، غير
راغب فى الحديث بعكس التكرلى الذى لم يخف ضيقه .

المغرب ، يعلو ضجيج الأطفال ، تخلو الشرفات من النساء ، أم سهر التى
اعتادت قص النوادر والحكايات لم تظهر ، عاطف لم يخرج فى مياعده لليوم
الثالث على التوالى ، لم تفتح نوافذ حسن أنور ، تحت بيت الست بثينة ، خرجت
لطيفة العجوز ، جلست فى مواجهة زوجها البتان ، انه عامل قديم فى طاحونة
بن ، موضوع حديثها واحد ، ابنها إسماعيل المسافر منذ سنوات بعيدة ، آخر
خطاب وصلها منذ خمسة شهور ، أخبرها بعبوره ميناء الاسكندرية ، لم يستطع
مغادرة المركب ، مع الخطاب أرسل عشرين جنيا ، زغردت وتناقلت الزعفرانى
الخبر من الشرفات وفى أحاديث العشاء الليلية بين النساء وأزواجهن ، الآن
تتحدث لطيفة العجوز عن رغبات ابنها ، حبه للشاى المحلى بقطع سكر الماكينة ،
لا يحب السكر الناعم ، شربه الشاى مرتين فى اليوم ، مرة يغمس فيه خبز
الصباح ، ومرة بعد قيامه من النوم قبل المظيب ، حتى الآن تعد أكواب الشاى فى
نفس البعداد ، تحتفظ بموضع نومها خاليا ، سوى الفراش صباح كل يوم كأن
إسماعيل تنقلب فيه ليلة كاملة ، منذ شهور جاء أحد أقاربها من البلدة ، اقترح
البنان أن ينام معها فهو كبير السن والفنادق المحيطة بالحسين مرهقة ، رفضت ،
نوم شخص آخر فى مكان إسماعيل فأل سبى ، اضطرت إلى دفع أجرة البيت
للرجل مما أرهقه ماليا يومين متتاليين ، إنها يتخيلان إسماعيل داخلا ، تصحو

الأم على ما يشبه الطرقات ؛ يتفحص قلبها كحمامة مذبوحة ، تصرخ .. من . .
اسماعيل ؟ خيبة تضغط رأسها بين كتفيها إذ تكتشف أن الطرقات نتاج مؤثر
بعيد ، الآن يجلسان متواجهين ، لا يدريان ما يجري في الحارة ، مشدودان إلى
اسماعيل ، ربما عبر بآخر الدنيا الآن ، ربما يعبر الطرقات أمام فرن الحاج صبير
متجهاً إليهما ، إذ يكتمل الليل بدخولان ، يواصلان انتظارهما .

يردد عزف « قانون » متصل مصدره بيت قرقر ، يتقطع ، يختفى ، يبكي
طفل ، يرتفع صوت ينهره ، يصيح صوت « يارب » ، يبدو أن الوصول سلام
وامرأته خرجا ولم يرجعا طوال اليوم لأن الأسطى رمانة لم يجدهما عندما نزل السلم
وطرق بابها ، رأى رجلاً يرتدى جلباباً بلدياً ، يجلس القرفصاء ، أمام الحجرة
الواقعة تحت السلم ، رفع يده عجباً ، « أنا محسوبك عويس القران » ، سأل
الأسطى عن الوصول وامرأته ، قال عويس إنه لم يرههما لكن يبدو أنهما في
حجرتها ، قال الأسطى إنه طرف الباب كثيراً ولم يفتح أحد ، ضحك عويس ، إن
الوصول عجوز جداً وأحواله منهكة قبل الطلسم فلماذا يعلق الباب ؟ تسأل
الأسطى رمانة ، أي طلسم ؟ قال عويس إن الحارة كلها تعرف ، لا بد أن
الأسطى عائد من سفر ، قال رمانة إنه فعلاً راجع من غيبة تشبه السفر ، تسأل
عويس ألم يأت إلى الحارة إلا في هذا اليوم ؟ تسأل الأسطى عما يحدث ؟
ليست هذه الزعفراني كما يعرفها ، بدا عويس جامد الوجه ، ربما يغضب الشيخ لو
علم بشرقته ، يمكن لأي زعفراني أن يحكي ما يشاء ، لكن الأمر يختلف بالنسبة
إليه ، هو من وقع اختيار الشيخ عطية لينقل عنه ، آماله تعاوده ، ربما ساعده
الشيخ في الحصول على عربة يد ، رمانة حائرة لصمت عويس المفاجيء ، ما لكل
شيء ، يبدو غريباً ، ما هذا الطلسم ؟ لحظة خروجه من البيت لمح طاحون
أفندي ، يعرفه جيداً ، كثيراً ما وقف معه وأبدى رأيه في الشيوعية والاشتراكية ،
تحدث عن طريق وضعه للوصول إلى الاشتراكية الشاملة ، إنه يرى ضرورة

تكايف آلاف من البشر ، الفقراء ، المطحونين ، يعملون في سرية تامة ، يبدأون
حفر شبكة ضخمة من الأنفاق المتصلة ببعضها عن طريق أنفاق أخرى ، يأوون
إليها أثناء النهار ، يخرجون في الليل ، يسطون على القصور ، البنوك ، يخزنون ما
يستولون عليه في مكان قصي بالأنفاق ، حتى يصل الأغنياء إلى درجة بالغة من
الفقر بعد سلب ثرواتهم رويداً ، رويداً ، عندئذ تبدأ الجهود لضمهم إلى أهالي
الأنفاق ، وعندما يتم السيطرة على ثروات الأرض كلها يقفزون إلى النور ،
يشيدون عالماً خالياً من الفقر ، من المرض ، قال طاحون أفندي إن خلاصة من
رجال أشداء ستقوم الدعوة على اكتافهم وهم سيشفون على توزيع الثروات ،
ستلغى النقود ، نوضع غاذج منها في المتاحف ، المال أساس الشر ، ثم إنه يعكس
الغيباء الإنساني ، قشمة ورقة مالية قيمتها عشرة قروش لا تكفي لشراء علبة
سجائر ، وقشمة ورقة أخرى من نفس الحجم ، لكن قيمتها مائة جنية ، أو ألف
دولار ، أو عشرة آلاف فرنك ، ربما اشترت سيارة كاملة ، سينتهي عصر الأوراق
الرمزية هذه مع تحقيق الاشتراكية الشاملة ، كل إنسان سيعمل يقدم إليه الطعام
والشراب ، وقال إنه أعد خططاً تفصيلية وكتيبات صغيرة تشرح نظرية الأنفاق
ومسار العمل ، إن عمله كسائق في السكك الحديدية يمكنه من نشر الدعوة ،
حالياً لا يسبح بأفكاره إلا لأقرب الناس إليه والأسطى رمانة قريب منه لأنه
صاحب فكر ، يختلف معه لكنه يحترمه ، ولكي يبرهن على ما يقول ذكر عدداً
من أسماء الكتتب ، بعضها لماركس ولينين ، وذكر اسم روزالو كسمبرج ،
صمت بعد بطقه ، كأن معرفته للاسم يعني قوة التعقق في مذهب الأسطى
رمانة .

عينا رمانة تلتقيان بعيني طاحون أفندي ، لم يتوقف ، لم يتהל وجهه ،
تعبير وجهه أقرب إلى الدهر ، يدخل بيته كمن يهرب ، يدهش الأسطى ، هل عبر
الحسن من هبته ؟ يلعب بلاط الحارة تحت ضوء الفانوس ، قشر كومة ويطاطس
وأوراق ممزقة أمام بيته أم صبري ، يتجه بخطى بطيئة إلى مقهى الدافوري ،

يجلس المعلم هادئاً ، اعتاد رؤيته صامئاً ، إذا تحدث يشير إلى العمارة التي ينوي بناءها فوق أرض لم يشتريها ولم يخطرها بعد ، سنوات طويلة يتحدث عن هذه العمارة ، لدرجة أن بعض الزبائن عرضوا عليه نقوداً كعربون خلوي ، أطلقوا الرجاء ليقتبل منهم ، لكنه هز رأسه متمهلاً ، كل ما سيأخذه شهراً إيجاراً وآخر تأميناً ، يعرف اضطراب البعض إلى بيع أثاث بيوتهم لتدبير المبالغ اللازمة للخلو ، حاول البعض الارتباط معه بكلمة شرف ، ورفض ، فقرر دراسة جميع الحالات المتقدمة إليه للسكنى في عمارته ، ليس معقولاً أن تتقدم إليه عروس تعيش بعيداً عن عريستها ولا يمنحها سكناً ، سوى همس بأن المعلم لن يقبل إلا العرائس لكنه نفى ذلك .

يتقدم الأسطى رمانة ، لا يرحب به أحد ، لا يتنبه إليه أحد ، لا يشعر بوحشة قدر شعوره بدخشة ، عادة يرحب الزعفرانيون به ، لا يهابون السلام عليه ، يمثل قبة « الجذعنة » في نظريهم ، يتحدث الحكومة ، يدخل السجن ، ماذا جرى لهم ؟ لا يدري ، ها هو ذا الأسطى على المكوجى الساكن في الطابق الأسفل مباشرة ، يقول إن الطلسم أهد في الهند ، مثل هذه الطلسم القوية لا تعد إلا في الهند ، منذ شهر رأى ثلاثة هنود يدخلون الزعفراني بعد إنهاء الشيخ لاحتجانه ، يستأهل أحد الجالس عن حقيقة شخص لم يفقد القدرة ، يستأهل الأسطى رمانة عما يجري ، عن حقيقة الموضوع ؟ يتنبه الداظورى إليه مما يجعله يرفع صوته قليلاً لكنه يعد رقيقة بالنسبة لظرفته في الحديث .

من .. الأسطى رمانة .. ألف حمد الله على السلامة .

يتعاقبان ، يضافحه الأسطى على مرحباً ، يستأهل أحد الشبان الغرباء ، يقول الأسطى على إن رمانة انقطع زمناً يوازي المدة التي نستغرقها المسافة إلى الهند ، يقول الشاب إن الإنسان يذهب إلى الهند ويعود منها في أربعة أيام لكن

رمانة غاب أربع سنوات ، يقول الأسطى على إن الهند أبعد مما يتصور الخلق ، يضحك الشاب ، الأسطى يعيد الأشياء كلها إلى الهند ، يقول الأسطى على إنه لولا استمرار الهند لما حدث ما حدث في الزعفراني ، قلب رمانة مقبوض الآن ، ربما لأن هذا ميعاد مجيء العساكر ، تمام اليوم ، يولجون مفتاحهم في الأقفال الضخمة ، تبقى الأبواب مغلقة حتى الصباح ، ومع أن باب الزنزانة يؤدي إلى العنبر حيث الأبواب أضخم ، فإنهم يتحدثون إلى الجنود ويقدمون إليهم السحائر ليستبقوا الزلزال بين مفتوحة ولو لدقائق ، الحاضرون يرمقون الأسطى رمانة ، يهر الداظورى ميسم الشبيبة في يده ، يقول « ألم تستطع السقرو لا بتعداد .. لماذا جئت إلى الزعفراني ؟ »

التكرلى :

صباح السبت قال لأمرأته إنه سيذهب إلى رشدى بك القالمونى ليستشير ، رفعت حاجبها ، بدت شفاقة الحسن ، هكذا تدوب بعد استيقاظها ، لورأها أحد معارفه لما تأخر عن دفع كافة ما يطلبه منه ، حاولت إكرام تذكر صاحب الاسم ، أنه رشدى بك الذى انقطع عن زيارتها لسفره إلى أوروبا ، عاد منذ شهر واتصل به مستفسراً عن « الفتحة » لكنه لم يجبرها في الوقت نفسه ، تعض شفتها السفلى المستدنة بالحفرة ، يتسم التكرلى ، قال إنه سيذكرها ، قد رجا يتحول صوته إلى همس ناعم يقول إنه الرجل القصير البدين الذى اكتفى بالنظر إلى جسدها العارى ، ثم الزوى في ركن سريرها كذا ، انفلقا حشرجات وأذات تم عن حسرة شديدة .

تطرق إكرام ، تغمض عينيها ، خجل يكسو وجهها ، يقترب منها حتى يوشك قد على ملاسة خافة أذنها ، أى متعة يلقاها في قصص التفاصيل ؟ يبدأ هادئاً ، يرتعش صوته ، تحتاج جسده اختلاجات سريعة ، بينما يتسرب صوته

الساحم إلى عروقها ، أحيانا يعرض على بعض عملائه أن يرى جزءا من
المضاجعة ، في العادة يدخل حجرة النوم وحيدا ، تجلس نادية مع الزبون في
صالة البيت ، يشترى كئوسا من زجاجة حمر يحضرها معه العميل عادة ، بينا
التكرلى يكتسب العرفة ، يغير ملاءة السرير ، لا يدع أى تجهيزات صغيرة ، يضىء
المسبة البوردية المجاورة للسرير ، يرتعش عندما يتصور ما سيجرى بعد لحظات ،
يشغل حوله ، يصيح مناديا ، يذد اكرام بنفسه ، يخلع ثيابها ، قطعة ، قطعة ، بعض
الزبائن يفضلون خلع الملابس بأنفسهم ، الالتصاق بجسد اكرام قبل خلعها
القميص الداخلي الناعم ، موظف كبير أمر بإزالتها الملائس من جديد عندما
رآها عارية تماما ، لو سمح للتكرلى بالمشاهدة فإنه يجلس على كرسي
منخفض ، يسط بديه على ركبته ، يتلجلج جبينه ، يعرق ، يتابع اختلاجاتها ،
يضغط أسنانه إذ تغضض عينيها ، يقوم خارجا وبه دوار ، يشبه للغاية مرائى أصابع
قديها عندما تنفخ من الشعة ، الآن يحاول التكرلى استعادة ما قام به رسلنى
بك ، كشتافوه بالمروور على حلقة اللدى بلسانه ، كافة التفاصيل التى جرت فى
البيت الثلاث الأخيرة واضحة فى ذهنه الآن ، لكل الشعة فى قصتها تفرقة ، لا
تزال اكرام مغمضة العينين ، عادة تصفى إليه هكذا ، يشربها بطريقته فى الهمس
إثارة لا تبدها مع هؤلاء الرجال ، فى لحظات همه تنسى الحارة والنداء ، ذهباها
مع التكرلى إلى بعض معارفهم الذين لا تسمح مواكبتهم بالحضور إلى
الزعفرانى ، تنسى مضامقات بعض مشايخ العرب العجائز ، شخص واحد لا
يكرب التكرلى ، إنه تيل الطالب الجامعى الذى جاء منذ عام تقريباً ودفع جنبها
واحداً مما الخضب التكرلى ، لم يأت به أبداً ، لكنه زارها كثيراً قبل بعد إنشاء
شبابه ، نفتح عينيها متمهية ، شىء غامض يرحف صوته ، ماذا به ؟ عذمت يديها
أمام صدرها ، طول عمرها معه لم تفرجه بكلمة ، حتى فى شهور زواجها الأولى
وقته ، التيل ، هل فقد قدرته على الكلام أيضاً ؟ يتوه فيحارة معلنا ضرورة اتحاد
أسد الإجراءات عند الشيخ عطية ، سيقلب الدنيا عليه ، تحدث إلى رأس القبلة

وعاطف الجامعى وطاحون والأسطى على المكوى ، نظر إليها معتذرا ، الظروف
تجبره على تجميع الجهود كلها ، ونزوله إلى حديث من ترفع عنهم طويلا يجعلهم
أكثر جرأة فى التحرك معه ، إنه مستقر الآن ، اصطحابه لأحد الزبائن فيه
مخاطرة ، والطلسم يلحق كل من يظأ الزعفرانى ، تكرار الأمر يهدد بفضيحة ،
يجىء شخص كرشدى بك يخلو من المخاطرة لا كتفائه بتمعة اللمس ، لكن أمثاله
قله ، اكرام تخشى أمرا واحدا ، مجىء تيل ، ليس خوفا من التكرلى ، لا يطبق
رؤيته ، عندما تحدثت عنه زعم مطالبها بعدم ذكرها لهذا التلميذ ، احتضنها
هامسا إنه يغار عليها ، غمرتها دهشة لم تفصح عنها ، يأتى إليها كل ليلة بخمسة أو
سبعة فى بعض الأحيان ، منهم عشاق حقيقيون ، يأتون إليها بهدايا ، يكتبون
الخطابات ، يسكنون بيدها ، يضغطونها فى وجد ، ولا يطبق سماع اسم تيل ؟
منذ أن رآه مرة داخله إحساس غريب ، رأى ثمة شيئا خفيا بين امرأته وتيل ،
كأنه شقيقها ، طريقة همه ها أرعبته ، نظراتها إليه ، إنها تخشى مجىء تيل
الآن ، عرفت آثار الطلسم بنفسها ، عجز فحول بين احضانها خبرتهم منذ
سنوات ، عجز غامض ، يقيم سداً بين جسدين أوشكا على اتحاد ، التكرلى لا
يستوضحها الآن عما تفكر فيه ، اعتاد صمتها الطويل ، ثبات عينيها مدة من الزمن
على نقطة ما فى الخجرة ، الآن تقرر المخاطرة ، ستذهب إليه ، يقيم فى المدينة
الجامعية ، أى مبنى ؟ أى حجرة ؟ هذا ما تجهله ، لن تياس من العثور عليه ،
ستقول إنها شقيقته من البلدة ، لا بد أن تمنعه من الحضور ، التكرلى يقبلها
الآن ، تقوم لتودعه ، منذ عامين تصادف نزول أوسهير من فوق السطح تحمل
سجادة قديمة نشرتها ليلة كاملة فى الهواء ، رأتها ، صاحبت « يا صياح الجمال
واهنأ والفعل المندى على العرائس » ، أبدت اكرام خجلا مضجوبا باحمرار
الوجنتين ، فى نفس اليوم قامت أم سهير بعدة زيارات لتقول إنها رأت عينيها
التكرلى يقبل امرأته ، علفت الست بشنة قاتلة ، هذه عادات الذوات ، أما
فى مدة فعامت فى عينيها نظرة حاملة ، قالت إنها مناسبات لبعضها تماما ، أشارت

الست بشينة إلى بعض أقاربها الأغنياء ساكنى القصور الفاخرة بالزمالك ، تُشاء إحدى زياراتها لهم فوجئت بشاب من أقاربها يقبلها ، قبلة خفيفة لم تترك أثراً ، اضطربت ، كيف تصرف ؟ لكن الشاب ابتعد وكأن شيئاً لم يحدث ، فيما بعد قالت أم سهر لفريدة إن ما روته بشينة كذب ، لابد أن هذا الشاب أحد العيال الضالعين الذين تبخوا من ميراث علاقاتها القديمة برواد المراقص والكباريات وقت عملها راقصة ، أما الست خديجة الصعيدية فقالت إن زوجها لم يقبلها أبداً ، يحدث أحياناً أن يقرب منه من وجنتها ومد شفتيه إلى الأمام يحدث صوتاً شبيهاً بالطريقة مستخدماً لسانه وليس شفتيه فهل هى القبلة ؟

يدرك التكرار ضرورة التزام الحذر ، كل من فى الزعفرانى عنده بلواه ، لكن العميون ستسمع أكثر ، يكفى أن يطلع الزعفرانيون على جانب من حياته ليلوكوا سيرته عشر سنوات كاملة ، يتوقف فجأة عند مدخل البيت ، عويس الفران يجيء من ناحية بيت الشيخ يقف فى منتصف الحارة تماماً ، يباعد ما بين ساقيه ، يضع يديه كالقوق أمامه . .

يا أهالى الزعفرانى ..

يا أهالى الزعفرانى ..

الداطورى :

ما قاله عويس لم يتردد بين الزعفرانيين فقط ، إنما تداوله رواد مقهى الداطورى ، بل إن مضمون النداء توحش فى مقاه أخرى بنفس المنطقة كمقهى السلام ، ومقهى صالحي صفيحة ، ومقهى عمر پرواز ، والأخير بعيد نسبياً عن الزعفرانى ، وهذا يدل على اتساع الموضوع ، فى نهاية الليل سمع عن شاب من سكان بيت القاضي يدرس بكلية الآداب ، قسم الصحافة الحرة ، أبدى اهتماماً

وقال إنه سيرض الأمر على رئيس تحرير الجريدة التى يتعمق بها لأن الموضوع « خبطة » ، بعض رواد مقهى الداطورى ناقشوا ما سمعوا عنه بسخرية ، لكن ما أذاعه عويس جد قليلاً من الجواساخر ، دب دعر حقيقى بين الرجال الساكنين فى الحواري المجاورة ، المعلم الداطورى لا يجيب على أى تساؤل ، إنه جامد الوجه الآن ، لا يبدو عليه أى انفعال ، لكنه مصغ تماماً إلى ما يقال ، كثيراً ما أضفى إلى أحاديث تدور بين الزبائن العابرين أو كما يعرفون بين أصحاب المقاهى بالزبائن « النقالى » ، ربما يبدأ الاصغاء من منتصف الحديث ، يظل جامد الملامح ، يعمل فكره بسرعة محاولاً ربط أوصال الكلام ، سمعه حاد بحيث لو أراد الاصغاء إلى حوار بين اثنين فى قلب الضجة لما فاته حرف ، مرة جاء الحاج عبد المؤمن الساس وهو من أحباب الحسين ، اشترى من الجهاز سماعة طبية مخففة بمهارة فى ذراع نظارته الطبية ، لا يتدلى منها سلك ، أبدى الداطورى اهتماماً ، وجه عدة أسئلة ، استفسر عن إمكانية التركيز على صوت معين من بين عدة أصوات ، قال الحاج إن هذا لا يمكن فالسماعة تكبر له الأصوات مرة واحدة بدون تمييز هذا أو ذاك ، انتهى حلس الداطورى وهو يحمد الله على نعمتى السمع والبصر ، الآن يسمع أقوال عويس مروية بالأسنة أغراب ، بعضهم يتساءل عن شخصية عويس ، يقول آخر إنه ضائع بلا أهل ، خالفه آخر قائلاً إن الشيخ بعده منذ زمن بعيد هذه المهمة ، تساءل رجل معهم ، هل يحفظ هذا الأُمى ما يقوله الشيخ ؟ أكد شاب إن أحسن من يعنى ما يروى له هو الأُمى الحدة ذاكرته .

والدليل هؤلاء الفلاحون الذين يجرون أدق الحسابات على أصابعهم ولا يخطئون ، تفخ الداطورى دخاناً كثيفاً ، ضيق يحل به ، حارته التى عاش عمره بها ، التى ولد بها ، التى يحبها ، التى يقول عنها إن كل بلاطة وحجر فيها أخذ من جسمه قطعة ومن عمره مقدارا ، الحارة التى يشعر بالغيرة عليها بمجرد دخول ساكن مزعج ، أو مرور بائع قليل الحياء ، يشير إلى تراب الزعفرانى قائلاً إنه فيتأمين بخدي دمه ، لن يفارقها أبداً ، هل ذهبت أيام الزعفرانى الحلوة ؟ ذهب الرجال

جماعة لصلاة الفجر في الحسين ، سهراتهم الليلية ، بالحسرة ، الزعفراني مضعة في أفواه الناس ، زبائن مقهاه والمقاهي الأخرى ، ربما تخوض الصحف في الأمر ، ربما تناقل العالم ما يجري ، تنعري الزعفراني ، يضع السر ، يقول زبون إن الشيخ سوف يكشف فضائح فضيحة تمس بعض الذين تحركوا ضده ، يتساءل آخر ، هل يصله ما يجري بين الناس ؟ يضحك جندي بوليس معلنا انتظاره لتلك الفضائح ، يسكت فجأة ، من يدري ، ربما مس العطلسم من يسخرون أو يتقولون على الشيخ ، ثمة موضوع آخر لفت انتباه المقهى ، أثر بين جميع من خاضوا فيها جرى ، إنه التشبيه الغريب الذي كرره عويس سبع مرات ، وهو ضرورة التزام الزعفرانيين بالنظام الجديد الخاص بنومهم في الثامنة مساء وعدم مغادرة الحارة إلا بعد الساعة صباحا ، إن ثقلا يهبط متمهلا داخل الداطوري ، مالا يعلمه الزبائن والأغراب أن خيرة الأهالي ذهبوا إلى عويس الفران حوالي الرابعة بعد الظهر ، رجوه أن يطلب من الشيخ العدول عن هذا القرار ، ستمطل مصالحهم ، طاحون يقود قطار الصعيد الليلي منذ عشرين عاما ، يستلزم هذا مغادرة الحارة في الثامنة ونصف وعدم التزامه بالتعليمات يؤدي إلى قطع عيشه ، أما حسن أفندي فتمنى استثناء ولديه حسان وسمر لسهر كل منها حتى ساعة متأخرة وعندما يبلغ مولاها الشيخ عظمة جدتها واجتهادها سياركها ويسمح لها بالسهر ، بالنسبة له شخصيا ولامرأته فيلتزمان بتنفيذ كل حرف قاله مولاها ، وتمنى الأسطى عبده استثناء امرأته لعودها السهر ، وهو يضطر إلى التأخير بسبب عمله سائقا على التاكسي بعد انتهائه من عمله الرسمي بؤسة النقل العام ، وشرح على المكحوي حاله مشيرا إلى الزبائن الذين يطالبون باستلام ملابسهم في نفس الليلة لنذهبهم إلى أعمالهم مبكرين ، ولقلة ما يملكونه من ثياب ، قال إنه لن يستريح حقيقة إلا إذا هاجر إلى الهند لكن حتى يتم ذلك يرجوا استثناءه ، أصغى عويس متأديبا ، وعدهم بنقل ما قالوه بأمانة ، يبدو أن طاحون لم يثق تماما في قدرة عويس على نقل الكلام ، طلب منه إعادته ، هنا أكد عويس بحفاة إنه لن

يخفل كلمة واحدة ، ترددوا قليلا ثم تراجعوا عن حجرتهم ، عند الباب صادفوا رمانة السياسي ، قال الأسطى عبده ، ليتك بقيت في السجن ، رد رمانة إنه لا يصدق ما قيل ، وهذا عبث مؤكد من عارف يحاول فرض إرادته على الزعفراني بالنصب ، هنا امتدت يد حسن أنور ، غمز بعينه في اتجاه غرفة عويس ، لا داعي .. لا داعي ، بأمرى يستعيد الداطوري ما جرى ، يصفى إلى ما يقال حوله ، هل هالت الزعفراني إلى هذا الحد ؟

رأس الفجلة :

قال إنه نسي نفسه في الحزن ، طلب من عويس إبلاغ الشيخ ندمه بسبب تأخره عن الموعد المحدد لتواجد الأهالي في بيوتهم ، وعد بالتزامه منذ الغد ، سيفلق أبواب دكانه مبكرا برغم ما يسببه هذا من خسائر مادية لفقده زبائن آخر الليل ، كثير من أرباب الأسرى يمرون عليه أثناء عودتهم من أعمالهم ويشترون عشاء لأطفالهم جينا وحلاوة طحينية أو بيضا وبسطة ، من ملامح الأب يمكن له أن يعرف أحواله المادية وكم تبقى في جيبه ، تلك النظرات المرتعشة الزائفة إلى البضاعة ، أي طعام يأخذ وأي نوع يستغنى عنه ؟ الآن ترمق فريدة صينية البسومة التي يحضرها معه لأول مرة منذ وقت طويل ، تتساءل ، هل هذه بسبب تعليمات الشيخ أيضا ، قال إنه اشتراها من الخضري ، الخلواني الشهير الذي يستخدم السمن البلدي الحقيقي ، يحشو البقلاوة والكثافة بالبندي واللوز ، تحمل الصينية فوق أصابع يدها المضمومة ، تميلها شمالا ويمينا ، تستفسر عن سبب غيبته بالحزن ، يقول باختصار إنه قلب بعض الأشياء ، لم تصر على معرفة ما فعله بالحزن ، توقف بعدم جدوى الإجابة ، سألته كثيرا عن محتويات الحزن ، راوغها ، كل ما يشتريه من المزايدات يذهب به مباشرة إلى الحزن ، مرة واحدة فقط بعد ولادة ابنتها نشوى يشهور عاد متأخرا في إحدى الليالي يحمل مجموعة صور ، تذكر عينيه المتعبتين ، وضع الصورة فوق السجادة ، لاحظت غبارا كثيفا يغطيها ،

طلبت نقلها إلى الصلاة حتى لا تتسخ القروشات ، خرج تبعه فريدة ، فك حزاما حلديا يربط الصور ، لم يتناول الشاي ، لم يفصل وجهه ، تناول الاطارات واحداً ، واحداً ، بكم جلبابه يسمح الغبار العالق بالزجاج ، تذكر بعضها ، مناظر ملتقطة لبناء بحرى صغير ترسوبه مجموعة سفن طوت أشرفها ، شارع ضيق يلعب المطر فوق أرضه ، ما توقف أمامه طويلا صورة امرأة مستديرة الوجه واسعة العينين ، ابتسامة خفيفة تعلق بشفثها ، خلفها رجل كثيف الشارب ، أصابع يده محيطة بكفها الأيسر ، وجهها شبيه بوجود المثلثات اللواتي رأتهن في أفلام محمد عبد الوهاب القديمة ، أما الرجل فلم تدر ، أهو مصرى أم أجنبى ؟ ، مصمص رأس الفجلة بشفتيه ، عرض الصورة ، مر بأصابعه على توقيع سريع مطبوع أسفلها ، أبدى أسى ، سألته ، هل يعرفها ؟ قال إنه لا يدري مثلها والصورة عمرها عشرات السنين ولا بد أنها عظام نخرة الآن ، فجأة انحنى ممسكا بالصورة . قال إنها عروسان ، رأت مجموعة من ورود بيضاء تلاصق صدر المرأة ، لاحظت قفازا أبيض طويلا محزما يغطي يديها ، عند مفرق صدرها فوق الفستان بروش دقيق البصنع ، يومها تأملت رأس الفجلة ، ودت لوجرت وأحضرت دلولا ملئوا بالماء لتسكبه فوق هذه الصور ، لكن الاهتمام الشديد بما بين يديه والذي لا يقل عن اهتمامه بالنقود التي يسكبها في طشت الغسيل ثم يعاود رصها من جديد أوقفها عن العبث ، انصرفت ، قامت ، استيقظت بعد فترة لم تجده بجوارها ، الصلاة مضاعة ، رأس الفجلة يجلس في الركن القصي واضعا صورة الرجل والمرأة في مواجهته ، تابعتة دقائق ، قام ، وضع الصورة مكان جلوسه ، انتقل إلى الطرف الآخر ، لوح يدها ساكنة ، عادت إلى فراشها ، تخيله داخل المحزن يتأمل الأشياء القديمة التي يلتقطها من فوق عربة يد ، أو دكان تحف ، أو مزاد ، إن رأس الفجلة يجلس الآن ناظرا إلى الأمام ، يخشى مواجهتها بعينه ، لو آوى إلى الفراش ربما اضطرب إلى المحاولة ، يفكر في اللبالي المقبلة ، هل ستحمل فريدة الأمر ؟ خاصة أن ما يفعله الطلسم للنساء غير واضح ، صحيح أن أيا منهن

لولا امت مع أى رجل سيلحقه الطلسم عدا امرأة واحدة ، لكن هل تبقى الرغبة لدى المثلسمات ؟ ماذا يعنى قلق فريدة الليلة الماضية وتظاهرها بالنوم ؟ ربما انزلقت إلى أحضان آخر ، قد لا يقدر رجل على الاندفاع بحسبه عبر جسمها ، لكنها مستعصى ، ثمة خاطر غريب يلح عليه الآن . من الرجل الذى سيراه عارية ؟ تتمرغ فى أحضانه ، تعض صدره ، من هو ؟ أين تدب قدماه الآن ؟ ما حجم عضوه ؟ فى طقوله تسأل عن الفتاة التى سيتزوجها ؟ أين هى الآن ؟ ما اسمها ؟ ما هى ملامحها ؟ بعد اقترانه بفريدة يفكر ، أين لعبت نهار الجمعة الذى أتم فيه الثامنة عشرة ولم يكن رآها بعد ؟ أين موقع هذا اليوم بين الأيام ؟ هل هو أربعاء ، أم أحد ، أم ... يثق من تفكيرها الليلة فى أمر محدد . الشخص الذى مازال مكتمل الرجولة بالزعفرانى ؟ بعض الزبائن تحدثوا عن الموضوع ، تشاغل عنهم بأن أعطى ظهره لهم ، راح يتناول بعض المعلبات من فوق الرفوف ، تدفقه فريدة فى صدره ، مالك ؟ يبدو فى عينها أكثر ضالة من أى ليلة أخرى ، ملموم على نفسه كأنه يخشى مباغنة غامضة ، يشير إلى صينية البسومة ، تضم شفثها ، خيط رفيع من ماء مثلج يسرى فى ظهره ، يودلو يسرع الآن إلى مخزنه ، يضئ السور الداخلى ، يجلس أمام مجموعة الثياب القديمة ، أول الليل قضى وقتا أمام حلة تشريفة سوداء كاملة يتدلى منها سيف قصير ، مقبضه مزركش ، رسم فى ذهنه صورة لهذا الباشا المجهول ، تخيله يقترب من زوجته وقورا وكأنه سيلقى بيانا أمام مجلس الشيخ ، يخلع الطربوش فيبدو رأسه أصلع ، يفك ازرار البدلة ، يتجرد عاريا ، حاول تخيل نشوة الجنس على وجه الباشا الوقور صاحب هذه الحلقة ، تبدأ فريدة عبثها الذى يخشاه ، تدفع أصابعها بين ضلوعه ، عيب يافريدة .. عيب يافريدة ... تكف فجأة ، تجلس مواجهة له ، اتزان مفاجئ يكسر وجهها ، يعذبه صمتها ، تسأل عن أخبار الزعفرانى ؟ لهجته خافتة ، ترى انكساره ، قالت إن عويس زعم معلنا رفض الشيخ لما تقدم به طاحون وحسن أنور والأسطى عبده ، قال إن للزعفرانى قانونا خاصا وناموسا غير كل النواميس ، يبدى رأس

الفجلة اهتماما ، يطالبها بتذكر الأقوال جيدا ، تقول إنها لم تنس حرفا لأنه كرر ثلاث مرات ، الحارة كلها أطلت ، رجاها ، حررها ، أطفأها ، لم يسمع صراخ ابن يومين فيها عدا عويس ، ذكر اسم التكرلى مغلنا نية الشيخ فى كشف سيرته خلال يومين ، أم سهر قالت إن لعنة الشيخ ستلحق التكرلى وامراته بسبب ما جرى ، إذ سرت اشاعات عند الظاهر تقول بقدم التكرلى من ناحية ميدان الحسين بصحبة أحد مهندسى مصلحة التنظيم وبعض العمال ، يتصدون البيت رقم ١١ ، بالزعفرانى للكشف عليه ، حيث بلغهم إنه آيل للسقوط وبالتالي لابد من إخلائه ونقل سكانه إلى إحدى المناطق الجديدة كالمطرية أو مدينة نصر .

يقول رأس الفجلة مقاطعا ، إن بركة الشيخ تمنع البيت من الانهيار ، لفظ هذا بصوت عال آملا وصوله بطريقة ما إلى الشيخ ، فى الوقت نفسه يدق قلبه ، تلطف على سماع الأخبار من فريدة متمنيا فى سره نجاح التكرلى .. ، تقول فريدة إن ثلاثة رجال ليسوا من الزعفرانى ظهوروا أمام مقهى الداطورى ، قالوا للمهندس والعمال إن أى رجل سيطأ الحارة ستفارقة ذكوره ، لم يبد المهندس اهتماما لمعرفته بحيل أصحاب البيوت ، تلك أحدث حيلة ، أحد الواقفين قال إن أصحاب البيت يقيمون فى مكان بعيد ولا يهمهم البيت فى شيء لأن دخله جنبه واحد ، إيجار غرفة زنوبة المطلقة ، أما حجرة الشيخ فلا يدفع عنها مليا ، برغم هذا أصر المهندس على المضي متشجعا بما يقوله التكرلى عن نصب أصحاب البيوت ، أبدى العمال خوفا ، ذكره أحدهم بما جرى لزميلهم عند الشروع فى هدم مقام سيدى الخلوحي أثناء توسيع ميدان الحسين ، بمجرد رفع يده بالمفول جددت ، شلت ، حدث هذا أمام مقام ولى مات منذ زمن ، فن يدرى ماذا سيحدث وهذا الشيخ حى يرزق ؟ أثناء هذا تجمع عدد كبير من المارة ، لا يدرى أحد من أين وصلتهم التفاصيل الدقيقة بما جرى ، ارتبك المهندس ، نظره إلى خاتم الخطبة فى أصبع يده اليمنى ، قال للتكرلى إنه لابد من إخطار الرئاسة

العلينا للمصلحة ، ثار التكرلى ، كيف يصدق مهندس تلقى تعليمه فى أوروبا مثل هذه الخرافات ؟ ، قال إن العمال يرفضون ، أخرج التكرلى جنبها لوح به أمامهم لكنهم أشاحوا بوجوههم . صاح أحد المارة فى وجه التكرلى إنه من الحرام دفع هؤلاء الأبرياء ليفقدوا رجولتهم فى الزعفرانى ، سمع صوت عال يقول ، لابد أن الأفندى ليس رجلا ، زعم التكرلى للمهندس مهديا بنقل ما جرى للمدير شخصيا ، لكن المهندس مط شفته ، قال إنه سيطلب إرسال شخص آخر ، ثم إن التقارير السابقة لا تذكر أى خلل بالبيت ، وأنه تحرك بناء على تعليمات شخصية من أحد المديرين وهذا يثير الشك ، فى لحظات وجد التكرلى نفسه وحيدا ، حتى المارة ابتعدوا وكأن رؤية زعفرانى واحد كفيلة بإفقادهم رجولتهم ، أما الأغراب الثلاثة الذين ظهوروا فى البداية فلم يقف لهم أحد على أثر ، أكد على الكوحي أنهم هنود ، أعلنت أم سهر وضوح كرامة الشيخ ، هز رأس الفجلة دماغه موافقا ويضمر أسفا لفشل التكرلى ، يسأل عن أخبار الحارة الأخرى ؟ تقول فريدة إن بثينة تشاجرت مع الست زنوبة المطلقة لكنها خناقة قصيرة اكتفت خلالها بثينة بوصف زنوبة بالفائعة ، بكت زنوبة بحرقه مما أثار شفقة الناس عليها ، ولم تعرف أسباب الخلاف بعد ، بائع فجعل دخل الحارة وعندما قالوا له عن اطلسم خرج يجرى ، حوالى الثالثة ظهر ثلاث نساء يرتدين السواد ، سألن عن شخص اسمه فرج ، لم يدرن أحد ، ساعى البوستة لم يدخل الزعفرانى ، أدى هذا إلى حيرة البنان وامراته ، تساندا ودارا على البيوت ، يسألان ، ألم ير أحد ساعى البريد ؟ قالوا لفريدة إنه يهمل أحيانا فيرمى الرسائل أمام أى بيت معتمدا على معرفة الزعفرانيين لبعضهم ، نفت فريدة استلامها أى خطابات ، نزل البنان يتأبط ذراع امرأته .

تسكت فريدة فجأة ، يود لو عادت إلى الكلام ، إلى عبثها حتى ، يحيره ملاحظتها التى صممت تماما كصور الأشخاص فى مخزنه ، لا يدرى كيف

ستصرف؟ يأمل في بركة الشيخ ، لا بد أنه سيراعى الدين أطاعوه ولم يعصوه ، سيفضلهم على غيرهم ، لا بد أن يشغل فريدة بأى شيء حتى لا يصيب الكساح نظراته عندما تلتقي بعينها ، يقوم إلى الدولاب الحديدى المحفور فى الجدار ، يعالج أقفاله ، يخرج حقيبة سوداء ، على مهل يخرج رزم الأوراق المالية ، من قبل وضع نفس المبلغ فى مطروف صغير ، بعد صدور قرار الغاء الأوراق فئة المائة جنيه انتابه غم شديد ، كلفه هذا شراء حقيبة الجلد لتسع لنفس المبلغ الذى حواه المطروف ، الغريب أنه احتفظ بورقة واحدة فئة المائة جنيه مع وعيه التام بعدم قيمتها ، لديه مجموعات من النقود المستخدمة فى القرن الماضى ، يفك الآن الرزم متمهلاً ، يبلل طرف أصبعه ، يبدأ العد . يعدل وضع ورقة مقلوبة ، يلحظ فريدة بطرف عينيه ، لا تقوم كماداتها ، لم تخطف ورقة مالية ، تخبئها فى صدرها ، يجاهد حتى ينتزعها منها ، لو خطفت منه الآن عشر ورقات فلن يحاول استردادها يخطر له أن يعطيها عشر بن جنياً . يفضل الانتظار حتى تطلب ، يفتح الباب ، تدخل نشوى ابنته ، يفلق الحقيبة بسرعة ، إنه لا يتبادل العبارات الرقيقة مع ابنتيه ، يوقن أنها لا تحترمانه ، تقترب نشوى ، أن الكثيرين يتنبأون بصعوبة الامتحان وهى ضعيفة فى اللغة الإنجليزية ، لهذا ترجو من أمها إعطائها نقوداً لأن الأستاذ عاكف مدرس اللغة الإنجليزية قرر تشكيل مجموعة يدرس لها فى وقت إضافى بعد انتهاء الدروس ، ويمكن أن تأتى أمها بنفسها لتتأكد من مواعيد الدروس ، بالطبع المقصود بهذا رأس الفجلة ، لكن البنين اعتادوا ألا توجهان إليه الحديث ، كل احتياجاتها يطلبانها من أمها فى حضوره ، بسبب هذا ضيقاً له ، أبدى لفريدة لوماً لأنها أوقعت الجفوة بينه وبين البنات ، تحببه عابثة ، تقفز فوق كتفيه ، تداعب رأسه ، إنه ينظر الآن إلى فريدة ، يسألها عما تحتاج إليه هذه الدروس ؟ تقول نشوى مخاطبة أمها ، المجموعة تحتاج خمسة جنيهات شهرياً ، يسحب ورقة مالية من الحقيبة ، يمدها إلى فريدة قائلاً ، هذه عشرة جنيهات لدفع نقود المجموعة ولشراء فساتين بالتبقي ، بأية تناول فريدة النقود ، تمطيها لنشوى

التي تقوم ، ربنا يخليكى ياماما ، تقول فريدة إنها ستذهب بنفسها إلى المدرسة لتدفع النقود ، جرت العادة أن تذهب إلى المدرسة لتنتهى كافة ما يتعلق بالبنين ، منذ سنوات عادت نشوى باكية ، قالت إن رأس الفجلة ذهب إلى الناظر وتشاجر بسبب ربع جنيه قيمة طوابع تمفة حصلتها المدرسة وطالب باسترداده ، سخر منها المدرسون أما زميلاتها فعايرنها برأس أبيها ولعابه السائل ، طلبت ألا يحضر مرة أخرى وإلا فلن تذهب ، استجاب إلى فريدة منذ هذا اليوم ، إنه يحتضن حقيبتها ، يقول إنه تقدم إلى مصلحة التليفونات لتركيب تليفون ، تبدى فريدة لا مبالاة مع إنها لم تتعود المفاجآت منه ، ومن قبل الحت عليه عندما أدخل حزن أفندى تليفوناً لكنه لم يستجب ، تستمر صامتة ، تبقى صينية البسبوسة فوق المنضدة لم تمس ...

عويس :

تشك الست بثينة أن عويس القران هو المستثنى من الطلسمه ، جمعت القرأتين ومنها قربه من الشيخ ، وفحولته الواضحة ، قررت محاولة الاتصال به خفية ، إذا فشلت فلن تعبأ لو ذهبت فى عين النهار ، إنتابها ندم لأنها لم تقم معه صلة متينة أثناء تروده على بيتها ليشيل العجين ، تذكر مسرورة إعطائه رغيفاً وقرشاً . لم تكرمه امرأة مثلاً ، خديجة الصعيدية تحصي الأرغفة مرات ، أم يوسف كثيراً ما تصيح أن العدد ناقص ، هى لم تضايقه أبداً ، يجب ألا تضيع وقتها قبل أن تسبقها أخرى ، أى منهن لا تجيد ما تتقنه هى ، أذابت عدداً من الرجال بين أحضانها ، ربما يثير زواجها للأسطى عبده تساؤلاً ، كيف يشبعها قصير القامة الذى يمشى مسرعاً وكأنه على وشك تلقى صفة مفاجئة ، لكنهم لا يدرون سره وقد رتبته على الثبات لمدة ساعتين بين أحضانها ، لم يقصر فى واجبه لكن الطلسم أحاله إلى وسادة لا فائدة منها ، يجب ألا يقلت عويس .. نفس الفكرة ظافت

بأم يوسف ، حاولت اليوم لفت نظره ، مهدت من قبل عندما اتهمته بقصر النظر
لاحتضانه كرمه وتسببها في طرده من القرن ، لم يأت ، لكنها لن تعمد وسيلة ، في
الليل ترى صدر عويس العريض من خلال الجلباب البledy ، نفور عضلاته
عندما يرفع طاولات المعجن ، يسرى حذر في أوصافه ، عويس كما هو ، لم
تنخفض رقبته بين كسفيه كزوجها ، بالعكس تنفر حنجرته قوية إذ ينادى
الزعفراني .

الحقيقة أن عويس لم يتبه إليها ، أو إلى غيرها ، إنه يأوى إلى غرفته ،
يبقى مفتوح المعجن ناظراً إلى السقف المائل الذي يستخدم كسلم البيت ،
يفاجئه رعب ، يذكركم صوت الشيخ من كل موضع ، يصدر من أعلى ، من
اسفل ، من السقف ، من البلاط ، يجد نفسه في موقف جديد عليه تماماً ، تعود
أن يرجعوا الآخر بين ، ألا يطلبوا منه ، نفس الشعور الذي راوده عندما خلا إلى
الأفنديه المحترمين ، يضاجعهم ويعاملهم باحترام شديد وعندما طلب أحدهم منه
أن يضربه ، أن يشتمه ، فعل هذا وهو ينفذ أمراً ، الزعفرانيون يظنونه مهتجاً بما
أسند إليه لكنه يخاف ارتباطه به ، لو أخطأ بدون قصد ، أي عقاب سيحل به ؟
في صباه سمع عن شيخ أوتي قدرة على تحويل الإنسان إلى حجر ، أو صورة
حيوان ، اعتاد البعض ألا يتعرضوا للقطط والكلاب السوداء ، ربما تحوى أرواحا
أدمية مسخ أصحابها إلى الحيوانات ، يخشى الوقوع في الخطأ برغم عدم إدراكه
نوعية الخطأ الذي قد يقع فيه ، يشعر دائماً بأنه مراقب ، حتى أحلامه لا تغيب عن
الشيخ ، بالأمس رأى في نومه أنه يتقدم ، يتزع الستارة ، يميل على عنق الشيخ
المضغوط بين كسفيه غير أن الوجه قريب الملامح حيث الطفولة والشيخوخة في
نفس الوقت يرنوان إليه بثبات ساخر ، قام مفزوعاً ، خيل له وجود شخص آخر
في الحجرة ، سمع أنفاساً ، رأى ظلاً ، كيف يواجه الشيخ بعد الحلم ؟ أيضاً لم
يعتد البقاء في مكان واحد ضيق ، في البلدة ينتقل بين الحقول ، ينام على

ضفاف الشريعة ، يخوض في حقول الدرة ، يرحل إلى الأسواق ، إلى الكفور ،
يلتقط رزقه من هنا أو هناك ، الآن تبدو قرينته بعيدة . طفولته نائية ، تنقله فوق
أسطح البيوت المكسمة بالقش والخطب ، صوامع القمح والدوم ، هكذا ينتقل
نساء القرية حتى لا يظهرن أمام الغرباء في الطرقات ، جلوسه فوق عجلة
الساقية يرقب تدفق المياه من القواديس ورائحة الفول الأخضر تملأ أنفه ، في
طفولته رأى بئر الساقية عميقة جداً ، عندما كبر جلس فوق العجلة ذاتها ، رأى
البئر صغيرة جداً ، نفس ما أحسه عندما زار بيت خاله في الطليحات بعد غيبة
سنوات ، رأى فضاءه ضيقاً ، جدرانته منخفضة ، كل شيء كان يبدو كبيراً ،
لأنها لم تكن في صباه صغيراً ، تضائل ، تحسر على طفولته حيث الجواز منفية ،
دخول أي بيت مباح ، الخطأ لا يلقي حساباً ، أيام بعيدة ضاعت كأغاني الجمالة
الذين انتظرهم كثيراً فوق الجسر ، يتشدون بأسي ، « يا جاي من المزاة ، قل لي
الطريق متين ، أنا بدى أروح مزاته ، وقرشيني قليلين .. وقرشيني قليلين .. »
يبدأ غناؤهم فجأة ، ينهى فجأة ، لا يقدر على متابعتهم جرياً ، حتى مفهى المعلم
ابن الغيط لا يستطيع الذهاب إليه ، طلب منه الشيخ ألا يغادر الحارة أبداً ، مدة
أسبوعين ذهب إليه ، رآه شاحباً ، لم يجده ، أخبره أحد القادمين أن بيت جدته
نجمته تهدم واشتره أحد البناة انقاصاً ، بكى المعلم دماً ، قال إن صباه موزع على
طوب البيت ، أصلى فيه إلى حكايات الجن والعفاريت . قطعة من عمره
تهدمت ، ابتعد عويس ، لا يعجب من أحوال المعلم الآن ، إنه لا يمتلك بيتاً ولا
جذع نخلة لكن حينه إلى البلدة يكويه . ما أبعدا الآن ، يخشى غضب الشيخ
أكثر من أي زعفراني ، ربما أخطأ خطأ غير مقصود ، ربما لحقه تحول غامض يسبب
ما يجري حوله ، صباح اليوم لحظ عيني أم يوسف ، لولع فيها نفس النظرات أيام
شرده عليها ليحصل المعجن نقادت فيه تاراً كاوية ، ربما يث الشيخ في طريقه
المغريبات ليمتحن صبره واختلاصه ؟ يعاوده أمله في امتلاك عربة ، ربما كافاه
الشيخ بواحدة ، يتخيل أباماً حلوة قادمة ، ينطلق عبر الحواري ، يسبح الدندرة أو

حصص الشام ، يخرج عويس من غرفته الآن ، يحاول اقضاء البلدة والعربة وأم
يوسف حتى يصفو ذهنه ليستوعب ما يقوله الشيخ ، الحارة ساكنة طبقاً للتعاليم
الجديدة ، لا يمكن لسكانها الاستيقاظ قبل الساعة صباحاً ، يخشى تأخره في
النوم ، لوقام بهذه المهمة بعد عمله في الفرن لبدا الأمر سهلاً ، لكن فترة الحمام
أبدلت نظامه ، ربما يرقبه بعض الأهالي من خلف النوافذ ، يسمع خطوات خلفه ،
إنه الوهم ، لا أحد ، باب الغرفة مفتوح ، يلقى السلام ، يعلو صوت الشيخ كأنه
يسمع من داخل أذنيه ، كأنه الهاتف الذي ينادى الإنسان ولا يراه ، يطلب منه
الانتباه فما سيقصه طويل .

« ملف ٣ »

يضم بعض المشاجرات التي وقعت
بالزعراني . وأحداثنا ، ومذكرات

المشاجرة الأولى :

حوالي الساعة العاشرة صباحاً توجه التكرلى إلى عويس . بمجرد ظهوره أطل عدد من الأهالى مما سبب له حرجاً ، ومن شرقها أعلنت أم سهر إنها لم ترتع فى أى يوم من الأيام لهذا التكرلى ، زواره أثاروا شكوكها وبما أكدها اقتصار امرأته مع أن النبى أوصى على سابع جار ، منذ سنة طلعت سهر لتقترض منها كوب زيت ، عادت قبل أن تطرق الباب ، قالت إن قلبها انقبض ، سهر بكر طاهرة أحست بالدنس ، لم تلوث يدها بمصافحة العاهرة ، قالت إن مثيلات امرأة التكرلى يبدين الحجل كأنهن لم يبلغن ، لكن يحدث ظهور حركة معينة ربما اهتزازة يد ، رجفة رمش ، عندئذ يبدو العهر كاملاً ، حدث الله لأن التكرلى لم يساعد ابن اختها عندما رجته الحاقة بأحد مراكز التدريب المهنى ، لو كلم أحد معارفه ربما أودى الولد فيها بعد ، الست بثينة تحدثت إلى أم نبيلة فى نفس الموضوع .

يتقدم التكرلى من عويس ، يلوح بأصبعه ، ما قاله اليوم سيحاسب عليه ، يمد يده ممسكاً بياقته ، يصبح بعض الأطفال « التكرلى يضرب عويس » ، بعض النساء أرسلن أولادهن لتتبع ما يجرى ، اتقنوا ما عهد إليهم ، وصلوا درجات السلم الأولى بدون أن يلحظهم التكرلى ، إن صياحهم يثر عدداً من السكان ، ينزل الصول سلام تتبعه امرأته ، يزعم « قف عندك يا أفندى أنت » ، يطل الأسطى رمانة ، يتقدم ليخلص عويس . يعلن الصول سلام أن هذا لا يجوز ، يبلغ وجه التكرلى درجة من الاحمرار يخيل معها للواقفين أنه سينفجر ، يصبح بلهجة اقرب إلى الفصحى متعجباً من دفاعهم عن هذا الضائع مما يشير إلى احتمال تأمرهم معه ، تهز قامة الصول سلام ، يطلب من التكرلى النظر إلى

الواقف أمامه جيداً ، يزعم بصوت مرتفع يتناقض تماماً مع هزاله البادى « هل تعرف إلى من تتكلم ؟ » لم يحب التكرلى ، يعلن سلام أنه جندى قديم من رجال الملك ، هل يعرف التكرلى معنى هذا ؟ يحاول الأسطى رمانة إخفاء ابتسامة بينما تهتز روحه إذ يوشك على سماع أحد ملامع الواقع القديم ، سيتطرق الصول إلى تاريخ خدمته الطويلة بالسراى ، عمله كحرس خاص لأحدى البرنسيسات فترة من الزمن ، ثم استقراره طبيباً بالفقصور الملكية ، يسافر مع الملك فى رحلاته الخارجية والداخلية ، يتذوق الطعام قبله .

بعض النساء يصلن ، تشير زنوبة المطلقة إلى عويس « إنه أشرف من هذا » تمتد أصابعها فى اتجاه التكرلى ، تقول زنوبة إنه لم يقدر على الحمار فجاء يحاسب البردعه ، تضيق امرأة الصول عينها ، لا يصح وصف الشيخ هكذا ، يقاطعها التكرلى قائلاً إنه سيعرفها حقيقة الساحر اللئيم ، لم يتم كلامه ، الصول وامرأته ، زنوبة ، الأطفال ، كلهم صاحوا فيه ، لم يدرك الأسطى رمانة مضمون احتجاجهم ، يتراجع التكرلى ، لم يواجه مثل هذا العدد من قبل ، يصبح بأنه سيخذ من الاجراءات ما يدهش الحارة ، يستفز الصول ، يزعم ، « هات ما فى وسعك » ، تتعمد زنوبة أن تسمعه رغبة الحارة فى الخلاص من الدنس ، يزعم الأطفال مشيرين إليه .

الأسطى رمانة يتحسر ، يخيل إليه أن كميناً تلقفه بعد خروجه ، الأمور العادية تبدو فى عيني العائد من فترة اعتقال غريبة ، يحتاج زمناً حتى يعود إليه التوازن مع الحياة اليومية ، ما يتخللها من معاملات ولقاءات واتصالات ، أوضاع الزعرافنى تذهله ، فى البداية لم يصدق ما سمعه أولاً مواجهته العجز مباشرة عند ذهابه إلى نيبوية التى يعرفها منذ زمن ، ربتت على كتفه بخنان له مذاق الأمومة ، قالت إنها الغيبة الطويلة ، ستجده أفضل فى المرة القادمة ، يوقن بعدم جدواه لو ذهب إليها ثانية ، لا يبدى انزعاجاً حتى الآن ، فالأمور لم تتكشف

بعد ، الآن تصل الست بثينة ، يضح الوافقون لها طريفاً ، علمت أن التكرلى متجه إلى القسم ليحضر جنديا يقتاد عويس ، لهذا فهي تقترح عليه الحضور عندها ، لن تستطيع قوة إبداءه لأنها تعرف باشجاو يش القسم ، سيقلب الدنيا على رأس التكرلى ، يبدو أن أم يوسف سمعت ما قالته الست بثينة ، صاحت من نافذتها القريبة إن عويس فى أمان ، وما من مخلوق يجرو على إيدائه ، ثم إن الشيخ يحصى الزعفرانى كلها ، تهز زنوبة رأسها مؤيدة بينا تغلى بثينة حنقا ..

« تعقيب » :

.. لم بصممت عويس بل استمرحتى العشاء ينقل ما يذيعه الشيخ من تفاصيل تتعلق بالتكرلى ، ونظراً للضجة التى أحدثتها والآثار بعيدة المدى لها ، نورد موجزاً لها :

• حتى الظهيرة علم الزعفرانيون تفاصيل عن حياة التكرلى ، إنه يبلغ تسعة وعشرين عاماً ، يتيم الأب منذ الرابعة ، رفضت أمه الزواج من أجله ، قضت زمناً تلبسه فستاناً وتسميه سميرة خوفاً من الحسد ، حتى السادسة عشرة قلل ينام بجوارها . إذا ذهب إلى دورة المياه ليلاً يوقظها لتقف مؤنسة وحدته ، يجبل إذا تحدث إلى انشى أمامها ، لا يجرو على النظر إلى امرأة فى الطريق ، برغم ذلك فهو قاس جداً ، عندما خرج مع أكرام امرأة زمن خطبتها لاحظت انتزاعه الحشائش بعنف ، دهسه للزهور ، وصفه ملائح الآخرين العابرين بالقبح ، لا يعمر قلم معه أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ، يبدأ بعضه ، يلويه ، لا يستريح إلا إذا كسره ، حياته مع امرأته هادئة بسبب حرصها على تجنب أى مشاجرة ، صوته الناعم يتبدد عند بدء ثورته ، يضرب الأواني ، يأكل الشطايا الرفيعة ، يتمدد فوق السجادة ، يعض طرفها ، يتخيل نفسه ممسكاً بسيف حديدى

يخترق به النساء المارات فى الشوارع ، لم يضاجع امرأته مرة واحدة ، يقدمها إلى رجال من كل نوع .

• فى العصر أصفى الزعفرانى إلى عويس ، خرج إلى الحارة مرات إضافية ، فى البداية قال إن ما يجرى الآن لهم نواة ما سيحدث للدنيا ، وبعد احكام الأمور ستعم الأوضاع ، وتنتشر ، ومن يجهل اليوم سيعرف غداً ، ومن تغيب عنه الحقائق والأحوال غداً سيدرى بعد غد حتى يحل يوم كل إنسان ، كل لسان يلهمج بما جرى ، يتعظ ، يستجيب ، وهكذا تبدل أحوال العالم ، صمت كثيف ساد الحارة ، تحولت الشماتة فى عيون الزعفرانيين إلى خوف وحيرة ، أم سهر فكرت بغير من سيجى عليه الدور فى المرة القادمة ؟ إن الشيخ يعلم كل شىء ، يعيش داخل كل أسرة ، يحصى الأنفاس والحركات والسكنات ، وكما يقول المثل « ما من شجرة إلا وهزتها الريح » ، حار الأهالى ، ربما استيقظ الواحد منهم ليجد أدق تفاصيل حياته منشورة على كل لسان ، ثم ماذا يعنيه الشيخ بالحديث عن العالم ، وتبديل الأحوال ، كم يلزم لهذا من شهور وسنين ؟ يعنى هذا أن الأمر سيطول .

خلال العصر تحدث عويس — نقلاً عن الشيخ — عن أكرام ، هى الأنثى الصغرى لثلاث بنات يكبرنها ، اثنتان منهن متزوجتان ، أما الثالثة فقد خطبت إلى موظف بشركة طيران ، والأنثى الأخيرة متعددة العلاقات وتمارس علاقات جنسية كاملة خاصة مع شبان العرب ، بالأمس قابلت خطيبها فى السادسة مساء ، وعندما حاول إحاطة خصرها بيده نهزته مع أنها تعرت تماماً فى الحامسة وشهقت من اللذة حتى يح صوتها بين يدي شاب بحرانى ، أكرام لم تبدل أى جهد للتعرف بأى شاب ، زاد عزلتها رسوباً ثلاث سنوات متعاقبة وعدم حصولها على الإعدادية ، قلل والدها اهتمامها بها ، لم تخرج مع شقيقتها إلا إذا

دعيت ، تأكل مولية وجهها بعيد ، لا تشعر بفرق بين مذاق طعام وآخر ، لا تختار فستاناً إنما ترتدى ما يشتر يانه لها ، لا تثير موضوعاً ، لا تدخل نقاشاً ، هذا ما جذب والده التكرلى فأقدمت على خطبتها لابنها وكما قالت ، لا يسمع لها حس أو صوت ، ورغم بقائها عذراء بعد زواجها حتى فاضها التكرلى باصبعه فلم تشك لأمرها ، تطرق أمام مداعبات شقيقاتها فيضحكن عابثات ، لم تطلب الطلاق ، عندما عرض عليها التكرلى الانفصال احتضنته باكية ، قالت إنه يرضيها أى حاجة ، يكفيها رؤيته وشم أنفاسه أثناء نومه ، لكنها لا ترغب فى العودة إلى أسرتها ، ستصبح خادمة لهم ، ستسمح البلاط ، ستشتر البصل وتنظف دورات المياه ، ولن يدعوها أحد إلى مشاهدة فيلم فى التلفزيون ، أو يسألها أحد الخروج ، معه هى فى بيتها ، بعد قليل بدأ يصحب الرجال ، أول من ضاجعها موظف كبير بمؤسسة الأمانات العامة ، دفع خمسة جنيهات وكيلو كباب وكفتة ، ثم جاء محضر يعمل بالمحاكم ودفع جنيهين ، ثم توالوا ، اختارهم التكرلى بعناية ، حرص ألا يصحب رجلاً بكركش لمقتها ذوى الكروش ، ينظر التكرلى إلى الزيون بعينها ، يتخيل ، هل سيعجبها ؟ لم تبد اعتراضاً ، عاشت تالله ، الحق أنها رقيقة النفس ، إذا رأته شحاذاً بككت ، تدمع إذا سمعت حكاية حزينة ، فى باب الخلق رأت عربية شرطية بها نساء مقيدات ، أحزنها ذلك ، بعكس ما تبدو وهى ليست متكبرة ، تود زيارة جاراتها ، لكن وضعها وقسوة زوجها يمنعانها ، فى المغرب أعلن عويس أساء بعض من ترددوا على التكرلى ، ذكر الخدمات التى قدموها مقابل استماعهم بزوجه ، وصف جسدها ، ذكر علامات ، تحدث عن هدف التكرلى ، تكوين ثروة قدرها عشرة آلاف جنيه من كد فرجها ، جمع حتى الآن ثلاثة آلاف وأربعمائة ، هناك معلومات تخص الأكرام ، تثير الرثاء ، لن ينعمها ..

المشجرة الثانية :

وقعت فى نفس اليوم ، تمام الواحدة بعد انتهاء عويس من إبلاغ الحارة الجزء الثانى من المعلومات التكرلية ، خرجت بثينة لفترة قصيرة وعادت بخطى بطيئة ، نظرت إلى نافذة أم يوسف وحق فظيع يستبد بها ، لولا تدخلها لأقع الواقفون عويس بالذهاب معها ، أم يوسف تعمل لنفس الغرض ، التهاب غيظها بضخم تصوراتها فتوقن أن أم يوسف استولت عليه فعلاً ، ذاقته واستمتعت به وشممت عرق رجولته ، قررت التحرش بها ، قطعت الحارة على مهل أثناء عودتها على أمل رؤية أم يوسف فتفتعل أى سبب للشجار ، لكن النافذتين مغفلتان عما أشمل خياها ، ماذا يجرى خلفها ؟ اتجهت إلى شقتها بالطابق الثالث حيث ينأى موقعها عن أى مياه فذرة تلقى عليها ، كما أن موقعها فى الشرفة ناظره إلى الحارة فى اتجاه واحد بعكس وقوفها بين البيوت مما يؤدى إلى تلقفها يميناً وشمالاً ، جرت وقائع المشجرة على النحو التالى ..

صاحت على أم سهر التى تسكن فى مواجهة أم يوسف ، علا صوت أم سهر باسم الله ورجاء الخير ، أعلنت بثينة أن الخير لن يأتى إلى الزعفرانى الفقر هذه طامنا جحدت القلوب وعششت بها النساء وشبهات العقارب ، أدركت أم سهر أن تمهيدا يجرى لمشجرة ، أطل عدد من النساء ، خديجة الصعيدية أسرعت إلى النافذة مرددة بفرح « خناقة .. خناقة » ، لاحظت بثينة استمرار إغلاق نافذتى أم يوسف مما جعلها تختصر مقدمتها المعتادة فى كل مشجرة تخوضها ، أعلنت أن هذه المرأة الفاجرة التى يصلح لسانها ليصبح سيرا من الجلد يس عليه موسى الخلافة ، امرأة العطشجى ، الحقيقة أن طاحون لا يعمل سائفاً كما ترغم بنت اللثيمة ، العاهرة ، التى تضطهده فتعد طعاماً لأولادها يختلف عما تقدمه لزوجها ، غضبة الشيخ لم تأت من فراغ ، الرجل صالح ، تقى ، لا يقدم على عمل

يؤدى بلا سبب ، هنا أومات أم سهر ، هزت الست أم لييلة رأسها ، صفقت زلوية المطلقة بيديها وصاحت « يا عيني .. يا عيني » ، إلى هذا الحد لم تفتح أم يوسف نافذتها ، زعقت بشينة إن بعض النساء اللواتي لم يشبعن من أزواجهن قبل طلسمت الحارة ، تطيش عقولهن الآن ، هنا مدت ذراعها فى اتجاه بيت أم يوسف ، صفقت مرودة ، امرأة العطشجى ، ، امرأة العطشجى ، يا نساء الحارة ، يا حارة النساء ، طلبت منهن أن يشهدن على امرأة العطشجى التى تعرض صدرها العارى عندما تظل ، التى لا ترتدى ملابس داخلية ، التى خاضت فى سيرتها برغم أنها أقرضتها خمسة جنيهات فى العام الماضى عندما لجأت إليها باكية ترجوها انتقاذ طاحون .. طاحون العطشجى ، طاحون العطشجى ، بسبب ضياع جزء من عهديته ومطالبته تسديد القيمة وإلا حبس ، ندمت فيها بعد لأن أولاد الحلال أخبروها أن طاحون المطحون ، الطاحنى ، الطاحينى سرق جزءا من عهديته باعه فى وكالة البلح ، ندمت لانقاذها لصا نهب مال الحكومة ، الفاجرة غمزت للأسطى عبده ولأنه زوج وفى قصص عليها ما جرى ، التمس لها عفرا ، زوجها مطلسم وهى تحاول مع هذا وذلك لعلها تعرف صاحب القدرة ، لكن ما بلغها صباح اليوم لن تسكت عليه ، حتى هذا الحد لم ترد أم يوسف ، ايقنت خديجة الصعيدية أنها لو أطلت الآن فستشتمل خناقة حامية تسلى وحدثها ، أم يوسف من لا يستهان بهن فى الرشح ، يبدو أن امرا خفيا يجعلها تؤثر وجع الدماغ ، أم سهر ايقنت وجود شيء خفى لم تقله بشينة ، إنها تمد جسمها عبر الشرفة ، تلوح بجذائنها معلنة انها ستضرب ام يوسف فوق اكثر اجزاء جسدها حساسية ..

المشاجرة الثالثة :

فى تمام الساعة الثانية والنصف من ظهر اليوم التالى ، اقترب عاطف من بيت الصول سلام ، خطاه بطيئة ، فى عينية انكسار ، ذبول يتخلل وجهه ،

بوغت بصرخة ، ارتجف ، يتوقع حدوث أمور غريبة فى الزعفرانى هذه الأيام ، أطل الصول من شرفته متلفتا حوله ، اعتلى الحاجز الحديدى ، اضطرب عاطف إلى الوقوف ، حار ، كيف يتصرف ؟ الصول لم يلح غيره ، وجه إليه حديثه ، أعلن ضيقة بامرأته لأنها بعد عمر كامل تجرأت عليه وكذبت به ، أثناء كلامه ظهرت زوجته ، راحت تجذبه ، تطالب بالتمقل ، ألم بعاطف ضيق ، تمنى لو تقدم عشر دقائق ، لو أسرع الحظى لأصبح الآن فى شقته ، يخلع ثيابه ، يغسل وجهه بالماء البارد بعيدا عن أى إزعاج ، استمر الصول يخاطبه ، خذم الملوك طوال حياته ، ملكان وثلاث ملكات تعاقبوا عليه ، لم يضع ملك لقمة فى فمه إلا إذا تأكد إن سلام أكل قبله ، دخل كافة غرف القصر التى لم يرها رؤساء وزارات وزعماء أحزاب ، حتى حجرة النياشين التى تحوى أقخم المجوهرات وأثمن قطع السلاح ، إنه يحتفظ بعدد قديم من مجلة المصور ، به صورة لجلالة الملك مرتدياً ثياب الفروسية ويستند إلى رقبة حصان عربى أصيل ، من الذى يمك مقود الحصان ؟ من ؟ « أنا .. أنا سلام » ليست وظيفته لكن الملك انتابه ضيق فاستدعاه ليأتى به ، همس إليه يكلمات ، رفض البوح بها حتى الآن ولن يذكرها إلا لربه يوم الحساب لو طلب منه ذلك ، وها هى ذى امرأته تكذبه ، صرخت زوجته عندما دفع جسده إلى الأمام « يا ناس .. الحقونى » ، هنا تقدم عاطف ، لا بد من صعوده ، يجنبه نظرات الأهالي التى تركزت عليه ، يبدو كأنه أدى عملا إيجابيا ، طلع السلم بسرعة ، رمانة السياسى يحاول فتح الباب ، قال عاطف إن امرأته تخشى لو تخلت عنه ، أن يرمى نفسه ، ابتسم رمانة ، إنه يشك ، أبدى عاطف دهشة ، الصول يعتلى حاجز الشرفة فعلا ، هز رمانة رأسه ، تراجع إلى الوراء ، اندفع مصطدماً بالباب ، تساقط تراب من الفتحة العلوية المغطاء بزجاج ، فى المرة الثالثة حدث دوى ضخم ، دخلا ، رأى الأهالي رمانة وعاطف يسكان بذراعى الصول . تركزت الأنظار على عاطف الجامعى الذى يتدخل لأول مرة فى شئون الزعفرانى ، أبدت نبيلة المدرسة إعجاباً لا يخفى على الرغم من موقع

شرفها البعيد نسبياً ، عندما نجحنا في إبعاده عن الشرفة علا تهليل الصبية ، « هيه .. هيه » ، في الصلاة وقف قرقر الموسيقى متأهباً ، استمر الصول يزقق متسائلاً ، كيف يمكنه الحياة بعد أن كذبت امرأته ؟ ربت رمانة على كتفيه ثم طلب من الزوجة الكف عن البكاء ، استفسر قرقر عن الموضوع ، قال الصول إن ما جرى فظيع ، كرر قرقر سؤاله ، قال الصول إن الحكاية بدأت منذ عشرة أيام بل بدأت الحقيقة منذ سبع سنوات ، لا ... التزاماً بالحقيقة منذ خمس سنة ، الموضوع متعلق بالصلة الوثيقة جداً بولي العهد المنفى حالياً في أوروبا ، أحبه جداً ، اصطحبه معه في جميع رحلاته عدا سفراته إلى الخارج ، ليس بسبب رفضه ولكن الصول لا يطيق الابتعاد عن بنت رسول الله الحسين ، أشار إلى الصورة المعلقة إلى الجدار المجاور للمدخل ، عجبوا أشيب اللحية ، عيناه هادئتان ، ملامح تركية يبرزها طربوش قصير ، حاول عاطف تذكر صاحب الملامح ، خيل له أن الصورة منتزعة من مجلة فاخرة الطبع ، لاحظ الاستقرار والطمأنينة في عيني صاحب الصورة ، خطرت له فكرة ، هذا الرجل لم يعرف الأرق أبداً ، أخفى رمانة ابتسامه ، لم يتعرف في الصورة إلى أي من أولياء العهد الملكي الذي عاصره وسجن فيه ، حولوا عيونهم عنها عندما رفع الصول يديه متوجهاً بالدعاء ، راجياً أن يستر ولي العهد في غربته وأن يديم عليه نعمته ويجمع شملها قريباً ، بعد دعائه بدا أكثر هدوءاً . التفت إليهم ليستأنف حديثه في نفس اللحظة التي أتم فيها عاطف حسبة بسيطة ، الصورة عمرها لا يقل عن ثلاثين عاماً . صاحب الوجه يقارب السبعين ، لو أنه يعيش لتجاوز المائة ، ود الصول لو أطلعهم على توقيع ولي العهد خلف اللوحة ، لولا غياب صانع الإطار الخشبي الذي ألصقها بالغراء فاختفى الهداء إلى الأبد ، منذ ثلاثة أيام رأى الأمير في المنام متعباً « أرهقتني القرية يا سلام » ، قال له ، « سلامتك ياسمو الأمير » ، في هذه اللحظة جاء خادم نوبى يحمل صينية فضية فوقها نظارة طبية ، سموه أحب الفضة ، لم يحمل إلا النياشين المطعمة بالفضة ، جراب سيفه من فضة نقية ، أو سمته المذهبة

حفظها في دولاب خاص ، صنعت غدارته من الفضة الهندية ، يحملها تحت جاكته بحيث يبدو مقبضها بارزاً من خلال الحافظة الجلدية لو أراح طرفها قليلاً ، في هذه اللحظة رأى عاطف بعيني عقله هذا الأمير ، يمشى عاقداً يديه خلف ظهره في بهو قصره ، يرتدى حلة التشريقة ، يساعده الوصيف على خلع ثيابه فتبدو غدارته كاملة ، منقوشة بالمقبض ، دائرة صغيرة تحمل اسم الأمير محفوراً ، قال الصول إن الخادم النوبى تناول النظارة من فوق الصينية ، قدمها إلى الأمير ، لكنه أعطاها للصول ليصح عويناتها قبل أن يرتديها ، ما معنى هذا ؟ بالأمرس طلب من عويس أن يسأل الشيخ عن مغزى الرؤية . جاءه عويس بالرد المنتظر ، إن لقاء هاماً سيشهد الصول قريباً ، لم يوضح مع من ؟ لكنه ينتظر الآن دعوة من ولي العهد ليسافر إليه ، يشير عليه في حيرته ، ليسليه في وحدته ، لكنه سيشرط العودة إلى مصر ليلقى ربه بخوار الحبيب سيد الشهداء ، تبادل الواقفون الدهشة ، توارت السخرية من عيني رمانة ، فكر قرقر الموسيقى في إمكانية رد الشيخ على من يتوجه إليه بسؤال ، عاطف مازال يستدعي الأمير المتنطق بغدارته . فجأة ، اندفع الصول إلى حجرة النوم ، عاد ممسكاً بسدس قديم ، حياته لم يعد لها قيمة بعد تكذيب امرأته ، استعاذ قرقر بالله ، خلق رمانة ، أما عاطف فتأمل الفوهة الطويلة واليد المسكة بالمقبض الخشبي بنى اللون المطعم بقطعة عاج ، رآه مصوباً ، رآه يهدد شخصاً مجهولاً ، رأى أصبعاً تلامس الزناد ، رأى أصبعاً تلامس الزناد ، رأى المسدس فوق المنضدة المحاورة لسريه ، صرخت الزوجة « البارودة .. البارودة » ، على مهل راح رمانة يقيس المسافة الفاصلة بينه وبين الصول ، سأله قرقر ، هل ترضى الموت كافراً ؟ زعقت المرأة ، « البارودة .. البارودة » هل يقبل الموت على كافر ؟ على مهل تدلت يده إلى جواره . عيناه عاطف تتابعانها ، يرى نفسه جالساً إلى رحمة . بعينها التمتيتين إلى طفولة أبدية تسأله « لماذا تحمل مسدساً ؟ » ، وافق الصول على التراجع عن فكرة الانسحار ، طلب قرقر من المرأة تقبيل رأس زوجها . قالت إنها تعزه وتقدر حرته

على أصحابه الملوك ، والأمرء ، لكنه أساء فهمها ، صاح رمانة غامراً الصول ، « شوف يا عم » يتساءل عاطف عن ثمن المسدس ، البلد الذي صنع به ، الأيدي التي تناقلته ، هل خرجت منه رصاصة قاتلة ، أى سنة ؟ أى يوم ؟ أى لحظة ؟ من صرعت ؟ أجفل عندما تحرك الصول متجهاً إليه ، أوشك المسدس على الاحتكاك به ، قال قرقرة إن الشمل سيجتمع قريباً ، نبوءة الشيخ لن تحيب أبداً ، بد لفظ الشيخ ذا رنين خاص فى هذه اللحظة ، تذكروا ما حل بهم ، لم يعد قرقرة قادراً على التباهى بقواء الجنسية برغم بلوغه الستين ، فكر بسرعة ، ضرورة توجيه الدعوة إلى عاطف الجامعى للاستماع إلى الأخانة سيطلب منه دعوة أصحابه ، يتق من قدرته على إثارة إعجابهم بواهبه التي تلقى من يتبع لها الفرصة حتى الآن ، سيكسب مستمعين على درجة عالية من الفهم ، لا مساطيل أفراح وسكاري يتشابه لديهم النغم ، لا يثيرهم طرب أو شجن ، ما يدونه زعيق كالنقيق عند ظهور ستيمة واحداً من فخذ الراقصة .

يخشى عاطف أن يوجه إلى أحدهم سؤالاً عن أحواله المطلسة ، سبيل ثيابه لو حدث ، ما يمنعهم أن كلا منهم يعانى ما يعانى الآخرون ، امرأة الصول لا تزال تبكى ، يرى الآن رحمة ، يرى يديها تديران كوب البيرة ، بعد أن تشرب تتورد وجنتاهما تشرق عيناهما كحبات سبعة تشع ضوءاً ناعماً حلواً فى العتمة . بعد فترة قصيرة يتدفق الحديث من شفتها ، يصغى إليها فرحاً بما تحكيه عن شؤونها الصغرى ، تغمز بهجة ، يسند ذقنه إلى راحتيه ويصغى ، يتهلل وجهها ، يرقب مريح عينيهما ، يتحول ماء النهر إلى شعاع ، وجذوع الشجر إلى صدى أصوات ، عندما رأى تسيل صورتها معه لأول مرة قال إنها طفلة ، قال عاطف إنها أتمت الواحدة والعشرين ، إنها أنثى تحفظ روحها ببراعة الأعوام الأولى من العمر ، أبدى نبيل دهشة ، ذلك نوع نادر من الورود .

قال قرقرة إن الأمور مرت على خير وهذه المناسبة يسره دعوة عاطف بك

لسماع موسيقاه ، وكذلك الأمطى رمانة والصول سلام ، قال رمانة إنه بحاجة فعلاً إلى سماع موسيقى ، سمع كثيراً عن عبقرية قرقرة من المعلم الداوارى ، ابتهج قرقرة ورمى عاطف بنظرة كأنه يقول ، أسمع ما يقال ؟ يقف الصول متصلياً ، يقول بلهجة بطيئة إنه يقبل بكل تقدير و يلبى الدعوة التي وجهها إليه قرقرة ، انغrust حسرة مركزة فى قلب عاطف ، نقطة من ماء الناز ثقت قلبه ، لو وجهت إليه الدعوة من ستة شهور لاصطحبها معه ، قال إنه مستعد فى أى وقت ، بدا صوته واهنا ، حاول اخفاء حزن فادح يوشك على النطق من عينيه ، لم يخف على رمانته انكسار صوته . أرجع السبب إلى الظلم ، يلحظ عاطف مسدس الصول ، استدارة قطعة الحديد النحيلة التي تحدد فراغا يستقر فيه الزناد ، سمعوا طرقة ، صاح الصول « أدخل » ، خطت الست لطيفة امرأة البنان حافية القدمين ، تخفى نصف وجهها خلف طرحة سوداء ، نظراتها جانبية كليلية ، رجهم ألا يؤاخذوها لكنها تسألهم ، ألم ير أحدهم ساعى البريد ؟ ، ألم يترك لدى أحدهم خطاباً ليوصله إليها وإلى عمهم البنان العجوز الذي لم يقدر على طلوع السلم ؟

المشاجرة الرابعة :

على غير العادة سمع حوالى الساعة مساء زعيق حسن أنور ، التقط الجيران كلمات استنجدوا منها انه يتشاجر مع سمير ابنه الأصغر ، أبدى البعض دهشة لأن صوته المرتفع لم يسمع من قبل ، لافى بيته ولا مع أحد من الزعفرانى ، واجه الزعفرانيون صعوبة فى الاصغاء لأن زعيقه مختلف عن الأنواع الأخرى الألوقة ، خيل إليهم أنه يصيح بالفصحى ، أصغى عاطف الذى قبع فوق سريره مستسلماً لنزول الليل الأسود . لا يرى شيئاً من تفاصيل الحجر ، عيناه لم تعثادا الظلام بعد ، رعشة خفيفة تؤلم قلبه ، وجود جسمه المادى غير محسوس بالنسبة له .

إنه الآن مجموعة صور بعيدة وقرينة وهمسات وروائح وألفاظ قليلة فيا مضى
وبقت في ذهني إلى الأبد. صوت حسن أنور انتزعني من حصار سيل الذكرى
الوعر الشائك، أيضاً اضطرت التكرلى إلى التوقف لحظات عن خلع ثيابه، نظر إلى
نادية، قال، حسن أفندي يضرب ابنه، قالت إن الحارة بها من، ذكرت محاولة
الصول الانتحار، لولا تدخل عاطف ورومانه، وقع الاسمان موقعا غريبا في أذني
التكرلى، خيل إليه أن امرأته تذكرها بود، قرر الاستفسار منها قبل النوم عن
سبب ذكرها هذين الاسمين بالذات، قالت إن أم صبرى شئت بالعة حين
قربش، هجمت عليها، تركت المرأة وعاء الحين وفرت مذعورة. ثم حله رأس
الفجلة إليها حتى باب الفرن، قالت إن بسبوني المهجوس المعجوز المخبر القديم
تشاجر مع ابنه «لولى» وامرأة ابنه صفية، خرج من الغرفة الوحيدة التي يعيشون
فيها كلهم، راح يخاطب النوافذ والشرفات معلنا أن امرأة ابنه تتحاييل عليه لينام
مهما، وأنها ضائعة ويمكن لأى رجل من الحارة مضاجعتها بقرش صاع، بعد عودة
لولى ابنه سكب الجاز فوق نفسه، لطيفة المعجوز وأم محمد منعتاه، مرة أخرى
أبدى التكرلى قلقا، امرأته تقص أخبار الزعفرانى بالتفاصيل، هل خرجت؟
هل التقت بأحد؟ اكتمل احمرار وجهها عندما إنها لم تغادر البيت، جلست اليوم
كله فوق الكنبه وعندما انتابها ملل انتقلت إلى الكنية المواجهة، قال التكرلى إن
أهالى الزعفرانى أشرار، عدد من كبار المسؤولين عندهم علم الآن بما يجرى.
أحدهم اقترع جدا عندما أصغى إلى ما يحدث في الحارة وقال إن هذا خطير
جدا، قال التكرلى إن الزعفرانيين جبناء، فى الوقت الذى يبدو فيه خضوعهم
للشيخ وخدامه عويس، قام بعضهم بارسال شكاوى خالية من التوقيع إلى عدة
جهات، أطلعه مسئول آخر على إحداها، قال إنه أوصى عدة سماسرة بالبحث
عن سكن...، هنا ارتفعت صرخات متقطعة لأمرأة، إنها امرأة حسن أفندي،
الطبية، العاقلة، الكاملة تحوّل بين الأب وابنه، فى هذه اللحظة أوشكت عروق
حسن أنور على الانفجار، لأول مرة يواجه معارضة تبلغ قلة الحياء. بعد مغيب

الشمس استدعى ولديه، أخبرهما بضرورة نومها فى الثامنة والاستجابة إلى
تعاليم الشيخ حتى زوال الغمة، هنا خفض صوته حتى أوشك أن يصبح همسا،
ظهر اليوم التقى برجل وربع كشف عنه الحجاب، لجأ إليه من قبل فى أزمنة
عديدة، أخبره الرجل الصالح أن فرجا قريبا سيحدث فى الحارة، سيرقع الشيخ
أثر الطلسم عن ثلاثة من أهالى الزعفرانى، طبعا سيختارهم من بين الملتزمين
بأوامره والمؤمنين به فى السر أو العلن، الشيخ يضم نوايا عظيمة متعرقها
الزعفرانى والحارات المجاورة والمدينة والبلاد والعالم كله، كل مكان يتجمع فيه
العباد، هنا يجب الإشارة إلى فرحة تحديث الرجل لدرجة نسيانه الدعاء الثابت
أثناء طوافه بضريح الحسين، أن يحميه من دخول قسم البوليس، ألا يقتضى أو
يتقضى، ودعاء آخر أضمره ضد سيد بك لأنه آذاه أذية مهولة، استدعاه إلى
مكتبه، سر كثيرا بهذه الدعوة لدرجة أنه نظر إلى ثلاثة من خريجي الجامعة
الشبان العاملين حديثا بالإدارة، ربما كلفه سيد بك بعمل ما، هذا يعطيه الحق
فى الجلوس متعبا أمام عبد العظيم أفندي ويقول إن سيد بك يؤثره بالكثير من
المهام مما يجب له إرفاقا، حدث أن قضى عليه عبد العظيم مرة واقعة هزته، تأخر
إعداد بعض المذكرات مما جعل عبد العظيم أفندي يحضر يوم الجمعة، جاء
لا يسمع فى آخر أصاهاى أو مكافأة، حوالى الظهر فوجئ، دخول سيد بك،
يشعر به لانهما كنه الشديد، لم يصدق عينيه، تطلق عبارات ترحيب مضطربة
لدرجة تحراء ودعوتيه البكنا لجلوس وهذا لا يليق، لكنه فوجئ، استدعاه سيد
عن بعض الأعمال، ثم سأله عن الأولاد، وعن صحته، فى اليوم التالى قدم
سيد بك مذكرة يطلب مكافأة عشرة جنيئات لعبد العظيم نظراً لجده والإخلاص،
حسن أفندي قضى أياما يحلم بحدوث هذا معه، سيقابل محب سيد بك بوجه
خال من الانفعالات، يسأله عن صحته، عن أحواله، يوم الجمعة التالى ذهب
إلى مكتبه، تخلف عن صلاة الجمعة لأول مرة منذ سنوات عديدة، خلع جاكته
كدليل على انهما كنه، لم يذهب إلى دورة المياه خوفا من مرور سيد بك العابر،

أغشى مرتين تعباً ، خاف حضور سيد بك في لحظة ، يغمض فيها عينيه ، يبدو مضحكا ، في اليوم التالي قصص على زملائه ، كيف أنه قضى اليوم كله في إنهاء بعض الأعمال المتأخرة ، أصغوا إليه بلا مبالاة ، أبدى أحدهم سخرية ، قال صراحة إنه يحاول تقليد عبد العظيم أفندي ، ضرب المضادة ، كذب ، كذب ، بدون تفكير مسبق أعلن أن عبد العظيم لم يأت مصادفة بل علم مسبقاً بنية سيد بك في الحضور ، كل ما تفوه به ، وصل عبد العظيم مضاعفاً ، قال إنه تأثر جداً مما سمعه لأن حسن أفندي زميل دراسته وهو غير حقود ، كيف أفترى عليه ؟ ثم أنه بهذا التصرف يقوض وحدة حملة الشهادات المتوسطة في المؤسسة ، أو شك الأمر على الوصول إلى سيد بك بعد أن رواء بعض خريجي الجامعة ، أبدى حسن أنور انزعاجاً ، لم يقصد الإساءة إلى قضية حملة الشهادات المتوسطة ، المهم أنه تردد أيام الجمع التالية لمدة أربعة أسابيع ، سيد بك لم يحضر ، استدعاه أمس ، أشار إلى ثلاث أوراق ، تسأل عن ضرورة طلبه تركيب تليفون ؟ تضاعل وجه حسن أنور ، قرأ سطرًا من المذكرة الأخيرة . . « حاجة العمل الماسة تدعو إلى تركيب جهاز للتليفون » ، أشار حسن أنور بيده مرات ، فكر في احتمال دخول أحد زملائه ورؤيته هكذا ، سيصاب بسكتة ، زعم سيد بك ، « ما حاجتك الملحة وعملك لا يستدعي الاتصال بالخارج إطلاقاً » ، قال إنه يطلب تليفوناً داخلياً للاتصال بزملائه في الأقسام الأخرى ، صاح سيد بك ، « لكنك تطلب تليفوناً بقرص » كشف عن أسنان بيضاء جداً ، قال إن هذا كسل لا يبيح بموظف قديم ، وتحاييل مرفوض ، عندما استدار حسن أنور سمع تمزيق الأوراق ، في الخارج رأى أربعة موظفين وسامياً ، كتب مذكرة يطلب نقله إلى إدارة أخرى ، قبل أن ينيها مرقعها بسرعة ، ستجر عليه التعاقب ، لولم أحد زملائه ما تضمنته سيم عليه ، يواجه بمصاعب من نوع آخر ، مر عليه بعض زملائه ، لم يتحدثوا إليه ، ألمه هذا ، قبل انصرافه صاح على رشوان الساعى أثناء تجمع الموظفين أمام البصعد ، إنه أقدم ساع بالإدارة ، يسافر كل خيس إلى طنطا ، يطلب منه بصوت

عال الدماء لولديه سمير وحسان ، سمير الذي سيصبح مهندساً بإذن الله ، وحسان الذي سيتخرج طبيباً ، ود لو سمع الجميع ما قاله ، تمنى لو أخبر سيد بك باصرار الترحوم والده على دخوله الثانوى العام تمهيداً للتحاقه بالجامعة ، لكن ظروف الأسرة لم تسمح شأن العائلات الكريمة التي جارع عليها الدهر ، اتفق والده بضرورة الالتحاق بمدرسة تجارية ثم يستكمل دراسته بعد تخرجه وتوظيفه ، لكن التآكل أدرك لولديه مع الستين ، خاصة أنه هوى القراءة ، عرف التصوف والمتصوفين ، وعندهما نشبت الحرب العالمية تابع معاركها ، اشترى الأهرام يومياً ، قصص الخيال القتال والصقها على ورق أبيض مسطر ، إنحاز منذ البداية إلى هتلر ، حصل على صورة كبيرة له ، يبدو فيها أيقاً ، يعقد يديه أمام صدره ، احتفظ بها في غرفة النوم ، يتق أنه لم يميت ، أين جثته إذن ؟ لديه يقين خفى بمجيء هتلر إلى مصر ، ربما يقيم في إحدى المحافظات ، باحد ملاجئ العجزة ، سظهر في الوقت المناسب ليفتح الخزن رقم ١٣ الذى يحوى آلات دمار مهولة ، يفهر خصومة ، بسود العالم ، ودلو يعلم سيد بك باطلاعه المستمر على الكتب العسكرية ، أصحابه يستشيرونه في أحداث الحرب ، يشهد بهذا عوض الرواح وعبد البرتقاني والخارج عبود رحمة الله طوان معارك الصحراء العربية لم يمتأله ، بسط صححت . يقول : لو تقدم روميل من هنا بدلاً من التفافه لحقق نصراً ، عندما بدأ تفهقره أكد أن هذا لا يرجع إلى عيب في عبقرية إنما يمكن السبب في نقص الإمكانيات . لو أرسلوا إليه طلباته لما هزم ، يوم شيع روميل حزين ، اعتبر نفسه مسؤولاً عن هيبته ، حالت الحواجز بينها وعندما أذيع أول بيان يوم الإثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، وسمع المذيع يقول « هاجمت إسرائيل معطاراتنا في كافة أنحاء جمهوريتنا » قال زملائه ، « حسن الحرب » ، لو يدرك سيد بك هذا استعداد هيبته ، ربما يدعو إلى مناقشته ، يضغط زرا آخر ، يحيى الساعى فيقول « قهوة حسن بك ؟ » ، لو أتم تعليمه لأصبح الآن وكيلًا لوزارة ، أو رئيساً لمجلس إدارة ، ضحى بهذا كله من أجل المعرفة ، في نفس اللحظة تذكر عدم دخوله الجامعة

لصفت العبد عن والديه، من يذكر هذا؟ كل شيء يتلاشى، مسح دمعين
بسرعة حتى لا يراه أحد الموظفين، ألم يضرب هتلر جبهة مرارا، مثل تلك
اللمحات لا يفهمها سيد أبو المعاطي، إنه حائر، منذ سنة يطالب بتركيب تليفون
في مكتبه، لماذا لم يستدعه إلا اليوم؟ هل وشى أحدهم به؟ ود لوقام وتحدث
إلى بيته. يسأل أم حسان عما طبخته، يقول إنه سيتأخر قليلا في الحسین، ليعلم
الجميع بامتلاكه تليفونا خاصا، غير أن اليوم لم ينته على خير، إذ سرى خبر
مضمونه قرار سيادته بالمرور المفاجيء خلال الدقائق المتبقية على الانصراف،
أخرجت الملفات مرة أخرى من المكاتب، أخفيت حقائب السيدات، عاد بعض
الموظفين من أمام المصعد، انتهت حالة القلق لدى الباقيين في المكاتب، وسؤال
كل منهم للآخر، «كم تبقى على الانصراف؟» حتى حسن أفندي غالب
ضيقه، أخرج مذكرة قديمة، راح يعيد صياغتها، حمد الله عدم ذهابه إلى عبد
العظيم أفندي ليشكوهه، بعد دقائق سمع صوت سيد بك، يعرف أن حدى
السكرتير يتبعه، والحسيني رئيس قسم المأموريات البعيدة، والطوائسي رئيس
العهد المستمرة، لم يصل عبد العظيم بعد إلى درجة تسمح له بمرافقة البك أثناء
مروره، لا يدرى من أين جاءه خاطر مخيف، ربما يسأله عما يجري في الزعفراني،
الحى القديم كله يعرف ما حدث، الخبر أشبه بحجر ألقى في بركة، تتسع الدوائر
حتى تمس الضفاف، لو سأله سيدوب كرهوة، غير أن سيد بك لم يدخل عنده،
جاءه الطوائسي، أخبره بقرار البك إعادة توزيع المكاتب بحيث تستوعب الثقة
أكبر عدد ممكن ضغطا لتنفقات ومراعاة لظروف اقتصاد الحرب، تقرر تخصيص
الحجرة للإنسان اللواتي تم تعيينهن أخيرا وليتعدن عن الاحتكاك بالموظفين،
طلب منه اغلاق ادراج مكتبه بعد إدخال كافة الأوراق التي يتركها فوقه لنقله
إلى الصالة، بعد هذا العمر كله يجلس ضيفا مع موظفى الآلة الكاتبة، كفاحه
من أجل وضع مكتبه في الصدارة فاشل لأن الطابونى أفندي موجود، رئيسهم
الفعلی، ماذا لو سمع ولده هذا القرار؟ سيد بك يحكم الحصار حوله، يحط من

وضعه، يريد اقصاده الميزات التي اكتسبها بعد كفاح، إن التراجع أفضل خطط
المجوم أحيانا، على مهل للم أوراقه، تأمل الحجرة التي أودعها قدرا من حياته،
قم الأشجار تبدو من النافذة الضيقة، عمارة ضخمة لم تكتمل بعد، يجب ألا
يستفز، فى مثل هذه المواقف يستدعى قراءاته، يشد قامته، يبرز صدره أثناء
مشيه، كأنه يستعرض ليلقا أصطف لثيته، خسر موقعا ممتازا، لكن ماذا
يساوى هذا لوقون بما خسره هتلر. كيف تصرف عندما جاءت الجيوش الروسية
من الشرق؟ والحلفاء من الغرب؟ ماذا فعل عندما أحكم الحصار حول برلين؟
لم يفقد الأمل. لم ينهر، لم يرفع راية الاستسلام البيضاء، حاول استدعاء جيوشه
ليفض حصار برلين، أن يدفع الغزاة إلى أقصى الشرق، ويرمى الحلفاء فى
الفضاء الإنجليزي، هكذا يجب عليه الإنسحاب مزهوا بتاريخه الطويل فى
المصلحة وسجلاته النظيفة التي لم تلوث بتقرير سيئ، إن الضربة المسددة إليه
قطيعة، تحىء فى توقيت يعانى خطرا مجهولا يهدد رجولته ويدرك ولديه، لينتقل
إلى الصالة. يصبح فى مرمى العابرين بالطرفة، بل يستعدا هو أفدح، ربما
يجىء عامل البوفيه يوما و يضع صينية المشروبات فوق مكتبه ثم يتناول أكواب
الشاي وفناجين القهوة ليوزعها على الجالسین، لن ينهر، الصبر كخيل يامتصاص
المجسمات، لو استجاب برودة فعل عصبية ربما لجأ الطرف الآخر إلى هجمة
إنتحارية، ربما أصدر سيد بك قرارا بنقله إلى أحد الفروع النائية، الشات، يوما
ستنتهى غيبة هتلر، يظهر أعوانه المختفون فى مشارق الأرض ومغاربها، يعيد
تشكيل فيالقه، يوجهها إلى الجهات الأربع الأصلية، يطوف الدنيا، سيعرف
من غدا براته اسماء الذين آمنوا بعودته، اهتموا به، أين موقع سيد بك عندئذ،
كيف يواجهه؟ سيعدمه بأشع الطرق، سيذيه حيا فى الجبر، أما الآن
فالمهادنة، حتى لا ينقل ويترك سمير وحسان بلا رعاية، أمها طيبة لا يمكنها
مراقبتها، عندئذ ينحرف.

الآن ينظر إليها ، يخبرها بما سمعه من الرجل التقى في الحين ، هذه
بشارة لا ريب فيها ، سيرفع الطلسم عن ثلاثة ، التزامها بكافة ما يطلبه الشيخ
كفيل بسرعة شفائها ، يجب أن يناما في الثامنة ... « مستحيل » ، قافا سير
بجدة أفقدت صوته الرقة ، عينا حسن أفندى تيرزان ، إن طئنا حادا بصم أذنيه ،
ابنه الأصغر الذي يضرب به المثل ، الذي يذكره قبل أخيه الأكبر ، أنجاو به
هكذا ؟ لشدة المفاجأة يتساءل بصوت خافت « ماذا تعنى يا سمير يا بني ؟ » ،
بعين فيها قحة قال إنه لن ينام الساعة الثامنة ولن يخضع غرفقات ، لن يخضع ؟
المعنى خطير ، لا يريد التزام الصراط المستقيم حتى زوال الغمة ، أشد ما يوجع ،
تمرد أقرب الناس ، أخلص المعاونين ، يصبح التزييف داخلها من الصعب
اكتشاف أسبابه ومنعه ، ابنة الخجول الذي كتب اسمه في لوحة الشرف أكثر
من مرة ما هو ذا يحبه بالالفاظ الغلاظ ، صاح « هذا أمر » ، يقوم سمير معلنا إنه
غير قادر على مواصلة الحياة في هذا الجو ، يصرخ حسن أفندى « ولد » ، تنابع
الأم موقفا لم يصادفها قط ، يشير إليها إلى أبيه قائلا بسخرية ، إنه يطلب منها
النوم في الثامنة ، ينظر إلى شقيقه ، يطالبه بالكف عن الجن ، تفور الدماء في
عروفي حسن أفندى ، لم يدر ما لفظ به ، بدور بعينه باحثا عن شيء يقصف به
هذا المتمرد ، يقطب الكراسي ، يحطم زجاج الدولاب الصغير ، تسقط أوان ،
ترزق أمراته ، « سمير لم يقصد » ، يزيد حركته ، الحقيقة أنه لا يبحث عن شيء
معين ، لكنه يخفي حبره وألمه في محاولة وهمية لتبعث عن شيء يؤذي به
الصغير ، يصبح سمير مبديا عدم اهتمامه ، هنا سمع الجيران صوت حسن أفندى
« لا أنت ابني ولا أمرك » ، في الحارة توقف الداطوري ، أصغى إلى الضجة ،
لم ينتظر حوله ، لم يرفع عينيه ، ماله رأس باتجاه الأرض ، حتى حسن أفندى
الزعفراني الأصيل ، الأمير الطيب الذي لم يسمع له حس أبدا ، ماذا جرى ؟ ماذا
يحدث للزعفراني ؟ إن دموعا صامتا تتلمس طريقها خارج عينيه في العتمة ،
« أنا بريء منك إلى يوم القيامة » ، لطمت امرأة حسن أفندى وجهها « يا

خرابي » ، جرح حسان كلوح خشب ، صور عديدة تتراحم في رأس الأب ، سيد بك
يمزق الورقات الثلاث ، عبد العظيم أفندى يتحدث في التليفون ثم يضع السماعة
مستهللا ، يتبادل ابتسامة ودية مع سيد بك ، شاب خريج الجامعة يلوح بلا
مبالاة ، عامل البوقية يستد الصينية فوق مكتبه ، أربعة لا أماكن لهم ، المال ولو
كثير ، المرأة ولوطات عشرتها ، الحاكم ولوقرب منك ، الزمن ولوصفا ، ثناء ناظر
المدرسة على سمير ، هتلر ، طائرات جورنيج تمزق ، أولياء يكون ، يرثون الماضي
الجميل الهادي الآمن الخالي من الزواجر ، قائد لا يذكر اسمه يضرب الأرض
ببيده ، فوجئ بالاختراق ، حدث الاختراق ، لو التزم سمير أدبه المعهود ، لو تقدم
منه ، ساجني يابان ، سيفقو عند ، سينسى كل أساءته ، لكن شيئا ضحيا يتحول ،
لحظة يتقرر فيها سمير بأكمله ، سلوكه المفاجيء أذهل أمه ، دفعت باتجاه الجدار
لاظهار غضبها وتبعده عن أبيه ، أفلت منها متجها إلى الباب ، فوق السلم أعلن
سمير أنه لن يبقى دقيقة واحدة في الزعفراني كلها ، ردد الداطوري في وقفته
« الأبناء يتحدثون الآباء ، عيني يا زعفراني » ، تقول أم سهر لزوجها « سمير
طفش » يسأل « سمير من ؟ » ، « سمير ابن حسن أفندى » .

المشاجرة الخاصة :

حدث في عصر اليوم التالي أن تطور الحديث بين روض ابنة أم صبري
وشقيقتهما الكبرى حتى وصل إلى حد الزعيق الذي أثار قصود النساء في
الزعفراني ، خرجن إلى الشرفات يحاولن متابعة ما يجري على الرضم من أشغال
معظمهن في مناقشة ما جاء بتعاليم الشيخ التي تليت صباح اليوم ، طلب من
الزعفرانيين استبدال كلمتي صباح الخير ومساء الخير ، وجميع عبارات التحية
بجملة واحدة ، ومن خالف متحل به مصائب ، قيل إن الشيخ سيصبح من مخالفه
حجرا ، وأنه سينسب الاثداء في صدور الرجال ، حاول رفالة السياسي

استكشاف المعالي الخبيثة وراء التحية الجديدة . رددتها أم سهر كثيرا حتى حفظتها وطلبت خديجة الصعيدية من زوجها اعادةها ما يقرب من مائة مرة حتى اطمانت ، فريدة امرأة زلي الفجيلة تمتت لو أخطأ زوجها حتى ترى ما سلفه ، أم يوسف رأت أن ذهباها إلى عويس له ما يبروره الآن ، متسأله عن حفيضة المعنى ، في حجرته يملكها الاختلاء به ، تدس وجهها في شعر صدره ، تشم عرق بوجنته ، بيوت الحارة كلها ترد العبارة ، حسن أفندي تأمل حروفها ، أصغى إلى امرأته أثناء الفترات الثقيلة التي عاد فيها إلى شقته والتي تطلت يومه ثم عودته للبحث عن سهر ، جلس الداطوري أمام مقهاه ، لا يلفظها إنما يتأمل منعناها ، « هذا زمن القرار » ، اقترح البنان على لطيفة امرأته أن يكتب إلى ابنتها ليلفظ هذه العبارة ، روت حزينة ، « وهل نعرف عنوانه ؟ » ، تأملات عاطف نجاوزت الجملة إلى ما يشبه التفسير الذي أذاعه عويس ، زمن القرار من عصر إلى عصر ، من حال إلى حال ، لن تمضي المصائر وفقا للأمنيات والرغبات العاجزة والجهود الضائعة التي تستغرق أعمارا وتهلك أجيالا ، بسرعة القرار ستتحقق الأمنيات وتجسد الأحلام ، انقضت عصور ركود الإنسان ، بدأ عصر الحركة ، التغيير ، الفرار من المستحيل إلى الممكن ، إلى ما يتحقق فعلا ، لا الممكن وغير الممكن .

هذه المعاني شغلت الزعفراني خاصة عندما ردها عويس عصر اليوم ، من هنا بدأ نشوب مشاجرة أمرا غريبا ، لأول مرة يعلو صوت الأخوين ، اعتادت الحارة الفرجة على عائلة أم صبرى أثناء شجارها مع عائلة أخرى ، لم يسمع أحد شجارا دبا بين أفراد الأسرة ، مشاجرة كهذه لا يمكن تجاهلها حتى لو نشب في وقت يقام فيه مأتم ، والحقيقة أن جذور هذه المشاجرة ترجع إلى الأيام الأخيرة التي شهدت وفاة ابن سكينه الأبنه الكبرى وزوجها كمالك القادوسى ، حدث الوفاق قبل إعلان الشيخ بأيام وبعد جهود أولاد الحلال وسمى دعوى من أم

صبرى ، طيلة الشهرين الماضيين ضاقت بجمه ابنتها في وقت واحد ، كل منها تعاني فراغا ، تحاول شغل نفسها بتنظيف البيت ، تلميع الزجاج ، مساعدة خديجة الصعيدية ، استدعت سكينه لتذبح ذباجة هزيلة أوشكت على المرض لأنها تخاف رؤية الدم ، ساعدت أم سهر في المعجن ، إنها قوية ، عزيزة الصدر ، مثقفة الفخزين ، لا تهدأ ، روض صامته ، تفكر دائما ، أم صبرى مشغولة باستمرار ، تمضي إلى غراء أسر تعرفها أو لا تعرفها ، يتردد صوتها من خلال مكبرات الصوت ، تذهب في الصباح إلى بعض المأتم ، تخطب في النساء ، تذكر حكايات دينية ومواعظ وحكا تسهم في التحضير للأفراح ، تجهيز العروس من نشف شعر وتزين وإسداء نصائح ، لكن مهيا تحاول شغل نفسها غنى لحظة معينة ، تنظر إلى روض أو سكينه ، روض بالذات منظرها يضيئها ، لا تطيقه ، تعرف ما تعنيه لحظة الليل أثناء ابتعاد المرأة عن أليقها ، إنها معجبة بجمال ابنتها ، كثيرا ما طلبت النظر إلى عينيها الواسعتين ، تحجل روض ، أم صبرى عميقة الخبرة بشؤون النساء ، تعجب بقوام روض ، خصرها ، صدرها النافر المتناسك ، بطنها المستوي الذي لم تفسده إلا مرة حل واحدة ، مرة أضرت على رؤية جسم ابنتها ، روض لا تلح ثيابها أمام أى مخلوق ، عندما دخلت دورة المياه لتستحم ، غمزت أمها بعينها إلى سكينه ، طرقت الباب بشدة ، صاحت أنها إذا لم تبول قورا فسوف تنفجر ، روض تعرف مرض أمها بالكلية فتحت الباب ، استدارت تواجه الجدار منحنية ، تحفى صدرها ومقدمة جسدها بذراعها ، دستها بين وركيها ، بدأت أمها تنظر إليها متمهلة ، فهمت روض ، طلبت الإسراع بالخروج لأن البرد يوشك أن يصيبها ، بدت أمها قرحة ، تمتت بجيء ابن الحلال الذى يستحق جسدها ، أم صبرى حزينة لمرور الأيام على ابنتها المطلقة ، روض قاست طويلا ، لم تصيق أبدا بفقر زوجها خاصة بعد تحرك محمد كجنين في أحشائها ، في بداية زواجها عانت رطوبة الحجرة ونشع الماء في الشتاء ، عندما تخرج إلى مدخل البيت ترقب الرائع والغادى ، تقول لنفسها إن الأمور ستتحسن

عندما تبلغ الخامسة والعشرين ، لكم بدت المساحة الزمنية وقتئذ عريضة بين عاميها الثامن عشر والخامسة والعشرين ، كل ما تمتته أن يقر الله عملاً لزوجها بأحد المصانع الأفريقية ، عندئذ يمكنها شراء النحاس ، ودولاب صغير قديم من الخاج فؤاد البوبيلياتي ، وتجهز لحافاً غطاءً سائناً وردى ، يستقران في حجرة يدورة مياه مستقلة فوق سطح ، أى سطح بحيث تجلس دائماً في الضوء ، لشد ما جاءت إلى الضوء ، إلى الشمس ، في سنة زواجها الأولى بدت أحلامها سهلة ، وشبكة الوقوع ، لكن مرور الزمن ، وفترات البطالة التي مرت بزواجها جعلت اللعاب في فمها مراً ، عندما التحق ببعض المصانع القريبة تضاعل أجره ، قال صراحة إنه لا يستطيع إطعامها ، كثيراً ما ذهبت إلى أمها تقيم وليدها ، تسألها عن أحوالها فتحمده الله وتشكر فضله ، لا تريد الزواج أمها ، تنتظر ميعاد الغذاء حتى تشبع جوعها الذي استمر أحياناً يومين ، في الأيام السوداء عرفت القفاكهى وطالب الأثرى ، تذكر تلفتها المستمر وراءها أثناء ذهابها إلى أحدهم ، في الزعفرانى رأت دخول عاطف الجامعى لحظة ظهيرة ، نزلت مرتجفة الساقين في صباح باكراً جداً ، أنطأت خطواتها عند عودتها حتى رآته ، عيناه غائرتان ، بعد مروره فجهم الصباح ، لا تدري ما الذى هاجمها ، تذكر مثاه أن حزناً لم تعهده ، لم تعرفه حتى في لحظات الجوع ، حزناً ترفق بها وقسا عليها ، لا تدري سبباً ، ربما هدوء وجهه أو الأملى الغامض فى ملامحه ، ربما تعمدتها المشى البطيء وهز ردفها ، لماذا سيحدث هذا ؟ مجرد التفكير فيه محال ، لم تدرك كيف تقرب منه ؟ لو رصدوا تفكيرها ستمتزع القضية بالسخرية ، ألم تحترق عاطف الجامعى ؟ فشلت نبيلة المدرسة في جذب انتباهه ، لكن لم تمض إلا خمسة أيام حتى جاءت لحظة تجاوزت خجنتها كله ، قالت فيها « صباح الخير ياسى عاطف » ، أجبها ، لمحت أسى لا تلاحظه إلا هى ، امتلأت بهجة وضوء أشد سطوعاً مما حلمت به والاستحمام فيه فوق سطح بيت ، إنها لا تخشى منه ، ترى انكساره ، فى انعكاسه كشمسه ، فى تذكرها له عندما تخلو بنفسها ، فى قبورها أمسك كشمسها ، لم تطالبه

بالكف ، لم تبد حتى اعتراضاً مفتعلاً ، بدا لها أنه من الطبيعى أن يفكر فى جسدها منذ اللحظة الأولى ، لتبدأ علاقتها بين ذراعيه ، فى لحظة معينة يحس فى أذنيها ، تصفى إلى تسارع أنفاسه ، ستمر يدها على ظهره ، ستحتوى عاطف الجامعى حلم نساء الحارة . تسأله لماذا يبدو مهموماً ؟ ستحاول فهم ما سيقوله ، فى القبولات « أنا تحت أمرك فى السر » ، فى القبول وضعت يدها على ما ظنته وهما فى البداية ، أيقنت انكسار الأندى ، ربما لمصيبة حلت به . لضيقه من أمر ما . عندما احتضنها فى القبول كانه يلوذ بها من أمر غامض ، لم يهاجمها كما الفاكهى ، بدا طفلاً يتلمس الأمان حتى قالت بلا وعى « يا حبيبى » ، كأنها تنافى ابتها ، تمتت الأفراد به بسرعة ، لن تلف ، لن تدور ، لن تتباطأ عليه فى تقديم كل ما لديها ، وعندما تصل النشوة إلى ذروتها ويحل الهمود ، تتطلع إلى عينيه ، تحكى له أيامها ، ليألى انتظارها لعبده زوجها وعودته بالأرغفة والطعمية ، تفوح منه رائحة الأحماض والنيلة وعفن الأصباغ ، حتى ما جرى لها مع الفاكهى ، لكن لو أنها امرأة أخرى هل سيرحب بها عاطف ؟ إذا ذهبت إليه أم يوسف فهل يصدها ؟ أليس شاباً يحتاج إلى امرأة ، لكن ما يهدها أن ما أدركته لن تعرفه امرأة أخرى ، قنوات خفية اتصلت بينها ، دمها من دمه ، راودتها أمنيات حبية ، أن تجلس معه يوماً فى الشمس فوق حشائش خضراء ، حديقة نائية حيث لا يعرفها أحد ، يتحدثان ، يصمتان أحياناً ، حسرة توجعها ، لن يحدث هذا ، لو طلب مقابلتها فلن تجد لديها جليلاً ترتديه تحت ملاعقها السوداء المبرقة ، لن تقلب منه شيئاً ، ستقدم إليه ما يمكنها ، ستغسل ثيابه ، تنظف بيته ، ستجعله يشم رائحة الطعام البتلى عند رجوعه فى الظهر ، ستريل الغبار من فوق ألواح الزجاج ، تصف الاكواب والاطباق فى المطبخ ، تعرف موقعها منه ولن تتجاوزوه ، عندما مضت إليه التزمت الخدر خوفاً من اللسان الزعفرانى الحادة ، تجنبت أم محمد التي تجلس دائماً أمام البيت ، عندما دخلت شقته بدت لها سطوحاً خلاً من الشمس ، البلاط عار ، لونه رمادى يتخلله مربع ملون كبير من بلاط

أخبر ، بدأ عمود البيت وحزبه جزءاً من الأسى الذي أدركته في عيش غاطف ،
عندما تجرد من ثيابه بسطت جسدها ملاقاة ، غمرها حنان ، عندما ابتل جسده
بالعرق وتأنى لم تضيق ، القريب أنها لم تتور بالمرغم من مضي شهرين على آخر
مرة نامت فيها مع بائع الفاكهة ، مدت يدها لكنه أبعد ، خيل لها أنها أدركت
حقيقة انكساره ، تذكرت قولاً تردده دائماً ، الدنيا لا تعطى من جميع النواحي ، إذا
أعطت من ناحية أخذت من ناحية أخرى . لم تضيق ، عندما بدأت ارتداء ثيابها
أبرزت نديها ، تحسست ردفها ، ربما أثارت على البعد ، لكنه دفن وجهه في
البوسادة . ودت لو ضمت رأسه على صدرها ، ناغته ، هدهدته ، خافت رد
الفعل ، في الأيام التالية اختل ميعاد خروجه المسائي ، سمعت أم سهر تقول إن
الإنسان يمكنه ضبط ساعته على ميعاد خروجه اليومي ، ماذا يظن بها ؟ هل يقطع
كل شيء ؟ ، لأول مرة تسعى إلى رجل مدفوعة بخفقات قلبها ، بالقلق
المصاحب لابتعادها عنه ، بالاستيقاظ كل صباح على حلم عذب ، الجلوس إليه
في حديقة تغمرها الشمس ، إن ضيقاً يأكلها ، هل انتهى ما ظنته بدأ ؟ الأنبا
أدركت ضيقه وانكساره . بعد إعلان الزعفراني تذكرت همه المتوق « لم يحدث
لـي هذا من قبل » ، نبض الأمل داخلها كحركات الجنين الأولى ، رأت في
الطمس سبباً قوياً لاستمرارها بدأ ، لم تحركها نحوه مجرد رغبتها فيه ، بساقلته ،
حديثه اليها بديل المحطات النشوة ، انتظرت يوم الجمعة أمام الحارة ، قررت أن
تمشي وراءه والحديث إليه عند ميدان الحسين ، لن تعبا بالنساء والرجال ، لكنه
لم يخرج ، اعتصم بمنزله ، إن ضنى شديداً يعذبها ، لم يبد اهتماماً بها ، ربما يجد
البحر من وجهة نظره بعد الطمس ، تضيق بالبيت خلال الأيام الأخيرة ، تجلس
في ركن بالصالة حيث تنام مع طفلها الصغير وأمها . تنوء نظراتها فيما يحيطها ،
وحدث أن دخلت الحجرة الوحيدة التي تنام فيها سكينه وزوجها ، لاحظت
سكينه هذا ، نظرت إلى ابنها بقسوة ، لم تلحظها روض ، بدت وكأنها تبحث
عن شيء ، خيل لسكينه أنها أرادت الحديث إلى القادوسى زوجها وعندما رأتها

تراجعت ، منذ عودة المياه إلى مجاريها بينها وزوجها تعرض تماماً ألا تفقده ، ما
جرى في الزعفراني أخيراً جعل مرقدها شوكاً وحصى ، إنها لم تتجاوز الثلاثين
بعد وتزوجت ثلاث مرات ، تم زواجها الأول وعمرها خمسة عشر عاماً من لطف
النصائح ، أحبها وأحبته ، أثت لها حجرتين بالمعطوف الجوانية ، بها الماء والنور ،
اشترى لها راديو كهرباء ، لكن أمه سمعت بينها حتى دب الخراب ، بعد عام
واحد من الزواج وهي في السادسة عشرة ، من الحلم بابتن الحلال ، بعد عام
جاءها صبرى شقيقها الذي يعمل بالإسكندرية وقال إن عريساً ليبياً يبحث عن
زوجة ، حدثه عن شقيقته فأبدى استعداد ، فرحت أم صبرى ، انتشر الخبر ، قيل
إن العريس ثرى جداً ، سيرسل إلى أم صبرى راديو وتليفزيون وفستان حرير
طبيعى ، تم الأمر كله في ثلاثة أيام ، لم يأت العريس إلى الزعفراني ، أقام في
لوكاندة البرلمان بالعبه ، قامت أم صبرى بتزوين ابنتها ، رافقتها أم سهر وبثينة
وأم نسييلة إلى اللوكاندة ، في الفجر ركبت السيارة مع زوجها إلى ليبيا ، بعد
عودة النساء إلى الزعفراني أبدين سخرية من العريس . قالت أم سهر إنهم لو
وزنوه ذهباً فلن تزوجه سهر ، وقالت بثينة إنه يقف على قدمين أحدهما في الدنيا
والأخرى في الآخرة ، مضى الأيام ولم تصل أم صبرى أى هدايا ، في شهر رمضان
تناقلت الزعفراني خبراً يقول إن سكينه أرسلت لفة قرد الدين وكيلو تقاج
أمر يكاني ، أطمأنت الست بثينة مع مرور الوقت وخشيت في البداية أن ترسل
سكينه بعض الأجهزة الحديثة التي ترفع قدر أم صبرى فجأة ، الحقيقة أن الأم
نفسها أدركتها خيبة أمل ، لكن خوفاً من شماتة النساء وسخر يهن تعمدت أن
تحدث عن العز الذي تعيش فيه سكينه ، قالت إن ابنتها تقطر غسل النحل
والجن الأبيض وتأكل اللحم يومياً ، نساء الزعفراني أبدين شكاً ، لوحص ما
تقوله لظهور أثر ما عليها ، لكن جلبابها الأسود لم يتغير ، لازمت أم صبرى وجيمة
لا تقطع خطابات سكينه ، وبعد عامين من سفرها جاءت الحاجة فوفية صديقة
أم صبرى الحميمة ، بعد دخولها زاعقة باسم الله وبعض الأدعية ، قالت إن رسولا

جاء من ليبيا وأخبرها بأحوال ابنتها حسنة ، وقال أخيراً عن مكينة تفلأ عن
حسنة المقيمة في نفس البلدة ، مكينة غير سعيدة ، ألا يكفي أن زوجها طاعن
في السن ، لا نفع منه ، إنما تعرض لأضطهاد أبنائه الشبان والشابات ، يعتبرونها
خادمة ، يحصون عليها أرغفة الخبز ، السكر والشاي ، الزعجبت أم صبرى
أسرعت وقتها إلى الشيخ عطية في الفترة السابقة على احتجابه ، جاءت إجابته
موكدة لما نقلته الست فوفية ، قال إنها تعاني كريباً ، في اليوم نفسه تزلت إلى
زوج الست خديجة طلبت منه كتابة خطاب إلى ابنتها لحضورها فوراً نظراً لمرض
والدتها ، لم تبال بارتفاع مكينة ، لكنها خافت ألا يسمحوا لها بالسفر إذا وجدوا
الخطاب عادياً ، شاع مضمون الرسالة في الزعفراني ، هزت النساء رؤوسهن
وتغامزن ، ما تنيأن به حقيقي ، أكدت بثينة أنها تعرف سيدة من الطبقة الراقية
تقيم في قصر حوله حديقة بالعباسية ، ابنتها متعلمة تعليماً أجنبياً ، لا تنطق بكلمتين
بالعربية ، تتحدث عدة لغات ، باهرة الجمال ، خطها أحد أمراء الدول
الزنجية ، دفع مهرأ ، انقطعت أخبارها بعد سفرها معه ، وتزايد القلق بأمها حتى
اضطرت إلى استئجار طائرة خاصة لتري ما حدث لابنتها ، وعادت مفعوجة ،
أعجب الرجل بامرأته الخلوة ، البيضاء ، وفي إحدى الليالي تزايد إعجابه بها
فأكلها ، قالت أم مهر هذا جزء الأمهات اللواتي يبعن بناتهن ، مهر كن تغادر
مصر ، وعندما تزوج مسكن بالقرب منها ، بل سترها إحدى حجلات الشقة
المقيمة بها ، أكدت أم نبيلة أن ما جرى هذه العروس الثرية أمر مقدر ، سمعت
كثيراً عمن يأكلون البشر لأن ابنتها نبيلة المتحقة الآن في كلية الآداب قسم
الانجليزية أخبرتها عن نيام نيام أكلة بني آدم ، المهم أن الست أم صبرى لم تلق
رداً خلال شهر ، أرسلت خطاباً ثانياً ، ثم ثالثاً ، ورابعاً ، وبعد خمسة شهور رأت
أم صبرى رجلاً غريباً يدخل الزعفراني وقرأ عناوين البيوت ، صاحت عليه
من النافذة تسأله عن مقصده ، قال إنه يبحث عن أم صبرى ، زعجت « أنا
خدامتك أم صبرى » ، أطلقت النساء ولأن الست بثينة تسكن نهاية الحارة ، فقد

سألت أم نبيلة عما جرى فقالت إن رجلاً جاء إلى أم صبرى وأخبرها بوصول
ابنتها فجر اليوم ، لم ير أحد مكينة بعد عودتها ، لم تطل من نافذة ، وعندما توجهت
الحارات لتبحثها جلسن في الصالة ولم يدخلن الحجرة لمرضها ، والحقيقة أن
مكينة قاست أعواماً خشة ، رافقتها ذكريات بشعة بعد عودتها ، لفترة طويلة
بدت غير راغبة في الاختلاط بالحرم ، أو الخروج ، وعندما جاء كمال القادوسي
بعد عام من رجوعها وطلب الزواج أبدت خوفاً ، لكن أمها طمأنها وقالت إن
العريس مضمون ، أجرت حوله التحريات اللازمة ، ثبت حسن أخلاقه ،
وانشأؤه إلى وظيفة يتقاضى منها حوالي سبعة جنيهات شهرياً ، إلى جانب عمله
بعد الظهور في دكان ورق قديم ، بدت مكينة حريصة جداً على زواجها
الجديد ، تعرف أي حيرة ، أي ضياع وتلف يلحقها بعد انتهاء علاقتها برجل ،
واجهت الخوف من المجهول عندما عاشت في بلد بعيد كأنه يتصل إلى كون
آخر ، أثناء سفرها راحت تفكر ، من سيرضى بها بعد أن أصبحت كالبضاعة
الشالفة ؟ تود الآن الاستمتاع بهدوء وراحة بين أحضان رجل حقيقي ، من أجل
خلوة ليلية في صندوق حجرتها المغلق تحتل أي مضايقات من زوجها ، خلوة
تحكي له فيها عما رآته عندما ذهبت تشتري حاجاتها ، تؤمد ذراعه ، تمرر أناملها
على كتفيه وصدره العاري ، في الأيام الأولى لزواجها ظنت أنها مدركة راحة
البال ، لولا أن القادوسي كشف عن أمر أخفاه ، ظننا مدخرة بعض المال بعد
إقامتها في ليبيا ، سألها كثيراً ، ضايقها ، فتش بعض المواضع في البيت بحثاً عن
كيس يخوي جنينات أو دفتر توفير ، مع كل استفسار منه تضيق لكنها لا تغضب ،
توشك على الاختناق لكن صوته لا يعلو ، ما يوجعها رؤية نفسها هدفاً للطمع
باستمرار ، في ليبيا طمع الشيخ وأولاده ، هنا يطمع زوجها في ثروة وهمية لم
تحصل عليها ، لا تملكها ، احتملت كثيراً ، حتى أيقنت أنه لم يقبل على طلب
يدها إلا مع ثقته بوجود ثروة لديها ، أشد لحظات ضيقها عندما تفاجأ بهمس في
الفرش ، أين المال ، كم ؟ لجأ إلى كافة المحاولات ، ذهب إلى الشيخ عطية

ليشته بكان التروة ، لخصر في نفسه ما يقول للشيخ عن حبيب اهتمامه ، إذ أنه ينوى افتتاح دكان لبيع أوراق الصحف القديمة ، سيديره لحساب امرأته ولن يأكلها في طيب ، لكنه لم يستطع مقابلة الشيخ ، ذهب إليه بعد بدء احتجابه ، برغم صبر سكينه حدثت مشاجرات عديدة ، اختلفا حول أسباب نددو لبعض تأفقه ، تجاوزها بصروف البيت عرش أو قرنين ، تركها موقد الغاز مشتعل بدور أن تضع فوقه « منبطاً » أو ماء ، يتصاعد صوته ، يحمر وجهه ، أحياناً يمزق ثيابه فتسلطم خديها لأنه لا يتك قصباً آخر أو جلباباً ثانياً ، يضرب صدره بقبضته ، يقوم إلى الصلاة ، يصدم كل ما يقابله ، يستدير فجأة متتاولاً حذاءه ، يدفع سكينته وأمرها ثم يمضي طافشاً ، في المرة الأولى انزعجت بكت ميل حفظها وتعاستها لينة يأكملها ، فشلت محاولات أمها لتهديتها ، أكدت عودته بأسرع مما تتصور ، فعلاً عاد في اليوم التالي ، جاء وبه اغياء ، عندما آوت إلى ذراعيه يبكي ، طلب منها أن تسامحه ، اجرم في حفظها ، هي لا تدري ما يلاقيه من مذلة في العمل وضيق ومس حاله ، وقلة ما بيده ، احتضنها ، أوشك أن يقبل يدها ، دمعت ، اهتز جسدها بالانفعال ، ارتفعت كصرخ حمام ، فجأة سمعته يهيس ، لو تخبره بما أدخرته لها كل شيء ، تريد ارتخافها ، سحت عيناها دموعاً غزيراً ، لم تسمع أسابيع إلا تشاجروا مرة ثانية ، في هذه المرة غاب ثلاثة أيام كاملة ، خرجت تبحث عنه في المقاهي المهيطة بالخيرين ، تمنى اللقاء به صدفة ، عندئذ تحس عليه ، تعتذر إليه برغم قبوله عليها ، نصحه إلى البيت ، لكن في مثل هذه الظروف لا يستقي الإنسان صدقة من يبحث عنه ، مضت إلى الشيخ عطية ، وجدت سابه مغلقاً ، في نهاية اليوم عاد القادوسي متجهها ، لم يبد ندماً ، اضطرت إلى مداعبته ، غسلت قدميه في الماء والملح الدافئ ، فلما بعد تعودت منه تقلب أسنانه وخروجيه ، بعد عودته تعلن أنها غطلة ، وتجاوز أم صبرى إلى القادوسي بيتاً تعجز لايتها سراً ، تؤكد سكينه استمداها لأنى عقاب يلحقه بها ، لا تريد لحياتها القشل خاصة أنها أم لطفلين الآن ، وتقدم في السن ، إذا طلفت للمرة

الثانية من يرضى بها زوجة ؟ يبدو أن القادوسي أدرك هذا ، إنه بغضب لا تله الأعتاب ، يسارع بهجر المنزل عقب أول بادرة خلاف ، تمر مشاجرة قضى بعدها أطول فترة خارج البيت ، استغرقت مساعى أم صبرى شهراً كاملاً ، ذهبت إليه في عسلة ، رحت زملاده ، وخطأت إلى بعض بلدياته ، عاد معها ليجد أن عدد المقيمين في الشقة ازداد بحضور روضي أنها بعد طلاقها من زوجها عبدة عامل المصبغة ، لم تفض أيام وطلمست الزعفراني ، كالأعادة ألقى المسؤولية عليها ، لم قبلت الانتقال معه منذ سبع سنوات إلى الغرفة التي عثر عليها بجارة الخوانية لأنقذ بها حل به ، لكنها رقت وقتئذ ، لماذا ؟ لكي تبقى بجانب أمها ، تساءل ساخطاً عما حسنته من البقاء إلى جوار أمها إلا التحص ؟ هنا قالت أم صبرى بهدوء ، لو تذكر جيداً لما قال ما قاله ، عندما عثر على الغرفة لم يمتلك وقتئذ مبلغ الخلو ، بدأ صوتها بخشخشة عندما قالت أنها أرهقت نفسها من أجلها ، تركت لها السرير وتنامت فوق بلاط الصلاة ليتنعم بعضها ، الأكلة الجيدة تحرمها على نفسها وتوفرها لها ، هل نسي القادوسي هذا ؟ بدأت في الكآبة ، ارتبك القادوسي لكنه أراد أن يبدو غير عابى ، هذه الدموع ، لأول مرة تبكي ، أمر غير عادي أن تبكي ، المرأة الشهمة الأشد بأساً من الرجال ، التي لا تدع مناسبة إلا حضرتها ، استمر في الزحف قليلاً ، اندفع ناحية الباب ، بهجره خروجه كلفت أم صبرى ، قالت جادة إنه في أزمة وعليها احتمال ، تستمى لدى الفران ، خادم الشيخ ، سمعت اشاعات حول رفع الطلمس عن ثلاثة ذكور زعفرانيين ، سبذل جهدها كله ، ستجند اتصالاتها القديمة بالمشايخ والسيدات الفاضلات المريدات الصالحات ليتوسطن لدى الشيخ فيرفع الطلمس عن القادوسي ، هي هذه الليلة عاد مسكراً ، الحقيقة أنه انتم هذه العادة منذ طلسمه الزعفراني ، لكن ثمة هنا أخفيف إلى هوم سكينه ، لاحظت نظراته تجاه روض ، لمحة في الحديث إليها جذبت اهتمامها ، ان روض تبدو ساهرة ، تظل كثيراً من النافذة ، لا تعود من الخارج إلا وتكتشف أنها تسبت شراء شيء ، تخرج من حديد ، تنقني نظراتها

عرضاً بالقادوسى ، من يدري ، ربما يفكر فى تجربة نفسه معها ، تبدو له حلوة ، متسامكة ، ربما منحته ، ربما بددت أثر الطلسم ، ولأن البيت ضيق ويمكن رؤية ما يجرى فيه من أى موضع ، دأبت سكينه على رصدها ، اليوم لحظة خروجها من دورة المياه لحث روض تدخل الغرفة ، هل بلغ الأمر هذا ؟ بدت روض مفاجأة بوقوف القادوسى فى ملابس الداخلية ، ارتبككت ، لم تتكلم سكينه ، أضمرت غيظاً ، بعد خروج زوجها تساءلت عما تريد روض من القادوسى ؟ هل تأمل فيه خيراً ؟ من أين يحيى الحذر والحارة كلها مطلسمه ؟ بوغت روض ، سمع صوتها بعد قليل ، تعلن رأيا فى القادوسى ، لو عرضوه عليها بعد انتهاء الرجال من العالم لما قبلته ، لوحت سكينه يذكرى عبده الصباغ الذى يسد الأنوف بنبثاة رائحته ، تفيض روض بما قالت سكينه ، لا بد من اسكانها ، ماذا يقول عاطف عند ما يسمع الزعيق ؟ سيقول إنها ليست فقيرة وجاهلة إنما عجوزية أيضاً ، تبدو سكينه شرسة ، منفوشة الشعر ، تلوح إلى كميات الأكل التى تلتهما روض فى الوجبة الواحدة ، إلى الأصوات التى يحدثها أبنا فى الليل والتى تمنع زوجها من النوم ولا تمكنه من الذهاب إلى عمله صحيحاً معافى كل صباح ، تحدثت عن إرهاقها المستمر وتظيفها البيت ، وإعداد الطعام ، وذهابها إلى الجمعية وصراعها التستمت لمدة أربع ساعات فى الزحام حتى تمكنت من شراء كيلوسيك بسنة عشر قرشاً طفحت منه روض التى لا هم لها إلا فرد شعرها والخروج ، ثباً الزعفرانيون بتطور الشجار إلى تبادل اللكحات ، تابعت الست بثينة باهتمام . نظراً لبعدها النسبي اضطرت للاستفسار عدة مرات من أم نبيلة ، عندما أدركت أن السبب غيرة سكينه على زوجها ، طاف بعقلها خاطر غريب ، هل تغار سكينه على زوج عاجز ؟ ربما بقيت لديه القدرة ، هل ستعثر على الرجل الوحيد فى الزعفرانى أخيراً ؟ هل ستداوى أرقها وضيق أنفاسها الليلي وتقبلها ، ستولى اهتمامها بالقادوسى منذ الآن ، خرجت نبيلة المدرسة ، زعقت بعبارات شبه أفصحى ، متسائلة عما يجرى ، المفروض أن يبدأ الأهالى خلال النهار ، إذ لا لمحة

للوقت بالليل حيث يدام الجميع اختياراً من الثامنة ، فى ظل هذه المشاجرات لا تستطيع متابعة محاضراتها الجامعية ، وقيل دخولها الشقة ومقت شرفة عاطف ، نظرت أم سبور إلى فريدة وهى عينها مخزية ، تلمح خفية إلى كلام الأستاذة نبيلة وإشاراتها المستمرة إلى انتسابها الجامعى ، صمت الشجار فجأة ، قيل إن امرأة على المكياج التى تسكن فى مواجهة أم صبرى لحث روض تسقط باكية . بدت سكينه متسرعة لحظات ، تقدمت من شقيقتها ، احتضنها ، سمع صوت بكائها واضحاً ، علفت امرأة الفصول على ما جرى بأن الزعفرانى بها من الجن .

المشاجرة السادسة (لم تتم) :

حدثت نفس النبيلة أن أصدر الشيخ تعليمات جديدة ، انصرفت مطالبته يمكن اعتبارها أوامر . كل ما ينسب إليه يعتبر شديد الخطورة بالنسبة للزعفرانيين ، تبدو بعض التعاليم شاذة ، غريبة ، لكن لا يسمع احتجاج ، أو تعجب ، لا يجهر أحد بمعارضته ، اغترفت ثور فى الأذهان ، لكنها لا تعلن ، بل تجرب محاولات من مشيرها لاقصائها عن تفكيرهم . من يدري ، ربما أدرك الشيخ ما يخفى ولا ينفو ، تفشيت تعاليم النبيلة لقاملاً هامة للخصم فيها يلي :

« منع جميع المشاجرات ، بحيث يسود الزعفرانى الهدوء سواء فى البقعة أو النوم .

« ضرورة بدء الإفطار فى لحظة واحدة ، وتوحيد النوبة ، يقتصر على القول والحليب .

« حذر الشيخ بعض الذين يتودون حملات فاشلة ضده ، وذكر للبررة

الأولى إن القواد الشكراني حام حول البيت الذي فيه الشيخ ، وقال إنه لم يتقدم ناحية المأوى خطوة واحدة ، وقال إن من يقل نفسه قادرا على وقف ما يجري في الزعفراني - وهذا مستحيل - هل يستطيع إيقاف ما يجري في العالم ، هل لا يوقف زهر الفرار ؟

قيل إن الشيخ سيلحق أضرارا لا تخطر ببال مخالفه . إلى جانب إقائهم ناقصى الرجولة . ربما سخطهم . وهذا في مقدوره ، منذ سنوات تحدث الزعفراني عن حجرين غريبين أمام القرن ، كل منهما في حجم لوح الثلج ، قة كل منهما أقل حجبا مما يوحي أن لها شكلا آدميا ، يستجيب زبائن القرن الاحتكاك بها ، أو الجلوس فوقها أثناء فترات الترحام الشديد على القرن قبل عيد الفطر والتي يتخللها انتظار طويل للحصول على صاجات الكعك الفارغة . تقول الحكايات إن كل حجر منها أصله آدمي ، غضب عليه الشيخ بسب غامض فسخها . أحدهما امرأة والآخر رجل . لומר أحد بالقرب منها ساعة الفجر سبسم نسيجا وبكاء صادرا من الحجر القائم إلى اليسار ، إن رأس الفجلة يقع الآن تحت وطأة أفكار متزعزعة وخواطر تهزئاته ، لأول مرة بتأثر عالمه الداخلي بأسباب جديدة عليه ، لم يهز إلا خسارة المال ، أو ضياع فرصة أو شك خلاها على اقتناء شيء ثمين يضيفه إلى مخزنه ، عبث فريضة الصياني لم يزعجه ، بل أرضاه أحيانا ، طوال زواجهما قام بواجبه ، أشبع فيها وفرجها ، حتى جاء الطلسم فأبدل وحول ، فريضة وابسته مازالتا بالخارج ، مبهاد النوم يقترب ، كيف يتصرف ؟ هل ينتظرهما ويكر تعاليم الشيخ ؟ أم بناء ثم لا يدري في أي ساعة عادت ؟ مررني تغيير نظام حياته وسبب هذا حساساته . دائما يغلق دكانه في فترة الصباح ينأى يذهب إلى صالات المزايدات ، تجار الروبانيكيا ودكاكين التحف القديمة ، يعرف الداعة الحائكون ، يقبل البحث والتفتيش في الأشياء العتيقة . يسعد جدا إذ يجد مجموعة من رجالات فارغة أو آلة كاتبة قديمة ، أو لفظة مجلدات

فشرعت ، أو مخابرة نحاسية ، أو تماثيل مثبتة إلى قواعد من خشب ، أو دقات حسابات قديمة مثقلة بالأرقام ، ينتهي من جولته في الواحدة ظهرا ، يدخل المحل ما اشتراه ، يخرج إلى بيته ، يتناول غداه . إنه يعتمد على زبون آخر الليل بالنسبة للدكان ، منذ سنوات طويلة لاحظ أن دكاكين البقالة في الحي تغلق أبوابها بعد الحادية عشرة ، كثيرون يبحثون عن أطعمة خفيفة أو عشاء لأولادهم بعد هذه الساعة ، حتى الثانية صباحا لا يجدون إلا دكان رأس الفجلة ، ربما أدى سهره إلى سهولة عمله كمسحراتي ، لا يدري كيف ستصبح الصورة عندما يأتي شهر رمضان ؟ هل يسمع الشيخ بالسهر ؟ إلى جانب هذا هو البقال الوحيد الذي يبيع البيرة ، إن زبائن البيرة معروفون ، معظمهم بشرها بعد عودته من عمله التسلسي . من آخر المأوفة رؤية دكان رأس الفجلة مضاء وسط الشارع المظلم الضيق ، ودكة خشبية يجلس فوقها رجلان أو ثلاثة يتحدثون إلى رأس الفجلة الذي لا يفتح فيه إلا نادرا . بعضهم يشرب زجاجة كاملة ، آخرون يحسون كوما . كوما ، إنه يفضل هؤلاء لأن بيع الزجاجة بحزاة برشعة ثلاثة قروش زيادة في الزجاجة الواحدة . بعض شاربى البيرة يتحدثون إليه طوال جلوسهم ، يتكلمون على مهل مطلقين فترات شراهم برشع ما يلاقونه من صمت ، راحة تغمرهم لوجود إنسان يسمع . إن رأس الفجلة يهز تأثرا لبعض ما يصفى إليه ، لكن اتفعلاته لا تهم عليها حركة أو اختلاجة ، اضطر إلى العودة مبكرا الليلة وإغلاق الدكان ، خسر زبائنه الليليين ، لاحظ منذ إشاعة ما حدث قلة تردد الرجال عليه ، سمع الحاج السني يانع الخبز المجاور له يقول إن الرجل الزعفراني لو لم يسيأ ثم انتقل إلى آخر سيلحقه الطلسم ، أدت هذه المخاوف والأقاويل إلى تناقص الزبائن ، ما يغطيه أيضا عدم قدرته على توفير الوقت اللازم لمروره على تجار التحف ، كل لحظة تمر بدون بحث تعني أن شيئا ثميناً نادرا انقضى آخر ، ما يعقربه أنه أحسن حالا من غيره ، طامحون أفقدوا اضطر إلى الرقاد في البيت وطلب أجازة مرضية ، عجزت جهوده عن تغيير مواعيد عمله ، لم يستجب

له أحد، لم تنلعه حفة حركته، والمعلومات الدقيقة التي يعلمها عن الوزراء والمحافظين و رؤساء مجالس الإدارات وكبار الموظفين وضباط الجيش عبر السنوات العديدة المتعاقبة، لا يذكر اسم مسئول كبير أمامه إلا ويذكر فوراً مؤهلاته وعائلته وأسرة أمراته، أصدقاءه والمراكز التي يحتلها أقاربه، إنه ملازم الآن لبيته، يتحدث بصوت عالٍ من النافذة عن مشروع يجب البدء فيه، يعلن عن نواياه في نقل تفاصيله إلى الشيخ ليشرح عليه، منذ يومين أثناء نزول رأس الفجلة فتح طاحون باب شفته، بدأ يتحدث عن السرايا التي سيغضى به إلى جاره الغالي، تحدث عن اتفاق يمكن حفرها، تهدف إلى المساواة التامة بين الفقراء والأغنياء، أوصى إليه جامد الوجه، عندما أتم طاحون حديثه أكمل نزوله كأنه لم يسمع حرفاً، إن طاحون بطل من النافذة دافئاً، يتحدث إلى النساء جاراته، أم يوسف لم تعد ترى مطلة إلا قليلاً، الأسطى عبده لم يعد قادراً على مقاومة اضطهاد الست، شينة التي أصبحت تستفز جداً من يقائه عاجزاً كأي خرقة أو قطعة أثاث قديم، حاولت معه، استخدمت أساليب عديدة، لجأت إلى مشايخ كتبوا أحجية وتعاو، لم ينفع شيء، سرى نبالاً في الزعفراني بهروب عبده السابق، كثيرون حاولوا التنبؤ بما سيجري له، هل سيرفع الظلم عنه بعد هجره الحارة؟ رد البعض مذكريين بما قاله الشيخ لحظة شروق الشمس، إن أثر الظلم لاحق بالإنسان، أبدي آخرون أسفهم، قالوا إنه سيفضي عمره مظلماً، بعد زوال الظلم لن يتسامح الشيخ مع الذين تركوا الزعفراني، أوتمردوا عليه أمثال التكرلي الذي يجهز له في سبيل إتمام عمل بخلفه الجميع، الأسطى عبده أضع على نفسه فرحة شفافته بين الثلاثة الذين تؤكد الهمسات عودتهم إلى أحوالهم الطبيعية خلال أيام، إن خواطر سوداء تهاجم رأس الفجلة الآن، شعور يغوى لديه بإمكانية حدوث أشياء لم يتوقعها، عندما يقضى إلى تجار التحف، عندما يبحث في الأكوام المهمة، في نفايا الزمن، لا يقارقه يقين بمشوره على شيء مثير، غامض لا يدري ما هو، لكنه لا يدرجداً، شين للغاية، متى يعثر

عليه؟ لا يدري، ما يتوقعه الآن تغير هائل في حياته، أفكار معينة تدركه، يراوغها، يتأمل بعض المتاعب الطارئة عليه بسبب الأوضاع الجديدة، منذ الغد سيحمل طبقاً يتجه إلى أم سهر ليحصل على إفطار العائلة، سيدفع إلى عويس ثلاثة أمثال ما سيدفعه البنان، أورتوبة، المطلقة، أو أحمد التجار زوج خديجة الصعبي، نصت تعاليم الشيخ على أن يدفع كل زعفراني مبلغاً يوازي تكاليف إفطاره اليومي، استثنى رأس الفجلة وعاطف الجامعي، ونبيلة المدرسة والداطوري، كل منهم سيدفع خمسة عشر قرشاً، لا يذكر رأس الفجلة إنه تناول إفطاره في البيت، يحف لعابه في الصباح، عند العاشرة يتناول كوباً من الشاي في أي مقهى يلقاه، منذ الغد مضطر إلى تناول إفطاره في تمام الثامنة والربع مع الحارة كلها، من خلال الأيام الماضية أدرك إمكانية التعود على كل شيء، أصعب الأمور لا تبدو ممتعة إلا في البداية، الآن ترون الساعة القديمة رنة واحدة باهتة الملامح، رنة تحرك راتحة معينة، ربما راتحة أركان الصلاة التي لا يدركها ضوء الشمس، أو راتحة خشب المقاعد القديم، تذكره بزمان قديم، يدق قلبه، لم يسبق إلا عشر دقائق وعين نوم الزعفراني، ليخلق النوافذ، ليظفي أنوار الحجرين، لا يندفع، لا يتناور أوامر الشيخ، لكن الخوف مما قد يحدث يرهقه، أثناء جذبه مضراعى النافذة أطل لأول مرة في حياته يراقب عودة قريته، الزعفراني هاندة، البيوت مسها شيء ما، رفع رأسه، لمح لجزء من الثانية حسن أنور يقف في الشرفة، مشدود القوام، يرتدى الحلة العسكرية التي اشتراها منه، أمس جاءه، بلهجة رسمية بدأ حديثه، طلب حلة عسكرية مهيبة، إلتاب رأس الفجلة حماساً، ذهب إلى المخزن، عاد حاملاً زياً عسكرياً كاملاً، حلة يميل لونها إلى الأصفر المشوب بخضرة، على جانبي الكتفين زمانين من خيوط برنقالية لم يضع زهاء ألوانها، الصدر مثقل بمجموعة نياشين بريقة، وصلبان زرقاء، يتسع البنطلون حول الفخذين ثم يضيق عند الساقين، القبعة لا تساعد على تحديد جنسية الذي ارتداها في الزمن القديم، يتوسط مقدمتها تسريح

جنداحاه ميسوطان ، أبدى حسن أنور بهجة صادقة ، إزداد سرورا عندما قدم إليه رأس الفجلة عصا خشبية رأسها مغطى بعمد أصفر كالذهب ، طلب رأس الفجلة خمسة عشرة جنيتها ، قطب حسن أنور حاجبيه ، قال إنه سيتفقه الآن عشرة جنيتها ، سيدفع المبلغ الباقي أول الشهر ، وافق على توقيع إيصال بالخمسة جنيتها ، أدى تحية عسكرية ، لم يهتم رأس الفجلة ، كل ما يراه هذه الأيام عجيباً ، الغرب ما جرى له عجزه وبقاؤه في البيت ، الخلل أدركه هيكله العظمى ذاته ، يدل موضع الفقرات ، خواطر صغيرة كومضت مصباح كهر باني متقطع ، يرمى فريدة في بيت غريب عارية ، يرى وجهها ، يلحظ ما تحدثه النشوة في ملامحها ، تستدير في غرفة ما ، أين موقعها ، ما عنوان البيت ، من رآها أثناء دخولها ؟ تنزل قدمها ، تتحسس موضع الشب ، تعقد شعرها فوق رأسها ، تطلب من رجل إدارة رأسه حتى تكمل ارتداء ثيابها ، تمشط شعرها ، يقوم ، يشده ملتصق فيفسها الداخلي ، كأنه لم يضاجعها طوال الليل ، لم يتحسس جسدها كله ، تبدى مقاومة وأهنة ، تتسرب إليه الحرارة ، تهس بخذر ، «أنا تأخرت » ، رأس الفجلة عاجز عن معرفة مكانها ، يذكر أقوال الشيخ ، ما يسرى على الرجال يشعل النساء عدا واحدة ، ربما نجت فريدة من الطلسم ، وإذا لم تنج فهل متزوج بما جرى لها ؟ سواء وفق الغريب أو فشل ، هل يمنع الطلسم حيث لا بدى ، وتحسس الصدر ، والأرداف ، إنه يروح ويبحث ، يفكر في الصعود إلى أمه فوق السطح ، في فتح الشرفة وتأمل حسن أنور ، هل ينهى وقته الغريبة عند الثامنة ، أم يكسر النظام ؟ فكر في ضرب الجدار بقبضته ، في الصراخ ، أن ينزل المغزل ، هل يمكن اتفاق امرأته وأنت ؟ يفترقان في مكان معين ، تنقص كل منهما لفضاء مأربها ، يلتقيان في المكان ذاته يعودان معا ، يجلس متصليا على مقعد مجاور لباب الشقة ، ترمى الساعة ثمانى دقائق كالقذيفة ، جرى ما جرى ، غدا سيهرع إلى عوييس ، يعطى دمه وأمنه ، قبل أن تدق الساعة التاسعة فتح الباب ، نظر إلى فريدة ونشوى ، تنفض قلبه ، فريدة تبدو راضية ، عبرت ابتها الصالة ، قالت

فريدة « زمن الفراغ » ، رد تحيتها ، يحيل إليه أن عبارات السلام العادية قبلت في أزمان ثابتة ، تست إلى لغات متفرقة ، خطوات فريدة سريرة ، تحاول الابتعاد عنه ، لم يقل حرفاً ، لم يتحدث إلى ابنته ، ما يربطها واه ، كثيراً ما ينظر إليها أثناء عبورها أمام الدكان ، يتساءل ، «أحقا هذه ابنتي ؟ » طفلة السر يرتحت جسد امرأته ، على مهل تعدد إلى جوارها ، صمت بارد ملاء الفراغ ، بعد لحظات قالت وعيناه معلقتان إلى السقف ، التأخير حتى الثامنة مضى ، قالت إنها لم تتأخر كثيراً ، ليس من المعقول ترك ابنتها بمفردها مع مدرس غريب ، ينفض رأس الفجلة ، أوشك على الصراخ ، أى مدرس هذا ؟ ألم تقل إنها ستنلقى الدروس مع مجموعة ؟ تذكر إنقضاء ميعاد اليوم ، عدم إياحة الزعيم ، خرجت ألقاظة مضبوطة بين أسنانه ، قالت إن ابنتها اتفقت مع إحدى المدرسات لكنها لم تنف نظرا لانشغالها الشديد ، حاولت الاتفاق مع أكثر من مدرس ليحضر إليها في البيت ، بالفعل جاء مدرس لكن أولاد الحرام استقبلوه ، لم يجزؤ على الدخول ، بعد بحث قبل مدرس إعطاءها دروسا في بيته ، لم تأمن على نشوى فتصمت معها ، صمت ، إن رأس الفجلة يقف ، أين هذا المدرس ؟ أهو أعزب ؟ ألا تبدو الأم مغربة أكثر من الابنة ؟ هل تستر البنت على أمها ؟ دائما ردود فعله بطيئة أمام الأمور المفاجئة ، في الليل تقلب مرات ، يحيل إليه أن امرأته تشهد بواجبة ، برقت صور قديمة ، سرورها في الأيام التالية للدخلة ، عيناها تضيئان الخراش ، تأوهات الشبح والفرح باكتشاف منابع المتعة ، في اليوم التالي قطع جوفه اليومية ، قرر مواجهتها ، بعنى عقله رأى المدرس يحتضنها ، يجلب جسدها متمهلا ، نشوى تنتظر في الصالة ، لم يشخذ مواقف عنيفة أبداً ، يجب ألا يتردد الآن ، يجب عليها الاستئذان ، يعرف زوجات أخلصن لرجالهن بعد دخولهم السجن والحكم عليهم بالمؤبد ، ما جرى لم يحدث له بمفرده ، الزعفراني كلها تعاني ، الرجال لا يعارضون أملا في الخلاص ، عند مدخل البيت نادى عليه طاحون ، اضطر مرغما إلى الوقوف ، قال إن الفواد التكرلى أرسل إلى صحيفة بما جرى ، وأن صحفيا

جاء إلى مقهى الداطوري يستصفي الأحوال ، وأن طالباً يقسم الصحافة أبلغ الأحداث إلى رئيس التحرير المشرف على تدريره ، ويقوم بجمع الأنباء ، لكنها لم يدخلوا الزعفراني ، ولم ينشأ شيء بعد ، وأن مخبرين من الأمن المخصوص سالا في الحى عما يحدث ، يبدو أن الحكومة شمت أخباراً ، هز رأس الفجلة رأسه ، هم بالدخول ، لكن طاحون أشار إلى أعلى ، حسن أنور يقف مرتدياً الزي العسكري ، يتأبط عصاً قصيرة ، يرفعها من حين إلى آخر ، يشير إلى أعلى ، إلى أسفل ، بسرعة دخل رأس الفجلة ، وقف أمام امرأته ، يعلو صدره ويهبط بسرعة ، حرص ألا يتسلط داخل الغرفة حتى لا تظن يبحث عن رجل مخفى ، مطمئن إلى هذا ، تساءلت عما يجري ، عما به ، ماذا جرى ؟ نظر إليها ، إن العبارات التي فكّر فيها ، الصور المتوالية طوال الليل والنهار تتعد الآن ، لا يدري ما جرى ، ربما الخوف من تطور الحديث إلى زعيق حرمة الشيخ ، ربما لشعوره بالحاجة إليها الآن ، لا يتخيلها بعيدة عنه ، يضيق بعجزه لكن وجودها اعتاده ، طريقة حديثها ، نظراتها ، راحتها ، إنه في حاجة أشد إليها الآن ، فريضة تبدى دهشة ، يرفع رأسه ، لكم تبدو جميلة الآن ، تخفى ضحكة حرصاً على عدم استفزازها ، لم تعهد طريقة دخوله ، يهينها صوته هادئاً ، فيه ذلة غريبة ، استسلام ، قال إنه لم يحدث ما يزعجها ، كل ما في الأمر إنه عثر على تحفة رائعة ولم يجد معه ما يكفي من نفوذ فجاء إلى البيت ليستكمل ثمنها » .

« مذكرة رقم (١) ، من قسم بوليس الحى القديم الى هيئة الأمن الأعلى »

« . أفادت تحريات رجال البوليس السرى التابعين لقوة القسم أن أموراً غامضة تجري في حارة الزعفراني ، منذ عدة أيام ولا أحد يستطيع دخول الحارة فيما عدا سكانها ، بدعوى الطلسمه ، وكل من يطؤها يلحقه أثر الطلسم ، ويتلخص أثره في سلب الرجال أغلى ما يملكون ، قواهم الجنسية ، وترقب على هذا عدم تمكين بعض الموظفين الرسميين من أداء أعمالهم . وقد وردت إليها بلاغات عديدة نوحزها فيما يلي :

١ - بلاغ من موظفى مصلحة الكهرباء (قسم التحصيل - فرع الحى القديم) بخصوص عدم تمكنهم من الكشف على استهلاك السكان من الكهرباء عن شهر مارس ، والفرع يطلب اتخاذ إجراء عاجل والا اضطر إلى قطع التيار عن الحارة كلها .

٢ - بلاغ من هيئة الآثار « تفتيش الحى القديم » ، بخصوص عدم قدرة مفتشة الآثار سعاد أبوزيد عن الدخول إلى الحارة ، لقيامها بأعمال التفتيش الدورية على الأثر القديم رقم (٤٣) ، وهو بقايا منزل من العصر المملوكى الثانى ، ويضم نقوشاً جصية وألواحاً رخامية ، وحشوات خشبية ، والتفتيش يتطلب اتخاذ إجراء من جانب الأمن لحماية هذا الأثر ، أو تمكين المفتشين من دخول الحارة بدون تعرضهم لأثر الطلسم .

٣ - بلاغ من المدعو التكرلى ، ضد المدعو الشيخ عطية ، وبعض أهالى الزعفراني .

١ - بلاغ من الأسطى عبده السائق بالنقل العام ضد زوجته بشينة الشرطى ، يتهمها بفرده والاستيلاء على حاجاته .

٢ - بلاغ موقع : « رجال الزعفراني » يطلبون حماية حرمهم من بعض القوادين المحترفين الذين بدأوا يترددون على مقهى الداطورى .
وأقادت التحريات أن المدعو الشيخ عطية بدأ يفرض رغباته على الأهالى المطلسمين ، وحدد مواعيد ثابتة ، لنومهم واستيقاظهم ، تعارض هذا مع ظروف البعض ، كما حدث لأحد العاملين بمصلحة السكك الحديدية ، أيضاً قام الشيخ بإجبار الأهالى على الأكل فى مواعيد محددة ومن أنواع معينة ، كما يقوم بعمل إذاعة على الأهالى بواسطة أحد المتعطلين ، ويعتبر هذا تعدياً على الجمهور ، كما تدخل فى أمور تخص الجهات المسئولة ، من ذلك تعهده للأهالى بضمائم الأمن والطمانينة إذا طبقوا ما يطلبه ، وقوله إنه سيعيد ترتيب العالم ، وحديثه عن تميم أثر الطلسم تدريجاً ، وتولية مسئولية كافة المواطنين .

رجاء الإحاطة ، واتخاذ اللازم ... »

« بعض الحوادث الزعفرانية » .

واضح أن أوامر الشيخ لا تنفذ تماماً فور صدورها ، يبدو بعضها فى البداية شاق التحقيق ، يعلن البعض تمرده ويديه آخرون سراً ، لكن استمرار الرفض ضعب فى ظل الطلسم ، مخالفة الشيخ تؤدى إلى مزيد من غضبه ، حدث بعد منع الشاجرات وقوع حوادث صغيرة ، شهد منزل الصول حالتين فى يوم واحد ، وإلاهما فى شقته ، لم يهجم الطلسم أو عجز الحارة كلها ، أيضاً امرأته ،

الصول يقترب الآن من الخامسة والستين ، عمرها مشدود إليه ، ستوانه جزءه حتى من أيامها ، لا يقدر على البقاء ساعة واحدة بدونها ، إذا خرجت لشراء خضار أو خمة يقلق ، يظل . يلمسها قادمة فيصبح طالباً منها الإسراع ، يقضى وقته فى الحديث عن أصدقائه القدامى وزوجاتهم وعاداتهم ، أو يبحث عن صندوق قديم ليصفكه ثم يعيد تجارته ، أو يدق قاعدة النافذة ، يعلق صورة ، عندما يحاول اللعب بأسلاك الكهربية ترجوه امرأته الابتعاد ، تطيل الرجاء ولا يستجيب إلا بعد أن تخلفه بحياة الأمير ولى العهد . مع مضي أيام الطلسمه بدأ يقلقان . ستعرض حياتها لحدث يساوى أثره ما جرى للأهالى ، لم يستطيعا تخمين ما سيجرى ؟
سكنى عويس فى البيت ترهبها ، يخيل لها سماع أصوات وقرقة فى عمل الليل . عندئذ يرفع الصول رأسه قليلاً ، يؤكد بحىء الجوان إلى غرفة الفران ، يلح عليها ألا تأتى بكلمة ما تسمعه ، تهز رأسها بحسبة ، يقول إنه يعرفها ، امرأة ذات لسان طويل لا تطيق الاحتفاظ بسر . لا تجيبه فى مثل هذه الحالات ، تطلب منه الهدوء عندما يستمرسل فى سبها ، تقول إن الشيخ عطية سيغضب لو علم أنها يتحدثان فى خوف الليل ، التزم بكافة ما أذاعه عويس خوفاً من المجهول الذى قد يحل بها ، لكن اليوم أبدى الصول مخالفة ، حدث بعد استيقاظه أن طلبت إحضار نصيبها من القول والدين ، تساءل عن أى شيء تحدثت ؟ قالت إنه إذا لم ينزل الآن فلن يتناولوا لقمة واحدة وسيجوعوا ، فجأة وقف ، هل من المعقول أن يأتى زمن يقف فيه الصول ، طباع الملوك والأمراء أمام امرأة بأنف الإنسان من راحتها لتعطيه حفنة فول وتعطيه كوب لبن ، اتسمت عينا امرأته ، قالت قرعة « الهدأ يا رجل يا جنون » ، هل نسى تعاليم الشيخ ؟ . تذكرت الحجر بين الواقعين أمام القرن ، باستطاعة الشيخ مسحها فتمضى السنون ولا يتحركان ، يشاهدان ما حولهما ، يسمعان الهمسة والصيحة ، لا ينطقان أبداً ، اتخذ الصول وضعاً متصلباً ، أعلن عدم خوفه من أحد ، لن ينزل تحت أى ظروف ليحصل على طعام أعد بسرعة ، حاولت امرأته تكليمه فـ ، يمكنها التفاوض عن أى كلام إلا ما تسمعه

الآن ، ينس الشيخ مباشرة ، تعرف زوجها ، ينسى نفسه عند استمراره ، آثاره اقتراب يدها منه ، صرخ بأعلى صوته معلنا تأكيده الآن من عدم احترامها له ، تدهور الوضع إلى محاولتها تكثيفه ، حياته العريضة الحافلة لا تحتل ذل يوم واحد ، قطع الصالة إلى حجرتها ، هنا نسيت أمراته كل شيء ، رأت الخطر مجسدا ، سمع صراخها واضحا ، أبدى طاحون ضيقه من هؤلاء الحمقى الذين يخترقون تعاليم الشيخ الباركة . كأن الأمر يخصهم وحدهم ناسين إن الخطأ الفردي يعم بآثاره الجميع ، لحظة الصرخة تصادف صعود رمانة السياسى حاملا طبقا مغطى برغيف وكوبا صغيرا ممتلئا باللبن ، زعيق المرأة دفعه إلى الصعود حتى الطابق الثانى ، زعقت امرأة الصول « الجارودة .. » . بعد إصفاء رمانة إلى الصول ، إلى حيلته ، والأمراء ، والأطعمة الفاخرة ، وزمان الذل الذى يحاول إجباره على الوقوف فى طابور من أجل حصوله على الأكل ، قال رمانة إن الصول تاريخه معروف ، لا ينكره أحد ، كل ما فى الأمر مرور الزعفرانى بطروف غريبة تدهشة شخصيا ، يظن إن ما يحدث فى الزعفرانى الآن نواة أمر غريب لم يتكشف بعد . الموضوع أشمل وأعمق بكثير من ظاهره ، وهو لا يرى فى إجراء الشيخ الخاص بالطعام ضررا . وهذا مقيد بالنسبة له شخصيا فهو لم يلتحق بعمل منذ خروجه من المعتقل ، تقوده محبته ، لن يحصل على أموال من أية مصادر فى وقت قريب ، النظام فى بدايته والأمور فى هذه الفترة تبدو عسيرة . بمرور الوقت يصبح كل شيء عاديا ، اتكأ على الجدار واتخذ وضعا مسترخيا متجاهلا الفدارة المصوبة إلى رأس الصول ، قال إن حياته مليئة بمثل هذه المواقف ، عندما دخل السجن الانفرادى لأول مرة فى حياته ، فوجيء بضيق الزنزانة ، قضى الليلة الأولى مثقلا بالأحزان ، أيقن موته لو مضت عليه ثلاثة أيام ، استحالة الحياة فى هذا الحيز الضيق حيث لا يمكنه المشى أكثر من خطوتين فى خط مستقيم ، حيث لا يمكنه النوم متمددا ، حيث لا إنسان يبادل الحديث ، فوجيء بمرور أيام العمر ، الضغوط الزمن داخل الزنزانة ، ربما لعدم تحركه فى المكان حركة واسعة ، مر

أسبوع ، بعد فترة نسي معالم الأيام ، أصبح الزمن متشابها ، لا فرق بين الجمعة والسبت والأحد وبقية الأيام ، بدأ يحفر خطوطا صغيرة ضئيلة على جدار الزنزانة ، هل يدرى الصول كم يوما انقضى ؟ هز الصول رأسه ، لاحظ رمانة تدلى يده المنسكة بالفدارة ، ستة شهور وأربعة أيام لم يكلم مخلوقا ، توقف رمانة ، قال إنه سيذكر حادثة أخرى ذات دلالة أعمق . فى أول أيام السجن عندما دخل العنبر جاء إليهم أحد السجناء بالغذاء ، إناء كبير مليء بسائل أخضر اللون ، تطفو فيه أوراق نبات ، وأجسام مستديرة ، اسطوانية الشكل ، نظر إلى الطعام بتعزز ، أدار ظهره ، لحظ إقبال زملائه الذين قضوا فترات متقطعة من أعمارهم فى المعتقلات ، لاحظ شرههم ، يذكر قوله لنفسه وقتئذ ، السجن يعلم الروح الإنسانية الغلظة ، فى المساء جاء العشاء ، فوك مدمس ، حبات لم يرى مثلها ، لابد من نزع القشور عنها ثم استخراج السوس من داخلها حتى يمكن أكلها ، ابتلع حبات ، فى اليوم التالى جرع الشربة الخضراء المسوخة بشراهة ، فيما تلا ذلك استمتع بها ، أفسى الأمور تلين مع الزمن ، ما فعله الشيخ لا يخلو من خير ، أثناء وقوفه فى الطابور سمع طاحون يتحدث عن خروجه مرة ليشتري إبطارا لأولاده ، رأى أول الحارة إحدى النساء المطلقات ، الضيق يسك بها ، اقتربت منه ، دعت له بالنسر ، طلبت منه قرشين لتشتري بها طعاما ، قال رمانة إن الاجراء الأخير يجنب النساء الخروج الى بائعى الخضار والجزارين ووقوفهن أمام الجمعيات التعاونية ، خاصة أن البائعين دأبوا على التعرض لمن يسخيف الألفاظ خلال الأيام الأخيرة ، بالطبع فإن المرأة كريمة كروحة الصول .. هنا لوح مقاطعا ان من يحرق على التعرض لأمراته سيفرغ فيه هذه ، هنا أدرك رمانة اللحظة المناسبة ، طلب منه وضع الطبنجة الملكية مكانها ، عندئذ نظر الصول إلى امراته ، قال إنه من أجل الرجل الذى عانى وسجن سنوات طويلة من أجل المبدأ سيعيد النظر فى موقفه الحالى ، عاد رمانة إلى حجرتها ، تذكره تلك الأيام بالسجن ، فنذ سر يان الطلسم لا يخرج ، جزء كبير من وقته يقضيه فى قراءة كتب ، أو استرجاع الأيام

الثانية. منذ أيام زاره شاب زعفراني، قال إنه حسان بن حسن أنور، علم بخروج رمانة، يرغب في توثيق علاقته به، أبدى ترجيحاً أضعف شكاً، علمته الأيام الجهمية للهيئة بالجواسيس أن يشك دائماً فيمن يقبل عليه، تحدث إلى حسان بحذر، بعد يومين أيقن حسان الشاب وطمأه إلى المعرفة، تذكر أيامه الخضراء عند جلوسه إلى «بدر» الذي علمه الاشتراكية وحب الناس ودله على أولى خطوات العمل السياسي السري، رمانة ينظر حسان اليوم، حتى الآن طرقاً موضوعات عامة، يرغب رمانة في استكشاف هذا الجبل، يود مناقشته في أمور كثيرة، بعضها يتعلق بالجامعة، ما يجري فيها، ما يحدث في الزعفراني، أنحوال والده الذي سمع عنه أقوالاً متضاربة، لم يستطع الاسترسال في تفكيره. سمع صراخ طفل فوق السلم، ولأن الله الحوادث يمكن اكتسابه أهمية الآن فقد أسرع بفتح باب غرفته، مال فوق الحاجز الخشبي، امرأة ضخمة تميل على طفل صغير، ترفع يدها لتهال عليه ضرباً، صاح رمانة، «حرام ياست» احتسى الطفل به، سب المرأة من خلال بكائه، فوجيء رمانة بالسب بشينة تقترب منه، لامسه صدرها الضخم، برقت عيناها من خلال البرقع واليشمك الذهبي، عيناها واسعتان تعبران عن كل ما يحمله الجسد المائل من رغبة، قالت إن هذا الولد اسمه يوسف وهو ابن الست أم يوسف التي تسكن تحت رأس الفجعة، أثناء خروجها رآته يقف أمام حجرة عويس ولأنها سيدة حرة وشريفة لم تطلق المنظر، أمرته بالانصراف، لكنه أخرج لها لسانه، عندئذ انبالت عليه ضرباً، تساءل رمانة عما لا تطيقه؟ خفت صوتها أرسل قشيرة في جسده، قالت. أم يوسف امرأة شرهة، في حاجة دائماً إلى رجل يبرد نارها، ظنت الغيبة أن عويس هو الوحيد القادر نظراً لقربه من الشيخ، بدأت تحوم حوله وها هي ذى ترسل إليها إليه، ضربت صدرها، هل رأى أحد أفدح من هذه المصيبة؟ هز رمانة رأسه بدهشة، جراءة السيدة أدهشته، خوضها هذه الموضوعات ببساطة شديدة، نظراتها وحركات يديها تقول معاني أكثر مما تحكيه، كأنها تود أن ينطق

رمانة مصرحاً أنه هو الوحيد الذي أشار إليه الشيخ عطية، قالت إنها لن تقبل الخيال المائل، نزلت السلم متمهلة، عند كل درجة تلتفت إلى رمانة، لا يدري أحد كيف وصل النبا إلى أم يوسف، فوراً اندفعت محاولة الخروج، لكن طاحون تصدى لها بحزم، بصوت خفيض ذكرها بما قد يعود عليها، إنها تخالف الشيخ، تدفق الدم إلى وجهها، أيقن أن حقها سيدفعها إلى الحارة، الزعفرانيون ينتظرون دائماً مشاجرات الست بشينة وأم صبرى أولاً تليها خناقات أم سهر وأم يوسف، إن المشاجرات التي تشترك فيها أحدهن تصبح فرجة للأهالي، أي منهن تمتع باستيعاب ثروة كبيرة من ألفاظ السباب، والتشبهات، وإن تميزت كل منهن بخاصية معينة. الست بشينة تفرق سبابها بالتصفيق، وتلعيب الحواجب بلا توقف، وابتداء حركات راقصة، ويرجع الزعفرانيون ذلك إلى احترافها الرقص زمناً، أما الست أم صبرى فتعتمد على ضخامة صوتها وقد تنجأ إلى كشف أجزاء من جسدها، ويقال إنها قرشت ملاعقها السوداء في إحدى المشاجرات وبدأت ترفع ثيابها، وعندما اندججت فوجيء الأهالي المطلون للفرجة تخلع ثيابها كاملاً حتى أصبحت عارية تماماً كما ولدتها أمها، وراحت تستدير إلى جميع الجهات، وكثيراً ما تدعى إلى الاشتراك في خناقة بحارة أخرى، وظهورها كفيلاً بإسكات أي خصم، ويشاع أن لها معجبين يستمعون خناقاتها، ويضجون وراءها إلى الحارات القريبة أو البعيدة. أم سهر تعرفها الحارة بصيحاتها الوقور التي تطلقها في البداية «الله أكبر، الله أكبر الله أكبر عليك يا ابنة ال.....» ترسل السباب غير نافذة إلى الطرف الآخر الذي تشتبك معه، تهز قبضتها مراراً، وترعش أصبعها الوسطى، ورغم بداية شجارها الوقور لكن الزعفراني تنأهب لسماع أكبر قدر من الحكايات المليئة برموز جنسية، وإذا احتد الموقف تغادر شقتها. تفتحم المكان الذي تنتحس فيه خصمتها، تهال عليها ضرباً، تذكر الحارة توجهها إلى محاسن امرأة على المكوي، جثمت فوقها، انبالت بقردة شبيب قديمة عليها، ترتب على ذلك عدم قدرة على المكوي الاقتراب منها شهراً. أم

يوسف تبدأ في هدوء ، توجه حديثاً عادياً إلى الجارات ، عادة لا يكف الطرف الآخر بل تزداد حدة الزعيق ، هنا تتوارى أم يوسف دقائق ، تعود حاملة طيلة ، تنقر عليها ، تنظم إيقاع شفافها ، اضططر طاحون إلى إمساك ذراعها دفعها إلى الجحرة الداخلية ، فوجيء ، لأول مرة يلمسها منذ أيام ، نعمتها أرسلت قشعريرة في جسده ، يتذكر المرات العديدة عندما أحاطته ، بأسى يذكر لحظات مله ، ضيقه بجسمها ، يود الآن لو شرع في عناقها ، لكن وماذا بعد ؟ كأنه يجري في طريق طويل ثم يصطدم فجأة بحاجز خفى ، لم يأت الصراخ بفائدة ، لو يخط صدره ، لو ينفق عينيه ، لو يعض الأرض ، لكنه كالموثق ، أفكاره تلقى ظلالاً كثيفة على عينيه ، يأتي صوت امرأته مبجوحاً ، خافتاً ، ترجوه تركها لترد على هذه الفاجرة ، قال طاحون إنه لا يريد اغضاب الشيخ ، انزعرت ذراعها ، ضربت صدرها ، ارتمت فوق البلاط ، تعض يدها ، تشد شعرها ، الغريب أن صوتها يعلو برغم حدة انفعالها ، من بين حشجاتها تقول إنها لا تطيق زمناً يضرب فيه ابنها ولا تستطيع الرد ، يزحف صوته خارجاً راجياً منها الصبر مؤكداً عدم سكوت الشيخ على ما فعلته بشينة العجربة ، طوال اليوم لم تخرج أم يوسف ، لم تطل من النافذة ، لكن الست بشينة لم تبدأ ، لم تستقر في موضع واحد خمس دقائق متصلة ، تخرج لتشتري أتفه الأشياء ، الساعة الثامنة خرجت لتشتري إبرة خياطة ، مرة أخرى وصلت إلى بيت القاضي وعادت متمهلة ، إن قلبها يتحطم في صدرها لأسباب عديدة . ثم يسبق إنقضاء مثل هذه المدة بدون أن يقرأها رجل ، تذكر ليا لها مع الأسطى عبده الآن ، استعرضه قنونا يتقنها عندما ينظر إليها ويأصح الرضى يسعد جداً ، يغادر الفراش إلى المطبخ ، يعصر الليمون ، يقدمه إليها وهي تترقد مسترخية ، برغم فحولته يخشى إزعاجها إذا تأخرت قليلاً في النوم ، كثيراً ما غادر البيت بدون أخذ مصروفه ، لا يحتفظ بنقود معه ، يسلمها مرتبته كمله أول الشهر ، وتتولى تدبير الأمور كلها ، خلا البيت من الرجل الذي اعتادت أن تأمره وتنهاه . أن تراه قابلاً في الصلاة ينتظر خروجها من الحمام ، في

لحظات كثيرة تتمنى لو طرق الباب وتراه داخلاً ، لكنها لم تكلف نفسها عباء السؤال عنه ، لم يذهب إلى ناظر المحطة حيث يبدأ خط الأوتوبيس ، عبده لا أهل له ، لا تعرف له أما أو أبا أو شقيقة ، لم يتحدث يوماً عن عمه أو خاله ، لم يتوجه لزيارة أحد أقاربه في العيد ، لم يزر مر بضا ، لم يواس مصاباً ينتمى إليه بصلة دم ، تذكر عجزه فلا تطيق تخيل ظله ، مع ذلك تشعر بوحشة شديدة في ليالي الزعفراني الخالية من الحركة ، والحس ، آخر النهار دهمها وحشة ، أطلت ، لم تلمح إلا لطيفة ، نادتها ، لن تتأخر عليها ، أثناء صعودها السلم يراودها أمل الحصول على الطعام ، إنها تعاني عوزاً ، هل تستحق هذه المرأة الحديث إليها ؟ ما العمل ، لم تجد غيرها ، ستجد منها إصغاء واهتماماً ، أبدت ضيقها من فجر بعض النساء ، وافقت لطيفة بهز رأسها ، ثم قالت إن الزمن قدس ، الدنيا لم تعد هي اندنيا ، الشيخ على حق عندما أبدل عبارات التحية بجملة واحدة ، فعلاً هذا زمن قرار ، فرار من الحب والطيبة والاخلاص ، الحقيقة أن لطيفة لا تدع فرصة بدون الاستفادة بأعمال الشيخ خوفاً أن يلحق الأذى ابنها في غربته باعتباره زعفراني الأصل ، لأول مرة تسمى ألا يحضر ابنها خلال تلك الظلمة ، تطوقت الست بشينة إلى موضوعات أخرى ، ذمت بعض النساء ، هزت لطيفة رأسها ، هاجمت الست بشينة رجال الزعفراني المستسلمين لما لحقهم ، سكنت لطيفة ، موافقتها على هذا الكلام فيه غاطرة ، هاجمت بشينة نبيلة المدرسة ، وصفتها بالنفخة الكاذبة ، الغرور ، تظن نفسها مهمة جداً لا تنسابها إلى الجامعة ، مها تدرجت في الوظائف لن تستطيع مخالطة واحد من معارف بشينة في الزمن القديم ، قالت لطيفة إن بنات هذه الأيام متعجرفات ، خطت بشينة ركبها ، قالت إن هذه العجرفة ظاهرة ، نبيلة هذه مرتبها عشرة جنيهات ، تطيح حنة مكرونة يوماً في البيت وتأخذها إلى المدرسة حيث تبع السندويشات إلى التلاميذ ، تضطهد من لا يشتري منها ، قالت إن عائلتها تعيش بصعوبة ، شفتهم تقع أمامها مباشرة ، لم يحدث أن شمت راحة بعل يلقى في سمن ، كل ما يصدر عن مطبخهم رائحة

الزيت ، لا يذوقون اللحم إلا مرة كل شهر ، تضايقت لطيفة ، تبدو هزيلة
لخيلة ، لا تشم رائحة الدسم إلا بعد وصول حوالات ابنها الشحيحة ، إنها حساسة
جدا تجاه ما يمس فقرها ، بعد ثوان قالت لنفسها أن بثينة لا تقصد ما قاله ، كل
تفكير بثينة اتجه إلى لبيلة هذه ، غضب مفاجئ ، يملؤها ، لبيلة هي الزعفرانية
الوحيدة التي لم تخض مشاحرة حتى أمها لا يسمع لها صوت فيما عدا بعض
مناقشات حول الأسعار مع الباعة الجائلين قبل انقطاعهم ، على مهل تنجس إلى
الشرقة ، الوقت الآن يميل إلى الغروب ، لا شيء يرحم عقل بثينة إلا الاحتكاك
بهذه البنت وكشف غرورها ، يبدو أن الظروف لم تدعها تنتظر طويلا ، قدف
بعض الصبية كرة فيما بينهم ، انهم أطفال زعفرانيون إذ أن الأمهات في الحواري
القريبة حذرن أطفالهن من اللعب بالزعفراني ، تصارع الأولاد ، هنا ظهرت
نبيلة ، تمسك كتابا ، صاحبت ليكيف الأولاد عن لعب الكرة حتى تتمكن من
مراجعة المحاضرات ، تلك لحظة مناسبة ، علا صوت بثينة سائرا تساءلت
مستكرة عن حجم الضجة التي أثارها الأولاد ، أم من الضروري افعال المواقف
لتذكير الناس بانتساب البرنسية الداتحة إلى الجامعة ؟ فوجئت نبيلة تماما ،
بدت نيرة المهجوم واضحة لدرجة أن عددا من النساء سار عن النظر ، بعضهن
أقسمن أن اليوم لن يمر بخير ، مصصت نبيلة شفتيها دهشة ، زعقت بثينة إنها لا
تطبق رؤية بنت مفعوصة ، عانس تجاوزت الثامنة والعشرين ، مدرسة الزامي ،
تموت شوقا إلى شم عرق رجل ، لا تستحم إلا كل شهر مرة ، بنت قليلة الحياة ،
تعاكس الرجال وتتحكم في الزعفراني ، ألا يكفي ما جرى حتى تجيء مفعوصة
لتأمر وتنبئ ، فوجئت الحارة كلها بهذا الهجوم الخاطف المركز الذي شنته بثينة ،
بدون مقدمات ، لم يلاحظ أحد أن نورا سابقا بين بثينة ونبيلة ، سارعت لبيلة
بالدخول متنادبة أمها ، صوتك بذلك مدعور ، صاح أحد التجار مطالبا بثينة
بالتعقل ، ما تظلمه بضر الحارة كلها ، لأول مرة يرتفع صوت عاطف الجامعي « لا
يصبح ياست بثينة » إن ماء مغليا يصب في غروفها ، فرصتها مواتية الآن للهجوم

على شخصين لم يجرحها أحد أبدا ، تساءلت ، هل يخسر عاطف نفسه لأنها
تدرس في الجامعة التي تخرج منها ، أم لأن الأمور وراءها ما وراءها ، لا يخفى
عنها أمر مما يجري في الزعفراني ، لا داعي للكلام الآن ، لكن إذا طنا تعالينا
على الحارة فيها مخطفان ، بثينة أعلى الأهالي مقاما ، طالما عذبت رجالا لا يعلم
عاطف بالجلوس إليهم ، وربما تدرس عود البوص هذه تاريخهم الآن ، يبط عاطف
شفتيه ، يتوارى داخل شفته ، كذلك أحمد النجار ، حتى خديجة الصعيدية لم
تظهر ، يخفت صوتها ، وحشة السكون المفاجئ تدرك قلبها ، رعشة خوف
أدركها ، تود لو رأت عبده الآن ، البلاط المكشوف ، الجدران القديمة ، الصور
المحاطة بإطارات باهتة ، الباب الذي لا تنتظر أن يطره أحد ، الوحدة الليلية
ترعبها ، الغيظ الفاجئ والانتفال الحاد يتحول الآن إلى رعب ، صوت خفي
يكرر عليها فكرة غريبة ، لو أغمضت عينيها لن تفتحها قط ، ترقب الضوء
الرمادي المقبل في أصرار قاس ، تبدو أيامها البعيدة متباعدة إلى شخص آخر ،
الحرب ، الصالات ، الانجليز ، انطفاء الأنوار فجأة ، ربات آلة القانون الشجية ، لا
تذكر اسم أحد هؤلاء الأغراب ، تذكر تفكيرها الساذج قبل أن يلصقها أول
واحد منهم ، هل ستجده مختلفا عن المصريين ، تذكر تقلصات وجهه ، خالفت
عادتها أن تقمص عينيها ، أحد أصدقائها المصريين حدثها عن ضعفهم ، تجربتها
معهم أثبتت العكس ، أنات النشوة ، أضواء الصالات ، طرقة الزجاجات عند
فتحها ، لكم يبدو هذا ضئيلا الآن ، عرفت راقصات ومغنيات أمثالنا بالحارة
والحيوية ، بعضهن سقطن فجأة ، تخشى مداومة الموت ، لكم يبدو مفرعا ، تغمص
عينيها ولا تفتحها ، لا ترى أحلاما ، لا توقظها ضجة ، لن يعرف موتها إلا بعد
تحلل جثتها وفواح رائحتها ، ترى الزعفرانيين يحاولون كسر الباب ، أصوات تملو
« فعلا لم ترها منذ أيام » ، « منذ أن زعقت لبيلة لم يسمع صوتها » « هذا ذنب
السكينة التي لم تأت ذنبا » ، تجلس في الصالة مستسلمة لبرودة قاسية ، خلال
الوقت المنتهي حتى نوم الزعفراني لم يرها أحد في الشرقة ، لم يسمع صوتها ، لكن

هنا لا ينبغي أن نصدده ماد الحارة، سرت أخبار حوالي السابعة بظهور أغراب بمقهى الداطوري؟ أكد على المكوي أن بعضهم قادم من الهند يحمل حلا للمشكلة، قال طاحون أنهم موظفون جاءوا يستقصون الأحوال. موضوع الزعفراني لم يعد خافيا، والدولة مكلفة بحماية المواطنين، ربما استدعوا الأهالي واحداً، واحداً، ماذا سيقاتلهم عندئذ؟ اتجه إلى عويس ليطلب منه نقل تساؤل إلى الشيخ عما يمكن إجابة الأغراب به؟ والحقيقة أنه خلال اليومين الأخيرين لجأ طاحون إلى عويس عدة مرات مستفسراً عن أمور صغيرة كى يضمن ترديد اسمه لدى الشيخ، وعدده عويس بنقل استفساراته، لم يكذب وعداً، يقول كل ما يسمعه عن الأهالي ولا ينتظر تلقى جواب سريع، عرف بأمر هؤلاء الأغراب، ربما جاء أحد من البلدة يسأل عنه، ربما أرسل المعلم أبو الغيط يستدعيه، لن يصل إليه إنسان، ينسى تدريجياً ملامح بلدته البعيدة، والمعلم أبو الغيط، والحمام، والأفندية المحترمين، بقاءه بفردة فترات طويلة يجعله راحلاً باستمرار إلى سنوات عمره، كثيراً ما حلم بحجرة صغيرة، ورائحة طيبخ تنتظره، وزوجية، ازدادت معالم الحلم وضوحاً بعد عيشه مصر، برغم نومه في القرن، بخار الحمام الخائق، رطوبة بلاط الرصيف المحيط بمسجد الحسين، اعتبر هذا كله أموراً عابرة تمهد لأيام الاستقرار، إذن عليه الاحتمال، عندما استأجر الغرفة استبشر خيراً، قضى لياليه الأولى سعيداً، يتأمل سقف الحجرة المائل والمستعمل كسلم أيضاً، يصمى إلى وقع الخطوات الصاعدة والنازلة، بدأ نومه صعباً خاصة أن عمله وقتاً في الحمام يفتضى سهراً ومجهوداً عالياً مع الأفندية، برغم مضايقات الحركة فوق السلم، بمجرد خروجه يغود إليها خفيف الخطى، لأول مرة في المدينة الكبيرة هذه يمتلك مفتاحاً لمكان مطلق، يتخلل فيه ثيابه، يشعري، بضحك، يبكى، نحن كما بهوى، لا نخشى عسكري دورية، أو هجوم نزال أو لص، خلال الأيام الأخيرة ينظر يخوف إلى سينه المنفضية، ثلاثين قضاهاً باحثاً عن اللقمة. يقعد ساكتاً بين المتحدثين، يتوعد على الأفراح ليس

مشاركاً إنما عارضاً خدماته، على المآثم لا يلتفت إليه أحد، يتخطاه حاملو القهوة، من يدري كم من السنوات ستقضى حتى يفرج عنه الشيخ؟ في البداية ظن أنه سيشفى سريعاً نتيجة لوضعه المتميز، مع مرور الأيام ثقل عليه، يودع جزءاً من عمره في حجرة الشيخ كلما ذهب إليه. إن فكرة استمراره طوال عمره في هذا الموضوع ليست غريبة، سقط في أسر مريب، لحظات معينة تعاجله رغبة موجعة رهيفة حادة كس الموس في الذهاب إلى مقهى أبو الغيط، يلتقي بأهالي بلدته، يستفسر عن أخبارها، حتى أمنيته في امتلاك عربة خشبية، ماها تضاعفت؟ هل يفك الشيخ قيوده بسهولة؟ كلما ذهب إليه يقابله خوف، يحرص جداً على تنفيذ ما يطلب منه، حتى لا يسخ قطاً أو حجراً، الزعفرانيون لا يتجاهلون الآن ظهور قطرة سوداء منذ أسبوع، تقف قرية من طابور الطعام، أقسمت أم صبرى أنها سمعتها تتحدث بلغة آدمية، لم تفسر ما قالته فتلثك الخوف منها، يعاملها الجميع برفق، يسمعون الأطفال من مطاردها أو قذفها بالطوب، رهبة داخلهم تؤكد لكل منهم إمكانية لقائه نفس المصير، سرت إشاعة لا يدري مصدرها تقول إن القطة مسخ لحم مصطفى العربي بائع الذرة الشوية، لم يره أحد منذ فترة، يبدو أنه أطلق تهديدات أغضبت الشيخ بعد أن لحقه الطلسم أثر دخوله الزعفراني أول يوم. أكدت أم صبرى أن التكرلى سيلقى مصيراً مشابهاً، يبدى عويس اهتماماً بالأغراب، خاطريته إلى وحدته، إلى انقطاع الدنيا عنه، اهتمامه هؤلاء الرجال مشوب بخين، لا بد من أخبار الشيخ خاصة أنهم لا ينتمون إلى جهة واحدة، كما يقول الزعفرانيون، رأوهم يجلسون متبايعين، كل منهم لا يعرف الآخر، حوالي السابعة والرابع سرى أن شجاراً يجري أمام مقهى الداطوري حدث أثناء عودة التكرلى وأمراته أن تعرض أفندي من الأغراب لها، تهره التكرلى يهدوه لكن الرجل لم يرتدع فاشتبكاً، لكن قيلت رواية أخرى، عندما لمح الغريب التكرلى قام وصافحه، دعاه إلى الجلوس، لكنه بدا متعرجاً، أشار إلى امرأته التي تقدمته خطوات، هنا اتجه إليها الغريب، أشار إلى التكرلى

قائلاً إنه بوسعه الحصول على ثروة لو أضعى إليه ، قال إن الحارة الآن بلا رجال
و باستطاعتها العمل فوراً ، تصاعد الدم إلى رأس التكرلى ، ارتعشت أطراف
أصابعه ، صاح أمراً الأفندى بالابتعاد ، زعق الآخر قائلاً أن مدحت بك لم ينس
بعد الجنيحات العشرة التي سرقت منه فى بيت التكرلى ، يجمع الشهود أن جسد
التكرلى انتفض هائجا . كأن جسده كله تحول إلى قبضة سددت إلى الرجل ،
قفز ناحيته ، ألقاه أرضاً ، مال على أذنه ، غرس أسنانه فيها ، أسرع عدد من المارة
محاولين تفرقة الرجلين ، قام رجلان آخران ، ابتعدا عن المقهى ، لم يتدخلوا لإنقاذ
الأفندى الغريب الذى كان يجلس إليهما ، لا يرى يدان زوج أنفسهما فى عراك قد
ينتهى بقسم الشرطة ، تكشف حقيقة كل منهما ، أكثر الواقفين ذعرا هى امرأة
التكرلى ، يعرف أى حد من العنف والدموية يمكن أن يصل إليه ، فى مثل هذه
الحالات يمكنه القتل ببساطة ، نفس بساطة استقباله للزبائن العديدين أعواماً
طويلة ، بساطة فرشته ملافة السرير للزبائن ، جلوسه منتظراً امرأته ، اطلاعه من
ثقب الباب على تمرغها فى أحضان قريب ، تعي المرات التى مشيا فيها معا ،
بمجرد سماعه كلمة غزل ، أو إذا لاحظ احتكاكا متعمدا بجسدها ، ينتفض
جوحاً ، يخوض أعنف العراك ، أطلقت صرخات سريعة ، نادته مرات عديدة ،
فى هذه اللحظة ظهر على الكوىجى ، وأحد النجار ، نفذا بين المارة ، انهالا على
الرجل الغريب ضرباً ، لقد سمع على الكوىجى نجحياً ، بعض القواديين إلى
مقهى الداطورى ، وتعرضهم للتكرلى وامراته وتشجيعهم على الحارة ، تصادف
نجحياً أحد النجار يستعجل كوى جلجابه ، أخبره بما جرى ، أسرعاً معا ، لم يتحرك
الداطورى من جلسته . بنفث دخان النرجيلة . كأن ما يجرى يحدث فى شارع
آخر ، هذا ما يجيل لتناظر اليه ، لكنه يشعر فى الحقيقة بخراج تلتفت داخله . لا
يراهها أحد . الأيام تتوالى والغمة تطول ، وكلما ازداد الأمر استقراراً أصبحت
علاقات الناس ببعضهم لبعض أكثر غمراً ، لا ينسى نجحياً الست بئنة اليه ،
بضائها مدة ثم سألها المفاجئ . هل هو الوحيد الباقى ؟ رجته أن يكشف عن

نفسه . ألا ييحل عليها . إنها تخاف النوم ، ليست بئنة الوحيدة التى شكت فيه ،
بعض الرجال نظروا إليه برية ، طاحون جاء إليه مرتين ، حاوره وداوره ، لم يرد
عليه إلا بهزات رأسه ، أما إيجاباً أو نقياً ، هاهم هؤلاء يقتتلون ، المارة يتفرجون ،
أطفال يشتعلون مقلدين الرجال المتصارعين . زبائن المقهى من أهالى الحى
مهجروه منذ شيوخ ما يجرى فى الزعفرانى ، من يدري ، ربما أصاب الآخرين ما
لحق برجال الزعفرانى ، ينتقل العجز كالمرض باللامسة أو الاقتراب ، زبائن
العمر الذين زحوا المقهى سنياً طويلة غالية بلبس الورق ، بالطاولة ، بالدومينو ،
برواية الحكايات ، بالاستماع إلى حفلات أم كلثوم ، كلهم هاجروا إلى مقاه
بيت القاضي والحسين ، اعتاد رؤيتهم فى أيام هدوء الببال حتى أن غيبة أحدهم
أياماً تجعله يكلف خدام المقهى بالذهاب إليه فى بيته والسؤال عنه ، حتى
الزبائن العابرون لا يأوون إلى المقهى اتقاسماً لكوب شاي أو تدخين الشيعة ثم
الانصراف بسرعة ، أما أصحاب الدكاكين والورش فكفوا عن طلب الشاي
والقهوة بعد الغداء ، لم يعد يرقب خروج الصوانى الصفراء النحاسية تخرج من
المقهى غمولة فوق يد الخادم فى اتزان عجيب ، يحاول تخمين ، من سيشرب هذا
الكوب الممتلئ ، أى المشاعر ستجول بخاطره أثناء رشفه السائل الساخن ، ينظر
إلى الأكواب الفارغة ، بعض الزبائن يترك قليلاً من الشروب ، البعض الآخر
يضغ « التفلى » ذاته ، نوعية جديدة تتردد الآن على المقهى ، منهم هؤلاء
القوادون ، لا يقدر على طردهم ، المقهى للجميع ، نوعية أخرى من الأغراب
نجحياً ، صباح اليوم جاء شاب فى الثلاثينات ، طلب حلبة مطحونة شرها
مشمهلاً ، تلقت حوله ، نادى عم محمد الجرسون العجوز ، أشار محمد إلى المعلم
الداطورى ، قام إليه ، ودلو انصرف عنه ، فارقته الرغبة تماماً فى الكلام ، قال
الشاب إنه يعمل صحفياً بجر يدة اليوم ، سمع بما يجرى وهو يريد أن يعرف فقط ،
مثل هذا الموضوع حساس جداً ولا يمكن نشره على الرأى العام قبل دراسات
عديدة ومناقشات طويلة ، أثناء حديثه شغل ذهنه بقضية هل يجيب تحيته بنفس

الألفاظ ، أم يرد « هذا زمن الفرار » ، أمر مثل هذا بالغ الأهمية ، الوقوع في خطأ غير مقصود ، ربما يساوى التعمد وسبق الأصرار لدى الشيخ ، تملكه خوف ، ليسمع الصحنى كما شاء ، لكن أن يتحدث المعلم عما يجري في الحارة فهل يجوز هذا ؟ صمت الشاب ثم عاد يسأل حول حقيقة وجود جنرال في الحارة ؟ رفع الداطوري حاجبيه ، قال الشاب موضحاً إن بعض الأقوال تردد وجود ضابط كبير مجهول الجنسية فما حقيقة هذا ؟ لم يلفظ المعلم حرفاً ، ابتسم الشاب وقال إن اسمه حمدي ، سيتردد كثيراً ويسره التعرف إلى المعلم ، أثناء عودة الداطوري إلى البيت مر بحجرة عويس . طلب منه نقل استفساراته الخاصة بالتحية التبادله مع الأغراب ، وإمكانية اجابتهم عما يجري ، نظر إلى شرفة حسن أنور ، يظنونهم جنرالاً ؟ اعتادت الزعفراني وقتته ، لم يتأخر رد الشيخ إذ أعلن عويس في ندائه الليلي ضرورة استعمال نفس الألفاظ ، ومهما بدا للآخرين غرابتها فسوف يأتي يوم لا يتمتعون فيه حتى لو أنهم ينطقون بلسان أجنبي ، ولا ضرر من الحديث عن أمور الزعفراني فما هو بعيد اليوم سيصبح قريباً من الآخرين عدداً ، الآن ينظر إلى العراك الذي انتهى ، ابتعد الأفتدي ، أمسك التكرلي زوجته متجهاً إلى الحارة ، جاء على الكوجي وأحد التجار ، قال إن هذا زمن الفرار ، رد المعلم التحية ، جلسا ، نظر إلى محمد الجرسون ، انه يدير أعقد الأمور بعينه ، لا يتحدث إلا نادراً ، لكن محمد الجرسون وزفلة الذي يقف وراء النصب يعرفان تماماً ما تعنيه كل الصفات ، بعد لحظات جاء محمد بالشاي ، قال إنها يطلبان منع الأغراب من التردد على المقهى ، لا يريدان تهديد الأعراض واستغلال الحارة ، قال على إن المقهى قريب جداً وموقعه يسهل على أي غريب تتبع من يشاء . يلحظ الداطوري توقف بعض المارة ، ينظرون ثم يسرعون ، جلوس ثلاثة من الزعفراني أمر مثير ، تذكر كلمات عويس عن يوم يحى فلا تبدو أحداث الزعفراني غريبة من الغرباء . قال على الكوجي إن الداطوري لن يقبل أي ساكن في عمارته التي سينها قريباً بإذن الله ، لقد تحدث عن السكان وضرورة انتقامهم ، وعليه

أيضاً الخبير زبانه ، يشعر الداطوري بنقل يلائم روحه ، منذ هجرة الزباني لم يعد يتحدث عن العمارة ، لم يأتيه سمسار يزبون يرجو قبوله ساكناً ، بل إنه لم يفكر في العمارة منذ يومين ، يتلى بحزن ، يطفو حتى يسد حلقه ، يقتل الكلمات عند طرف لسانه ، لم يعد يضيف تفاصيل إلى صورة عمارته ، عدد أدوارها ، لون طلائها ، الطابق الذي سيسكنه ، شكل المدخل ، ينظر إلى جاريه بعين داعمين ، لم يجيبها ، ارتبكها حتى عجزاً عن القيام عندما لحا دموعاً ، بيتاً يبدو وجهه البدين جامد الملامح . هل وقعاً في خطأ ، على مهل قالا « هذا زمن الفرار » ، قبل ميعاد النوم الجماعي برع ساعة خرج يسوونى المحرسى من الحجرة ، زعم منادياً أهالي الحارة أنه يرى من ابنه لولي ، الولد العاصي ابن الحرام يعد عليه اللقيطات أثناء الأكل ، ارتفع صوته قائلاً إنه سيسلم ابنه إلى البوليس لأنه يعمل ضد الدولة ، ابنه عضو في شبكة الإخوان المسلمين ، خرج لولي ، اقترب من أبيه متعباً ، حاول تقبيل رأسه ، لكن الرجل ازداد هياجاً ، كرر أنه سيلغ البوليس الذي عمل فيه عمراً بأكمله ، لن يسكت على الأعمال التخريبية التي يقوم ابنه بها ، لم يعد ولده ، هل وصل الأمر إلى حد لقيطات الخبز عليه ؟ ، في الليلة نفسها ، قبل النوم مباشرة أعلن عويس ضرورة حل الخلافات قبل ظهورها إلا سيلقى المخالف جزاءً مفرغاً ، يكفى ما حدث من مخالفات ، وحتى يأتي اليوم الذي تنبئ فيه كل المشاكل ، يصبح الجميع وحدة كمنوع البحر يدفع بعضه بعضاً ، كل موجة تسند الأخرى ، أعلن أيضاً أن الشيخ سيتحدث يوماً إلى عدد مختار من الزعفرانيين ، صمت عويس ، بدا الليل عسيفاً ؟ وسمع صوت لم يعرف صاحبه يقول : « هذا زمن الفرار » ، جاوبه صوت آخر : « هذا زمن الفرار » ...

« بعض مما جاء في مذكرة سرية جدا ، مرفوعة الى مدير هيئة
الامن المخصوص » :

بدأت المعلومات في الوصول إلينا بعد تكليف الشرطي السري ثابت عبد
الجابر من قوة الأمن الممتاز بمتابعة السجين السياسي منصور سليمان وشهرته
رمانية ، وذلك خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر مارس ، أنهى إلينا عدم
تمكينه من متابعة المذكور وأفاد بأنه عند وصوله إلى الحارة . صاح عليه أكثر من
شخص عذراً ، لو خطا خطوة واحدة فسيطلسم ، ورغم تحلى الشرطي ثابت بقدر
كبير من الشجاعة ، فإنه تردد ثم قرر جس حقيقة الأمر خوفاً من وجود حيلة
متفق عليها بين المذكور وبعض الأهالي . لكن اتضح له أن ثمة أموراً غير عادية
تجبر . ثم اتجه إلى مقهى الداطوري (صاحبه أحد سكان حارة الزعفراني) قرر
أن يرقب حركة المذكور ، ولم يره يخرج إطلاقاً خلال الأيام الثلاثة الأولى ،
وبالسؤال الحذر عنه اتضح تواجده في نفس حجرته ، لا يفادها إلا ليحصل على
طعامه الذي يعد للحارة كلها دون تفريق . لم يتردد عليه أحد نظراً لعدم إمكانية
دخول الحارة ، حاول الشرطي ثابت الحصول على معلومات إضافية لكنه ووجه
بصعوبات . كما لاحظ تردد شاب على نفس المقهى ، تبين أنه يعمل صحفياً
بجريدة اليوم ، ويحيط بمتابعة ما يحدث في حارة الزعفراني ، ومراجعة السجلات
ثبت عدم وجود نشاط سياسي له ، وقبل التطرق إلى دور منصور سليمان الشهير
برمائه نلفت أنظاركم إلى ما يجري في الحارة والذي يتلخص فيما يلي :

وجود الشيخ عطية فعلاً بالحارة ، بالبحث تبين عدم وجود أي ملفات
بالإدارة ، وغير معروف عند أية معلومات ، وليس لدينا أي صور له ، وأوصافه
مجهولة ، وبالبحث في سجلات جامعة الأزهر بدار المحفوظات ، وكشوف أساء

حفظه القرآن الكريم ، والمؤذنين ، وطلبة المعاهد الدينية ، الابتدائية والمتوسطة منذ
مائة عام لم نهند إلى اسمه ، كما لم يوجد اسمه في سجلات المدنية ، وأخبرنا
مصدر أزهرى باتباع نظام تدريس قديم لم يقض بتدوين الطلبة في جداول ،
حيث يمكن للطلاب الانتقال من حلقة درس إلى أخرى . وكثيرون تلقوا العلم
في هذه الحلقات ولم يحصلوا على إجازات علمية .

ثبتت أمر الطلسم ، وقد رصدت التقارير الموضوعية من مصادر عدة أن
كثيراً من المواطنين بدأوا يشيرون إلى الزعفراني ، والطلسمة ، و يوجد في تقرير
النكت اليومي أكثر من نكتة حول الزعفراني . آخرها ما سجل يوم ٣ / ٤ ، وتقول
إن رجلاً عجز من النوم مع زوجته فتجج قائلاً إنه مر من حارة الزعفراني ، ونكتة
أخرى تقول إن شخصاً سأل أبي الهول عن سر صمته خمسة آلاف سنة . فغمر
بعميته قائلاً : « هل أنا مجنون ، أنطه فيحسبني الشيخ زعفرانياً عندئذ يسلمني
قواي الجنسية » .

تتمثل الخطورة في كشف الشيخ عطية عن نواياه ، والذي أشار إلى
قيامه بطلسمة الحارة (عدا شخص واحد لم يفصح عنه) بغرض فرض أوضاع
معينة ، وهي أوضاع تنهى إلى السيطرة على الناس . بعد إلحاق عجز جسيم بهم
يتعلق بأدق الأمور التي تخصهم ؟ وهذا العجز يؤدي إلى وضع الحقائق بحسنة
أمام الأعين ، وكما يقول فإن الإنسان ذاكرته ضعيفة وأفدح الأمور يساهم
بسهولة ، والبشر لا يتعلمون مما يمر بهم — كما تغيب عنهم حقائق واضحة جلية ،
وتسودهم أوضاع تثبت قواي لا بد من قهرها على حد تعبيره حتى يمكن تغيير العالم
وإعادة الإنسانية إلى عناصرها الأولية ، لهذا فإن طلسمت الزعفراني ليست إلا
خطوة تتبعها خطوات . وهكذا يفيق البشر بعد إحداث الصدمة . ثم يضطرون
للامتنثال إلى ما يريد ، ويقولون إنه وعد الكل خيراً ، وقال إنه لن يعد بآمال
ستحققها أجيال آتية ، أو عصور قادمة ، جميع الأحياء في عالمنا سيرون تحقيق ما

يقوله ، وهكذا يلحق كل إنسان أياماً تهدأ فيها الأنفاس ، وتزول الضغائن ، ومن الأفكار التي وصلتنا عنها بعض التقارير ما يأتي :

١ — المساواة الحقيقية بين البشر وفي هذا يقول إنه من الشائع وجود جنس بشري واحد ، لكن كيف يمكن وضع الفقراء المرضى المليئين بالعاهات والآمال الشئ لن تتحقق في زمرة واحدة مع أغنياء متخمين ، يطالب بتصحيح أوضاع البشرية .

٢ — إنهاء كافة الخلافات والمنازعات بين البشر ، ويضرب في ذلك — نقلاً عنه — أمثال عديدة على اقتتال أصحاب مذهب واحد ، أو فكرة واحدة .

٣ — استئصال الاحتقاد ، والأوجاع .

٤ — اجتثاث أسباب الآلام .

وثمة أفكار أخرى لم تصلنا عنها تفاصيل كافية . لكن لا يخفى ما تتضمنه هذه الأفكار ، والإجراءات المتخذة بالحارة من تعد على سلطة الدولة ، وتهديد لقيم المجتمع ، والاعتداء على حريات الآخرين . وتقويض للأسس والأبنية القائمة ، ويلاحظ أن الطلسم قد عزل الحارة تقريباً عن بقية أنحاء الدولة ، مما يجعل القيام بأي أعمال داخلها أمراً سهلاً ، ونشير هنا إلى المسجون السياسي السابق منصور سليمان وشهرته رمانة ، ولا يخفى تأثيره في كثير من الأفكار التي يدعو إليها الشيخ ، كما أن بقاءه داخل الحارة عدة أيام متصلة يشير إلى دوره بما لا يدع مجالاً للشك ، وباعتبارنا مسئولين عن مقاومة الأفكار الشيوعية الهدامة توجه النظر إلى ما يمكن للمدعو منصور القيام به في ظل هذه الأوضاع الجديدة القرية ، كما تملكه لما كينه طبع منشورات ، أو أجهزة إرسال ممنوعة ، أو وثائق متبادلة مع الحركة الشيوعية الدولية ، وسنقوم من جانبنا باتخاذ كافة الإجراءات الممكنة للحد من نشاطه الهدام . ونرجو من أجهزة الدولة التعاون معنا في اتخاذ إجراءات ...

• • •

ملف خاص لتفصيل
أحوال حسن أنور

بعض ما جاء في صحيفة حسن أنور التي يصدرها قبل نومه يوميا :

أربعة لا أمان لهم « المال لو كثر ، والحاكم لو قرب منك ، المرأة لو طالت عشتها ، الدهر لو صفا » .

ترد هذه السطور بشكل ثابت وتصدر الصحيفة كشعار ، ثم يلي ذلك العناوين ويراهنا دائما حمراء ، فاقعة ، والمقتطفات التالية تنتمى إلى عدة أيام .

« عناوين »

فشل البحث عن سمير .. ضاع سمير .

— إيقاف عمليات البحث ..

— الأعداء يتجمعون .

— توحيد قوات الأعداء تحت قيادة واحدة .

— حسن أنور يعلن .. انتقامى مروع .

— حسن أنور يصرح .. قبلت المنازلة ..

— القتال أصبح وشيكا ..

— الشيخ عطية يقود عمليات الهجوم .

— معارك متفرقة بين الأهالى .

« مقتطفات من بعض المقالات الافتتاحية »

« بات واضحا انضمام سمير إلى جانب أعداء أبيه . لم يتضح على وجه الدقة أى جانب انحاز إليه ؟ هل اختار الإلتحاق بسيد بك أبو المعاطى . أم قوات عبد العظيم الجواهري ؟ . أم انضم إلى القيادة العامة حيث الشيخ عطية ، إن الزعيم يواجه موقفا مأساويا يندر حدوثه ، الابن ييوج للأعداء بأسرار والده ، ربما قائد الهجوم الرئيسى ، إن الأمر يصبح بشعا لو جهل منها الآخر . أى لو التقى الزعيم عرضا فى شبابه المبكر بأمرأة وانجبت ابنا شب بعيدا عنه ثم جعلته الظروف أحد قواد الأعداء . حارب والده وهولا يدرى . إذن أى بشاعة يمكن تصورها فى وضعها الحالى وكلاهما يعرف الآخر ، لكن ما نود تأكيده أن الزعيم لن يراجع . لقد احتمل متاعب كثيرة ، وشقاء لا نهاية له ، سيعلو على جراحاته . حانت اللحظة المرتقبة منذ سنوات » .

ومن نتائج هذا التحليل أن سيد أبو المعاطى قام خلال السنين الماضية بتدبير هجوم بارد ، اعتمد أسلوب الضربات غير المباشرة . التقطعة . بهدف الحد من قدرة الزعيم على الحلم والأمل ، استند فى هجموه إلى عوامل خفية وأخرى معلنة ، ينتمى إلى الأولى ظروف عائلة الزعيم وعدم تمكنه من الحصول على مؤهل جامعى ، وإحلامه من أجل العالم ، أما الثانية فكثيرة ، احتمل الزعيم ما تعرض له . حتى الإزعاجات التى سببها له زملاؤه فى العمل حملة نفس المؤهل المتوسط . أمثال الجواهري الذى تمكن بأساليب ملتوية من الحصول على مكتب يخطيه لوح زجاج . ثم استقل بغرفة ، ثم جهاز تليفون ، وساعى خصص للوقوف ببوابه ، وعندما طلب الزعيم تركيب تليفون فى البيت تأخر بحجة قلة المخطوط ، بالطبع يحتفى سيد أبو المعاطى وراء مثل هذا التصرف . لقد تفاصى الزعيم عن

كل المعارك الصغيرة الجانبية ، وجه طاقاته كلها لخوض معركة أشمل ، أن يخلق
من حسان طبييا .. وسفير مهندسا ..

قام الشيخ بتجميع كافة ما دبر خلال ازمان مختلفة ، وجه ضربة بارعة ،
وهنا نسجل شهادة الزعيم بقوة الضربة وبراعتها ، إن هروب سمير جاء نتيجة
عمل عسكري رفيع . وهنا تجدر الإشارة إلى شجاعة الزعيم وقدرته على مواجهة
أشد الحقائق ابلاما بموضوعة . إنه يولى اهتماما لتقاليد القتال ، تلك التقاليد
التي أهدرها أعداؤه . لكن مهيا بلقمت ضراوتهم فإن قوى الزعيم متعاظمة
وحصيلته العسكرية لا حصر لها . وله قول مشهور ، مادام القائد قد قرر القتال
فلا عذره اطلاقا إذا لم يحارب جيدا . سيجد وراءه ذخيرة من المعارك . اذن
يجب عليه أن يحارب ويفوز ..

« مقتطفات من احاديث أجريت معه . آخرها قبل بدء المعارك

بساعات .. »

« الحرب بغيضة وكريهة ، وطالما استمرت فهذا دليل على أن الإنسان لم
يصبح انسانا بعد ، لكنها ضرورة عندما لا نجد وسيلة الا دفع الشرور والآثام ، او
دفع الحرب بالحرب .. »

« تمنيت طول حياتي أن اعيش بين حلفاء ، يمينوني وأعينهم . لكنني
أكتشف الآن أن عمري منذ ولادتي سلسلة معارك . أدق المواقف الخاصة بمعارك
فيها كل المقومات التي تنطبق على أشمل معارك القتال ، شراء شيء ما معركة
صغيرة . يحاول البائع أن يربح أكثر ، وتحاول دفع أقل . ليس هذا صراعا بين
ارادتين مختلفتين ، شروعك التعرف إلى امرأة ما معركة تحاول النفاذ إلى قلبها ،

عند بدء العلاقة واستمرارها نجد كلا من الطرفين يحاول السيطرة على الآخر .
الرجل السياسي يقضى عمره كله في أوهام غريبة يلخصها أحيانا في كسبه
موقعها ، تتضمن حياتهم مئات المعارك الضئيلة بالنسبة لشمول الهدف العام .
ويظن الهدف نسيبا ..

« اننى لا أقصد إلغاء الصراع . أردت تقديم البرهان على أن الحياة
سلسلة معارك ، الصراع ضد الموت أخطرها ، صحيح أن الموت ينتصر على
الإنسان الفرد ، لكن الانسانية تفهده ، غير اننى بعد الانتهاء من حروبي سأشأن
قتالا لا هوادة فيه ضد الموت .. »

« سأنازل ما لم تشن ضده الحروب من قبل . سأهاجم الشر ، سأسحق
المرض ، سيقع الحث اسيرا لن اطلقه قط ، سأقتال الفقر أين وجد . تلك أهداف
حروبي . »

« بالعكس سأجيبك .. إن جراحى عميقة والجراح الفائرة تنزف دائما
في صمت . »

« خبر »

تم تجهيز كافة معدات القتال الخاصة بالزعيم ، لقد أمده رأس الفجعة
رئيس أحد الدول الصديقة بثياب عسكرية كاملة ، وعتاد ، وموّن ، وسوف يتم
اعداد زى خاص بالاستعراضات التي ستقام عشية النصر النهائي ، تم تجهيز
مكتبة ميدانية تضم السير والملاحم والخطط ، وتم اعداد مجموعة دقيقة من الخرائط
الفردية لميدان القتال الممتد من الزعفراني ليشمل مواقع مختلفة وسنين عديدة .
كما تم اعداد المتظار الكبير كاشف ما وراء الحجب ..

ما قبل المعارك .

توقف طويلا أمام المرأة . لا بد أن تشعر قواته بهيته . معاونوه القرييون منه أو جنود الخنادق الأولى . سيتناقضون فيما بينهم أوصافه وضرقت تفكيره . وتفسيرات وجهه في اللحظات السابقة على اتخاذ القرار . المظهر العام هام جدا خاصة أن قواته تضم خلاصة المحاربين ، الآن يتفرغ تماما لخوض المعارك الحاسمة . قطع صلاته بكافة ما أوثقه سنينا طويلة ، انقطع عن الذهاب إلى المصلحة ، انتهى زمن الارتجاف من سيد بك وخطب وده ، يروح ويحيى داخل مسكنه ، تقبع امراته أقصى الصالة . لا تنفوه بحروف ، الليلة الماضية طلب منها تحديد موقفها ، إما الاستمرار معه كرفيقة عمر وتعضيده في لحظات الشدة ، تشد أزره خاصة عندما يأوى إلى جوارها في ساعات الهدوء الليلية . في مثل هذه الاوقات يظهر ضعف القائد الانساني . عليها الاحتفاظ بأدق ما يقول واحتمال تصرفاته ، وأما أنها ليست مؤهلة لهذا الدور فتفارقة عنده إلى بيت أبيها ولحق بامرأتها الخائن ، إنه قوي الشكيمة ويمكنه مواجهة لحظات وحدته بمفرده . لكنه تمنى في أعماقه ألا ترحل عنه . يحتاجها بلا شك ، أحنت رأسها وبكت بكاء مريرا ، قالت إنها لن تتخلى عنه ، اقتسموا العمر الجميل معا ، فهل ستجرحه لحظات الشدة ؟ تأثر حتى أوشك على البكاء . لكنه بذخر دموعه لمواقف أشد ابلاما . أعنى القادة لا يكون لحظة تدمير جيوشهم ، لكنهم سيكون كاطفال في مواجهة موقف إنساني بسيط . رأى فيها المرأة الصلبة الوقية ، تقدم منها . شد قامته ، رفع يده محييا . سيد كرفى يومياته الخاصة أنه أدى التحية العسكرية لأمراته لحظة قرارها البقاء معه . لا بد من تدوين الأحداث الصغيرة التي تشكل في مجموعتها حياته الخاصة ، ستصبح يوما مادة ثرية يستوحى منها الفنانون أعماهم ، ستبقى أضواء على شخصيته عندما يتناولها الباحثون والمؤرخون ، قالت أمراته إن حياتها ظلت هادئة وما يجري الآن في البيت يشبه حلما ثقيل ، لقد

ظلمها الزمن في كل شيء ، كل شيء ، ربت كظفها ، قال إنها ستسى عندما يدوقان حلاوة النصر ، إنه يقدر موقفها هذا بعدها يمنحها وساما تساليا بمجرد انتهاء الحرب . وأن تحتل موقفها إلى جواره فوق منصة العرض بعد النصر . لم يفه حسان بكلمة . عندما يراه تنذب الرقة ، و يترقق الحزن ، لكنه لا يشق باقرب الخلق إليه ، لا يشق بأراته حتى . يعيد النظر مرات في الرأي الواحد قبل تنفيذه ، حتى أمراته لا يؤننها ثقة كاملة . من يدري ، ربما وجهت إليه ضربة خفية ، يذكر الآن ، والمرأة لوطالت عشرينا ، حتى لا يتكرر ما حدث من سمي أسند إلى ابنه مسؤولية مباشرة تضعه باستمرار في موقف الحساب أمام والده ، سيعلمه بالتصيب قبل اشتعال المعارك ، كتب سطورا قليلة . أول أمر من أوامره اليومية التي سيوجهها إلى ولده ووحداته . بعد لحظات قام واقفا ، حذاؤه ينم ، والحزام الجلدي المربص المحيط بخصره ، الأوسمة تغطي صدره . هذه الأوسمة سببت له حيرة ، هل يرتديها كلها شأن كثير من القادة ، أم يعلن رفعها ؟ فضل تثبيتها كلها ، رؤيتها ستبعث الثقة في نفوس رجاله ، على مهل غير الصالة . خرج إلى الشرفة متأبطا عصا قصيرة ، يحيط عنقه بشرط مثنى بدلي من نهايته منظار ميداني . إن أرق الأفكار التي تمر بأذهان أمثاله في مثل هذه اللحظات تظل مجهولة ، صممت ثقيل يحيم على الزعفراني ، النوافذ مغلقة . البلاط يلمع تحت اشعة الشمس . موسيقى بعيدة . تتوالى عليه الصور ، تبدو وملامح موسيقى القرب الشجية . تذكره بأعياد بعيدة ، طفولة نائية تبدو الآن حصنا مباركا أما أصوات أبوينه صممت عليه طلائع أعنى وأقوى منعولا . طلائع مائة للاكيدار ، تنفسي الرعب ، الغفر ، للأسف يبلى مفعولا مع مضى السنين . تعلق موسيقى القرب ، حادة ، غارفوها بمخادون الشرفة الآن ، يتبعهم حلة الأعلام . أعلام الجيش والفرق والكتائب ، غابة من الأعلام متعددة الألوان تخفق أمامه الآن ، صراعه الدموي من أجل هذه البياض على حصون الأعداء ، أعلام القواد الذين استدعاهم من بطون السنين لقيادة جيهاته ، نيبال ، جنكيزخان ، يوليوس

قيصر ، لوكولوس ، كراسيوس ، فون مولتكه ، سيدى احمد ابدوى ، دوق
ولسجيتون ، خالد بن الوليد ، نابليون ، كوزوتوف ، بسمارك ، فريدريك الأكبر ،
روميل ، جورنيج ، عنتره بن شداد وسيف بن ذى يزن ، أبوزيد الحلالي ، عباقرة
النزال ، بعضهم تقاتلوا حتى أفنى كل منهم الآخر ، ها هو يجمعهم فى إطار
واحد ، يستطيع رؤية ملاحظتهم ، يعرف ما يتميز به كل منهم ، يعلم جيداً فى أى
المجالات سيتم استغلال طاقات إبداعه ، يرفع يده بالتحية حتى يتم مرورهم ، تخلو
الزعفرانى لحظات ، تملو موسيقى نخيلة شاحبة ، أعداد هائلة من مشاة المظلومين
عل مدى الدهور . يحملون كافة الأسلحة بدءاً من المقارع والدروع والسيوف
والرماح حتى الصواريخ والمجنزرات ، إن أياما شاقة تنتظره ، ولحظات حرجية ،
وظروفاً وعرة . إنه يرى أيضاً أياماً يحتفل فيها الناس بنشوة النصر ، سيدخل مدناً لم
يرها من قبل ، يشرف على بحار زرقاء تموج بالأمان .

أمر رقم (١) :

يعين حسان حسن أنور ، رئيساً عاماً لأركان القوات . ويتسلم مهام
منصبه . اعتباراً من لحظة اشتعال المعارك . . .

أمر رقم (٢) :

يتم تشكيل هيئة قيادة مشتركة لتنسيق أعمال القوات على النحو
التالى :

فيلد مارشال روميل ، قائد الفيلق الأفريقى فى الزمان القديم . وقائد
القوات الصحراوية حالياً .

أنيلا ، زعيم الهون فى الزمان القديم . وقائد القوات الانتقامية حالياً ،
ينصم عليه بلقب فيلد مارشال .

الجنرال هملر ، قائد الجسأبوفى الزمان القديم . مدير المخابرات حالياً .

أول الصدام :

شاهد الظروف أن يبدأ القتال بأسرع مما قدره ، إذ جاء حسان رئيس
الأركان العامة إلى مقر القيادة وسلم الزعيم خطاباً شديداً باللهجة وقعه سيد أبو
المعاطى ، صيغ باللهجة بديئة ، تجاهل القاب الزعيم ورتبه وخاطبه بإسمه مكتفياً
بوضع كلمة السيد : وصفه متهماً بأنه موظف فى الدرجة الرابعة . أنذره بإحالة
الأوراق إلى الشؤون القانونية بسبب ما وصفه بالغبى بدون إذن ، إنقض
واقفاً ، كيف قبل حسان استلام مثل هذا الإنذار ؟ أبدى حسان تردداً ،
إرتعشت أطرافه « بابا . . » صاح الزعيم معبراً عن رغبته فى رؤية ابنه على
أحسن حال ، سيحدد نفسه منه الآن مشرفاً على أكفأ رجال الحروب ، لن يتعامل
مع نابليون وفون مولتكه وروميل إنما سيرسم لهم الخطط ، إنه المسؤول عن إدارة
الحرب . طلب منه التوجه إلى مقر الأركان ، ألا يخلق فيه هكذا ، وتوجيه
جورنيج لشن هجمات مركزة شاملة بالطائرات انفاضة ، استدار متجهاً إلى
الشرق ، امرأته لا تجرؤ على المشى وراه . يفكر فى إسناد بعض المهام اليها ،
كأن يجعلها الشرقية العليا على لجنة تصميم الجراح الدفينة ، أو رئيسة مداواة
الأحزان العميقة ، يجب ألا تقتضى الوقت فى رثاء إنها الخائن . سيخسم المسألة
بقرار يصدره اليوم ، أما الآن فيجب الطيران فوق مسرح العمليات ، ثمة ضباب
كثيف يغطى المناطق الشمالية الزعفرانية ، المنظار يكشف له عن تحركات
بطيئة ، وأقدام متقلبة . وعجلات ، يبارق ، مواطنين يرتدون ملابس القتال ،
يحملون الحقائب ، والدوسيات ، يحكون جاكيتهم ، بعضهم يرشف فتاحين
القهوة ، يلقي أعقاب السجائر . يلمح ابتسامات وإنحاءات ، أحذية لامعة ،
وأشخاصاً يخطون أوراقاً ، وسعاة ينحنون ، ومساعد تفتح بسرعة ، ومكالمس

تسقط أبسطه، صوراً في إطارات مذهبة، ولوحات تليقونية، رنين تليفونات، سوداء، حمراء، تليفونات بأقراص، تليفونات مصمتة، أفواه تنطق «آوو»، أسلاكاً تهتز، يذير المنظار، يسد الرؤية، يخشى سيد بك داخل خندق عميق من الظروف، يستند إلى حوادث حياة بعيدة، أعمال الالتحاق بالجامعة، طريق الوصول إلى وظيفة محترمة. إلى مناداة الآخرين له «يا حسن بك» الآمال البديلة، سنين العمر الحافلة بلهفة الحصول على علاوة جنبه ونصف. سيد أبو المعاطى يقود الجبهة للسدودة إلى أحلامه، يعاونه عبد العظيم الجواهري، خائن آخر. الشيخ عطية يقود الجبهة الرئيسية لتقويض الحياة بين فيها، الغبار تقبل، يستدير جانباً، كل حركة من يديه أو إشارة من رأسه تترجم فوراً إلى واقع عملي زاهر، تلك الاستدارة البطيئة تعني رغبته في استدعاء مدير المحادثات، يحيى الجنرال هملر، يحمل ملفاً يضم آخر التقارير الواردة عن أحوال الأعداء، يلوح في تعبيرات وجهه ملامح العرفان الجميل، الزعيم أسند إليه وظيفة مدير المحادثات بعد سنوات البطالة القاسية التي عاناها منذ اختفاء هتلر، أمر أيضاً بإطلاق يده للبحث عنه هتلر. بمجرد العثور عليه سيعينه مستشاراً أعلى لشؤون القوات، وسيشارك معه للارشال زوكوف، هكذا وفق بين عناصر التاريخ. طلب من الجنرال هملر الاطلاع على موقف قوات سيد أبو المعاطى، بسط الجنرال ملفه السري، استند الزعيم يديه إلى حافة النضدة.

«بعد أن أرسل سيد أبو المعاطى إنذاره الأخير، تنفيذ تقارير عملنا أن جيوشه بدأت التحرك. ومن المتوقع أن تأتي الضربة الرئيسية من إدارة المستخدمين المدعومة بالشؤون القانونية والتحقيقات».

«وبالنسبة لجبهة الشيخ عطية؟»

«لعدة ثلاثة أيام ساد هدوء. وفجأة قامت جيوشه بإصدار بيان مركز

يدعوفيه إلى إنهاء جميع المشاجرات الدائرة والاستسلام فوراً، وأمر بتوجه عدة من الأهالي إلى مقره لتلقى التعاليم. وبالفعل مضى إليه الصول سلام، عقد معه اجتماعاً دام سبع ساعات، وسوف تحاول محاورتنا التفاوض إلى ما دار فيه بعد اعتمادكم النفقات اللازمة لتطوير الأسلحة الحديثة، بعد الاجتماع الثاني أعلن عويس المتحدث العسكري والناطق بلسان الشيخ عطية، أنه يجب على عاطف ورأس القجلة، وقرقر، والنداطوري، التوجه إلى منزل الصول لعقد أولى الجلسات الاستشرافية. ستم الساعة الواحدة من ظهر الغد بعد توزيع وجبة الغداء».

«وموقف قواتنا الآن؟»

يقوم فيلد مارشال رميل بالتناف واسع النطاق حول خبيث عبد العظيم الجواهري، يعاونه فيلد مارشال جنكيزخان، أما عن نتائج هجمة سيد أبو المعاطى فلم تسفر إلا عن بعض مشاعر الخوف اعتبرها مدرجة تحت بند الحسادر.

«أطلب تقريراً كل ساعة زمنية».

أدى الجنرال هملر التحية العسكرية، بعد لحظات زعق الزعيم منادياً رئيس الأركان، يحيى ابنه جامد الوجه، مد إليه ورقة صغيرة تحوى سطوراً صريحة بسوء المهجوم الفوري ضد جبهة سيد أبو المعاطى، ومحاولة تجميد الوضع على جبهة الشيخ عطية..

«التعاليم»

محاولة للحصول على بعض المواد اللازمة لتحقيق صحفى :

فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً ، خرج قرقر للموسيقار متوجهاً إلى مبنى الدائرى ليلتقى بمحمدى الصحفى ، وصل إليه أن من بين المترددين على النقيب صحفياً شاباً يحاول الالتقاء بأحد رجال الحارة منذ يومين لكنه لم ينجح ، قرقر يقدم نفسه قائلاً إنه موسيقار وعازف قانون وزعفرانى ، يبدى حمدى الصحفى حماساً .. يصفق بيديه لكن قرقر تنهه قائلاً إنه ضيف وهو مدعو ، يقدم حمدى غلبة سحائره ، يعتذر قرقر لأنه لا يدخن ، يقطب حمدى حاجبيه ، يقول إن الاسم ليس غريباً عنه ، يبذل محاولة للتذكر ، يخرج قرقر ورقة من حافظة جلدية سوداء ، الورقة بيضاء تتوسطها قصاصة من مجلة فنية قديمة ، خبر نشر عنه سنة ١٩٥٢ ، « ويشترك فى إحياء الحفل سيد قرقر أشهر عازف القانون فى أوساط العوالم » ، يد يده بعدد من مجلة الاثنين تسرب لون القدم الأصفر إلى أورقه ، يقلب الصفحات بسرعة ، يتوقف عند باب « أخبار سريعة » ، يشير بأصبعه إلى سطور قليلة فى منتصف العمود الأول ، النص الكامل للخبر ، يهز حمدى رأسه ، يخرج قرقر صورة فوتوغرافية قديمة ، يسكها حذراً بأطراف أصابعه ، عبد الحليم حافظ فى سنين شهرته الأولى ، حوله عدد من الرجال ، يبدو فى الصف الثانى وجه مبتسم ، قرقر شخصياً ، يقول حمدى إن كثيراً من المواهب الأصلية لم تلق حظها وابتعدت عن الأضواء ، تبدو البدايات مشجعة لقرقر ، حلم طويلاً أن يلتقى بصحفى ، يسمع عزفه ، يدرك موهبته الحقيقية ، لم يفارقه الأمل طوال سنوات عديدة قضاه فوق منصات الأفراح ، يعزف للعوالم والرقصات فى الحواري ، فوق أسطح العمارات ، فى قرى ريفية نائية ، ها هى ذى الفرصة أخيراً ، يلتقى وجهها لوجه بصحفى شاب ، يخاف الاقتراب من إحدى الدور الصحفية ، من يعرفه هناك ، ثم من يشحس له ؟ بقى ضائعاً بين أفراد التخت ، لا فرق بينه وبين

الطبايا أو عازف الناي أو الرق ، بل كثيراً ما حاز انطبال اهتمام الناس لما يأتبه من حركات أثناء مصاحبة الراقصة . لم يعل صوت عزفه منفرداً أبداً ، لم يعرف صحفياً ، أو شخصاً بأحدهم ، حتى لو تم هذا فهل لديه الإمكانيات ، يسمع عن انصار يف الطائفة والولائم الدسمة التى تنفق على الصحفيين ، بمضى الزمن ازداد اقتناعاً أن كبار الفنانين يحاربون ظهوره ، مجرد حصوله على فرصة كقبل يرحل عنهم عن مواقعهم التى يحتلونها خلف أشهر المطربات ، مع إنه أحق منهم بالشهرة ، من ضحى فى سبيل الفن مثله ؟ لم يتزوج ولم ينجب ولداً ، لومرض سيموت جوعاً ، يركب الدرجة الثالثة سعياً وراء أحياء أفراح فى مختلف أنحاء البلاد . يركب مع زملائه مختلف أنواع المواصلات حتى يصلون إلى قرية لا يلقون فيها ترحيباً ، أما الكبار فيسافرون إلى البلاد العربية ويستدعيهم الملوك بالظائرات إلى قصور الملوك ، بعضهم حاربه صراحة ، لكن الجميع يسدون أمامه الطريق بعلاقاتهم مع المسؤولين فى الصحف والإذاعة ، ها هى ذى الفرصة ، ما يحدث الآن بديل لصائب الزعفرانى بالنسبة له ، يقول إن عمره ضاع من أجل الفن ، ضحى بكل شيء لإمتاع الناس لكنهم حرموه فرصة ، يقاطعة حمدى قائلاً إن الأول جاء لفرض الحقيقى من الزائف ، يعلم تماماً ما يجرى فى الحياة الفنية وما يسودها من قيم ، يتساءل متعجباً ، لماذا لا يحتل موسيقار موهوب مثل قرقر مكانه ؟ يشون قرقر إنه يتفرد بطريقة عزف معينة وهم يعلمون لذلك يقاومونه حتى لا يصل . ألف بعض المقطوعات التى تلعب فيها آلة القانون دوراً رئيسياً ، يقول حمدى إنه يتمتع سماع بعضها ، يصيح قرقر متحمساً ليدعوه إلى مسكنه المشايع ، بطرق حمدى الصحفى فجأة ، يتساءل عن حقيقة ما يشاع حول الخسارة ، يقول إنه مستعد للذهاب بكل سرور فاكشاف فنان عظيم لا يتم كل يوم لكن يقال إن أى رجل يظأ الحارة يتحول إلى امرأة ، يعتذر عن كلماته الأخيرة لكن المدينة تحدث ، والجهات العليا تمنع نشر الخبر لظروف معينة ، ان هبوطاً يبدأ داخل قرقر ، هل سينخلى عنه من أجل حوادث الزعفرانى ؟ فجأة يسأل

حمدي الصحفي ، هل قال قرقر إنه لم يتزوج ؟ يعود الحماس إلى قرقر والضياء
يلتمع في عينيه المتعبتين ، يضحك بهدوء ، يقول إن حياته تزدحم بعشرات
الأحداث التي تصلح مادة كتاب وليس تحقيقاً صحفياً فقط . فعلا لم يتزوج ،
يتساهل حمدي باختصار . لم ؟ اهتمامه المفاجيء بزواج قرقر جاء نتيجة عوامل
متباينة ، لم يرغب في اظهار نفسه مهتما بما يجري في الحارة فقط . لا يريد أن يخسر
الرجل الذي قبيل الحديث معه أخيراً بعدما لاقاه من رفض الأهالي ، أما الأمر
الثاني فهو ورود طيف امرأته ، يود لو قام منصرفاً ، ستعاوده الرغبة في الجلوس
بعد شروعه في القيام . جاء بدافع ذاتي لجمع المعلومات عن الأحوال الزعفرانية ،
عندما أبلغ طالب الصحافة الذي يتمرن في الجريدة رئيس التحرير بما يجري ،
عقد اجتماعاً مع قسم التحقيقات وطلب منهم اعتبار الموضوع شديد السرية حتى
لا يتسرب إلى الصحف المنافسة ، قال إنه من الضروري استغلال هذه الحادثة
الغريبة لرفع التوزيع ، من المحتمل ألا توافق الرقابة لما يتضمنه الموضوع من
حساسية ، لكن من الضروري إعداد التحقيقات حتى تحين اللحظات المناسبة
للنشر ، كلف اثنين هما عباس وخالد للذهاب إلى الحارة الحالية من الرجال ،
لكنها عابداً في المساء ، قالوا إن الحال مختلف عن الصورة التي عرضها رئيس
التحرير ، الظاهرة الزعفرانية معروفة تماماً ، أي رجل يطأ الحارة يصبح عينياً
والأمر يتعلق بسحر غامض ، عرض عليها رئيس التحرير مكافأة مجزية رفضاً ،
في الصباح التالي علم حمدي بما جرى ، أبدى استعداده للذهاب إلى الحى
القديم ، اتفق على تفرغه لهذا الموضوع ، وعدم تحديد وقت معين لاكماله بشرط
تقديمه التحقيقات المطلوبة عند تقرير النشر ، تعهد رئيس التحرير بتقديم كافة
أنواع العلاج لو لحقت ضرر ، لم يدر حمدي ما الذي دفعه لاختيار هذه التجربة ؟
زملاؤه سيسخرون منه ، سيقولون ، ليس لديه ما يتفقه ، منذ ستة شهور ذهب إلى
بعض أصدقائه ليطالب منهم الشهادة على وثيقة طلاقه . أبدى بعضهم دهشة ،
زواجه لم يمس عليه إلا أربعة شهور ، ما السبب ؟ أمر لا يصدق ، لابد من اتاحة

أكثر من فرصة حتى يتم التأكد من استحالة العلاقة ، قال وثقب يتسع في قلبه
إنها اتفقا ، قال زملاؤه إن حبها ظل سنوات الدراسة ناراً لا تنطفئ ، حتى ضرب
بها المثل ، أنه هذا النوع من الردود . يذكر حياة بأكملها ولدت لحظة لقائهما
بالجامعة ، البدايات المترددة ، المتأنية ، ثم التصاعد السريع المشوب الحار ، جرفاً
كل العقبات ، تهديدات أبيها بقطع مصاريف إقامتها ، مشيها المسافات
الطويلة ، تدبيرها قروشاً قليلة لدفع ثمن كوي عصير ليمون ، حتى تجميعها
الجنيئات للبحث عن شقة صغيرة . دخلها جمليات ، بحثها عما يناسب المسكن
الصغير ، بهجة عينها عند عودتها من السوق بعد أن اشترت شيئاً يلزم البيت ،
عندما أتم التجار صنع دولاب الثياب أشارت مرحلة إلى الرفوف الداخلية ، هذا
مكان قصباتك ، خرجا إلى المدينة ، توسد ذراعه أثناء مشيها ، وعندما عرجا في
طريق جانبي قريب من النيل تظلل الأشجار شبت على أصابع قدميها ، قبلتة
قالت إنها تشدني المدينة التي تراقبها باستمرار ، عناقها له قبل خروجها إلى
العمل ، أحاطها جسده بذراعيها ، استلقاء عينها واتساعها في ضوء الغرفة
الناعس ، سلام ما بعد الارتواء ، تسرب جسدها إلى جسده ، كيف يستمر الحب ،
سبع سنوات كاملة حتى ينتهى بزواج ، ثم ينتهى الزواج بعد أربعة شهور ، ما
السبب ؟ لم يستطع الإجابة ، في البيت حاول ادراك العلة . قالت إن حياتها لن
تستمر لأنها تريد أن تسافر ، أن ترى الدنيا ، أن تنطلق لتسهم في تغير العالم ،
لن تنحول إلى معدة طعام ومربية أطفال ومنتظرة لعودته الليلة ، اكتشفت هذا
بعد شهر من الزواج ، قاومت فكرة الانفصال كثيراً ، لكنها ستحيل أيامه جحماً ،
وإذا لم يوافق فستحاول السفر ، ستطوف العالم ، حمدي عالم بقوة إرادتها ، لم يبد
إنفعالاً ، اعتاد أفكارها المفاجئة ثم عدوها ، حاورها ، ناقشها ، أبدت إصراراً
عقياً ، قالت إنها تعزه جداً ، وتحترمه ، وفي اعتقادها أنه سيجد الكثيرات ، العالم
واسع ومزدحم ، كما التقيا سيلتقي بغيرها ، لم يبد غضباً إنما راح ينتظر انتهاء
الفكرة العارضة ، تذكر أنه أحب فيها مشاريعها المفاجئة ، حماسها المفاجيء

للاشياء ، حتى تبدو لحظة حماسها اليها مستعدة بتضحية عمرها ، ثم تكتشف بعد قليل خطأها أو اندفاعها أو تبدل رأيها ، في عصر يوم خريفى شعر كأن يدا أمسكت عموده الفقرى وسحبته بعيداً ، نظر إليها فكأنه يتأملها أول مرة . كأنه لم يعاشرها ، لم يفساجعها ، لم ينتقيا أشياء بينهما الصغير ، لم يتخيلا معا طفلها المرتقب ، حول عينيه إلى الستائر ، فيما بعد تسأل بدھشة ، هل مشيت شهوت أمامه بقميص النوم فى البيت ؟ أو شك أن يسمع تمزق حبال اتصالها ، فى أصفار الضوء النهارى التعب أدرك ان ما استمر بينهما انتهى ، المقاومة مستحيلة ، المحادلة لا جدوى منها ، اجتاز تلك اللحظات التى لا يبادل فيها الحبيب حبيبه نظرات البود ، التى لا يحرص فيها على مشاعر الآخر ، شئ داخله ينتزع و يلتقى بعيداً ، ففكر بأسى ، لكم يتغير الإنسان ، لم تعد شهوت نخصه ، انفصلت عن دنياء ، فى نفس الليلة عبر المصالة وطرق باب الغرفة التى آوت إليها مبتعدة عنه ، قالت « نعم » ، خرجت إليه ، أو شك على الانبيار عندما رأى حضورها الذى أحبه . تسأول عينها الحلوى ، قال إنه سينفذ رغبته ، قالت « شكراً » ، عاد إلى غرفته مهجوراً ، خرباً ، فى اليوم التالى سأله أصدقاؤه ، ما السبب ؟ لم يستطع الرد ، ذهب إلى بعض أهالى بلدته قالوا إن ابغض شئ عند الله الطلاق ، السواء تهتز عند حدوثه ، سأله ، ما السبب ؟ أثناء مشيه وسط المدينة تذكر متجراً يمتلكه أحد زملاء الدراسة الثانوية ، استرجعاً ذكريات الزمن القديم ، قال صاحبه إنه يتابع ما يكتبه ويفخر به ويحرص على أن يقرأه ، ثم أصغى الزميل القديم بدھشة وتسأل عن ضرورة ذلك ، قال حمدى إنها متفقان ، حاذر ألا تتسرب دموعه ، قال الزميل القديم إنه سيأتى ومعه أخوه ، ثم تحديد موعد ، استأجرا عربة تسع لأربعة ركاب ، جنس حمدى وشهوت فى المقعد الخلفى ، الشاهدان فى المكان الأمامى ، من النافذة رأى متاجر رجال مرور ، راكبي دراجات بخارية يتجاوزون بسرعتهم التاكسى ، باعة فل ، أهل أحدهم ولوح بعقد ، حار حمدى ، ولت وجهها بعيداً ، عندما وصل التاكسى إلى مكتب

النادون أصغر الزميل على دفع الأجرة . جلسوا على دكة خشبية مستطيلة فى مواجهة ثلاثة رجال يرتدون الزى الريفى ، أغطية رؤوسهم من اللباد ملفوفة بشبلا ن بنية اللون ، علقوا لوحة تحمل كلمات خطت ببراعة ، « يقضى بالله يقضى » ، ساد الصمت لحظات ، ركزت شهوت نظراتها على النوحة ، فوجيء بنفسه ببتسم . ثم يضحك ، ضحكت شهوت ، حاول الإمساك بنبرات صوتها ليستعيد لها بين الحين والحين ، أيضاً ضحكها ، تنسم بعينها وشفتيها وألفها وقبها ، تنمو وكأنها لن تنتهى ، ضحكة باقية أبداً ، نظر الشاهدان بدھشة ، بعد انتهاء الإجراءات قام حمدى إلى قلة مظلة يكوب زجاجى . شرب حتى النظرة الأخيرة . جلس ، رأى الكوب فى غير موضعه ، قام مرة أخرى ، أعاد إلى مكانه ، قالت شهوت إنه مازال يشرب الماء بكثرة ، أعادت إليه الألفاظ اهتمامها بأشياءه الصغرى ، لم يجرؤ توبيعه على وثيقة الطلاق ، لكن اهتمامها المفاجئ به أو شك أن يقصفه بتيار أسى لا راد له ، قالت إنها ستقيم معه الأيام القليلة المتبقية فى عصر حتى تتم إجراءات سفرها . لوضايقه وجودها مستذهب إلى ملهى صاحبتها ، قال إنها لن تضايقه ، لوضح العكس يمكنه مغادرة البيت ، فوجيء بتحديثها عن الرخيل ، لم يسألها التفاصيل ؟ لم تعد جزءا منه ، نرى متى اكتملت فكرة السفر فى ذهابها ؟ أين موقع المحطة من أيامها الماضية ؟ تذكر حوارا جرى بينهما منذ أيام بعد العشاء ، قال إنه لا يحب مضغ اللسان ، قالت إنها تكره من يأكل " البسطيخ " بصوت عال ، فى الصباح خرجا معا ، عند عبورهما الطريق أمسكت يده ، فكر ، أنها تدبغنى بركة ، عندما تحرك قطار المثلوثات رقم ١١٩ ، أنه يعمل قطاعا متكامل من حياته ، الركاب والمحصل لا يملكون شيئا ، أقسى ما مر به خلال الأيام التالية رؤيتها تعد أوراقها ، الباسور ، أجازتها ، أوراقا لا يعلم عنها شيئا ، عندما لمع بطاقة التطعيم الصفراء تطل منها كرة طائرة مستطيلة عكسته الجهمامة ، انفصلت عن حياته كمرحلة أخيرة ، من صاروخ تاه ولم يتخذ مداره بعد ، يرقبها كميت احتفظ بوعيه فراح يتابع إجراءات دفنه ، كلما سمع

حركتها اللبلة يرى نفسه في مدينة أقام بها زمناً طويلاً وفجأة أجبر على الرحيل ،
 راح وجاء داخل حجرته ، لا يستطيع الجلوس ، لا يرقد ، لا يقف ، لا يخرج ، لا
 يطبق الذهاب إلى الجريدة ، في منتصف الليل طرق بابها ، لم يدركها النعاس
 بعد ، « أدخل » دفع الباب قليلاً ، بدا الليل والشتاء موحشين وكأنها الأيام
 الأولى من خلق الدنيا حيث لا يدب إنسان ولا يسعى حيوان ولا يزحف قمل ،
 طال صمته ، قالت مسأله يخوف « ماذا تريد » ؟ رجاها ألا تتركه ، بدا
 الصمت ثقيلاً كالوحدة فوق قم الجبال ، أو التيه في عرض البحر ، أو هبوط
 اضطراري في صحراء مجهولة . لم ترد . لم تقل حرفاً ، انسحب إلى غرفته يتيا .
 أول ليلة قضاه وحيداً حدث نفسه بصوت عال ، الهزيمة ، يجب أن يتماسك حتى
 يلتمس بقاياه ، أهدأ ما دفعه إلى قبول المهمة الصعبة والحصار بحكم والأسرفاء
 والجراح رخوة ، هل أخطأ عندما أحب حاسها المفاجيء ، إصرارها على تحقيق ما
 تشق فيه ، هذا الإصرار الذي دمر وخرب وأباد .

إنه يعود من رحيله البعيد ، ينتبه إلى قرقر الذي يواصل حديثه ، رجا أثر
 الاستمرار حتى لا يخرج ، قرقر يتحدث عن المرأة التي أحبا ، عزفه وراءها في
 جميع الأفراح التي أحبتا ، سنوات طويلة يتبعها أينما ذهبت . لا تولى عواطفه
 اهتماماً ، تعمدت دائماً الحديث عن عشاقها أمامه . تجلس آخر الليل تدخن
 الشيعة ، ترقب تعبيرات وجهه إذ يفتح الحجرات ، قال قرقر إنها لن تعوض ولن
 يخلق مثلها (فكر حدى باسى ، إن كل رجل يرى في حبيبته شيئاً لا يعوض » ،
 قال قرقر إنها عاشت ليومها فقط ، لم تجهد نفسها في الجري وراء إنسان ، لم تفكر
 في الغد ، كل يوم تبدو وكأنها تعيش آخر أيامها . تضحك أشد الضحك ، إذا
 بككت تبك وكأنها آخر ما تمارسه ، كأنها تنزود لسنوات مقبلة ، قالت دائماً إنها لن
 تحب ، لو أحبت ستنهى ، ستموت إذا هجرها الحبيب ، في أوقات إبتعاده عنها

يذهب إلى زملاته ، يبدأ الحديث ، يطرق أى موضوع وفجأة تنطرق إلى ذكرها .
 ربما غنسى بعض أبحاثه لها ، وأخبرهم عن شيء بها ، شيئاً فشيئاً يتحدث عن
 عواطفه تجاهها ، يذكر سؤالاً وجه إليه مرات ، هل تحب سكر ؟ يطرق ، قال له
 المعلم صبحى عازف العود المشهور إن مثل هذا الحب يعطله عن الفن ، قال قرقر
 إن معظم الفنانين عاشوا تجارب فاشلة ، رد المعلم صبحى ، ليس في كل
 الأحوال ، والا أنظر إلى عبد الوهاب وملاحقه النساء له ، ينظر الآن إلى حدى ،
 يقول إن المرأة تهوى الرجل الذى يجرى وراءها ، لو يعلم امرأة تحبه ولا يبادلها
 نفس المشاعر فلن يطبق اقترابها منه . لكن المرأة عكس ذلك ، تحب الاحتفاظ
 بالموهبين بينما تبذل مشاعرها لشخص مختلف تماماً .

يبشم حدى ساهما ، تساءل صامتاً ، « هل بدا ضعيفاً » ؟ بالعكس ،
 عاطفتها بدت متوهجة دائماً ، ما أبدته من رقة ، اهتمامها به ، قال لها إن عواطفه
 تعبر عن نفسها في صمت ، لهذا لا تنزعج إذا رأته مقلاً في النفاذ
 الحب ، أسرع بضمه ، قالت إنها تود الشعور بقربه ، متى تبادل هذه
 الكلمات ؟ قبل رحيلها بشهر ، قبل الطلاق بعشرين يوماً ؟ .

يسأل حدى الآن ، هل يمكن لعاطفة من طرف واحد أن تعيش سنوات
 طويلة ؟ يهز قرقر رأسه ، لشدة ما أحدثته سكر من آلام أصبحت أمراً يعتاده في
 حياته ، يتفق زمن كامل ، يكشف صوراً أوشكت على الإندثار ، وروائع كاد
 ينساها ، أشواقاً غامضة لا يدري طبيعتها . بعد سنوات من صحبة سكر بدأ يرى
 فيها أكثر من المرأة ، كل شيء يتصل بها ، حتى ما تسببه من ضيق إعتاده ، أحب
 حقاءها معه ، صدها إذا تودد إليها ، أليس تشدها نتيجة لعلمها بعواطفه ، ما من
 خاطرة لديه إلا مصبوغة بظلال سكر ، كيف يجيب هذا الصحفي الذى يبدو
 متعجباً من استمرار حبه زمناً .

جا كشته قصيرة ، جوريه ممزق ، لم يعد يرتدى الجلابب الأبيض ، رق جلد عنقه
وتجعد ، أما الأستاذ الزهوري فرحل إلى الجزائر وطنه الأصلي ، يجيء بعض
السماصرة إلى الداظوري بصحبون الزبائن ، يتخلى أحياناً عن صسته ، يسأل
الزبون عن عمله واسمه وعائلته ، ويخرج توتة زرقاء يضم أوراقها باستك رقيق ،
يزنعه ، يدون بالقلم الكوبيا بعض البيانات ، يطلب من الزبون المرور عليه بعد
سنة شهر . يرفض أى نقود تعرض عليه بحجة أنه لن يتقاضى ملياً كخلو ،
تفككت حلقات كثيرة أحاطت حياته ، لن يغلق المقهى حتى ولو أصبح جليسه
الوحيد ، حتى لو رحل محمد الجرسون فى أثر زفلة واضطر إلى إعداد الشيشة بنفسه ،
واجه ضغطاً من جيرانه لكنه قال إنه لا يستطيع منع أى زبون ، ولن يغلق المقهى
إلا إذا أمر الشيخ عطية ، ألا يكفى أنه يغلق المقهى أول الليل حتى لا يتخلف
عن ميعاد العشاء والنوم ، والدخان أيضاً تغير ، أين عصر التباك الأصلي ، أنواع
مختلفة ، عجمى وأزميرلى وعدنى وتركى وهندى ، لا يوجد الآن إلا زبالة
التباك ، فى الزمن الرائق البعيد لم يزد سعر الأوقية عن ثلاثة قروش ، تقارب
الجنيه الآن ، يذكر سنوات عمله جرسوناً فى مقهى عكاشة الكبير ، عاش سنيناً
يأمل امتلاك مقهى ، وعندما تحقق حلمه اختلف الزبائن والسهر لم يعد له طعم ،
لكم اعتنى بمقهاه ، طلاء كل عام بالزيت ، علق به لوحات زينة باعها له
طالب فنون جميلة ، المقهى مجمع الموم والأشواق ، إنه يطيل تأمل الأفندى
الشاب الجالس إلى قرقر ، يألوه ، هذه الألفة ليس من السهل على صاحب
المقهى الشعور بها بسرعة تجاه زبون بعينه ، يحتاج غوها إلى زمن ، الزبائن الدائمون
يعرفهم و يوليهم اهتماماً خاصاً ، مظاهر بسيطة لكنها ترضيهم ، تشعرهم بتميزهم
عن الزبائن العابرين ، مثلاً عندما يرى الجرسون أحدهم قادماً يزعم « شيشة يا
جدع للأسطى أحمد ، أو شاي يا جدع للمعلم فرج » ، عندما يحضر القهوة يجيء
معها بكوب ماء به قطمة ثلج صغيرة ، إنه يعتبر هذا الأفندى من الزبائن الدائمين
برغم ترده على المقهى منذ يومين ، ربما لسماحته وأدبه والوسط الطيب الذى

ينتمى إليه . عرف اسمه ومهنته من محمد الجرسون ، لم يتعجل الاطلاع على
الغرض من مجيئه ، سيعرف كل شيء فى حينه . غرباء كثيرون ترددوا على
المقهى خلال الأسبوع الأخير . بعضهم تسبب فى متاعب كالقوادين ،
والبعض الآخر سأل بشكل عام عن الحارة ، لم يرههم مرة أخرى . صباح اليوم
جاءه شرطى من هيئة الأمن المخصوص . قال إن اسمه ثابت عبد الجابر وينتمى
إلى قسم مكافحة الأفكار الهدامة ، وجه أسئلة عديدة حول رواية السياسى ،
طلب معرفة تحركاته فى الحارة ودوره فى الأحداث الأخيرة . وقال إن القسم
يتخذ الاجراءات الكافية بالقضاء على جميع أنواع المشاكل الموجودة والتي يرجح
أن سببها رواية السياسى ، لم يجبه الداظوري إلا بالفاظ محدودة . لا علاقة له
برواية ، بدأ الرطى متعجلاً ، انصرف بعد أن حذر الداظوري من ذكر أى شيء
عن زيارته أو الحوار الذى دار بينهما ، بعد حوالي ساعة جاء شاب يرتدى الملابس
المدنية أيضاً ، سأل الداظوري ، « هل أنت زعفرانى ؟ » رد محمد الجرسون
بالإيجاب ، ابتعد قليلاً بمقعده وقال إنه ينتمى إلى هيئة الأمن المخصوص ، قسم
مكافحة التعصب الدينى ، استفسر عن نادر سيني الهجرسى المشهور بلولى ،
سأل عن أصدقائه والمترددين عليه ، والمظاهر التى تدل على نشاطه السرى ،
وعلاقته بالشيخ ، وقال إن دوره فى أحداث الحارة غير خاف على قسم مكافحة
التعصب ، وأن المواطنين الشرفاء أرسلوا خطابات عديدة يحذرون من نشاطه .
قال الداظوري إن علاقته وأهليه بشباب الزعفرانى ، انصرف الضابط بعد أن
طلب الانتباه إلى تحركات نادر افجهرسى الشهير بلولى حتى يمكن نجاح
الاجراءات التى يتخذها القسم لمكافحة المصيبة الزعفرانية .

ينسببه الداظوري إلى قرقر ، بصوت عال يقول قرقر إنه يسره جداً تقدمه
الأستاذ الصحفي المشهور حمدى إلى المعلم ، يقوم الداظوري متثاقلاً ، يسمع حمدى
تردد الهواء فى صدره ، تحركه كلفه جهداً . يقول قرقر إن المعلم أشد الناس أصالة

في الحى كله ، لم نحل مشكلة صغيرة أو كبيرة إلا بفضل جهوده ، يحب الخير للجميع ، أحد الذين آمنوا بوجهته وشجعوه ، فأتى رجل يسأله الصبح في إحياء فريح إلا ويشير عليه باصطحاب قرقر ، حتى وقت قريب تولى إيقاظ الناس في الفجر والذهاب على رأسهم إلى مسجد الحسين لأداء الصلاة ، لكن الصحة لم تعد تساعد ، رفع قرقر يديه إلى السماء طالبا من الله إضفاء كل صفة وعافية على المعلم . بنمت دخان الشيشة ، كلمات قرقر تلقى صدى طيبا في قلبه ، يأخذه التأثر . يقول قرقر إن الأستاذ حمدى من أشرف الصحفيين ، صاحب قلم نظيف ، لم يرتبط بمصلحة أو يتقيد بشخص ، يقول حمدى إن قرقر يبلغ قليلا . ما هو إلا سماع وراء الحقيقة ، والحقيقة يمكن أن توجد في صاحب موهبة أصيلة كالأستاذ قرقر أو حادث يجرى في مكان ما . يقوم قرقر ، يتدفق الدم إلى رأسه . يشير إلى حمدى ، لم ير إنسانا أشرف منه ، عاش حياة فاسية لكن لأمل لم يفارقه أبدا في عهى إنسان شريف يقدمه إلى الناس ، يحلو الحقيقة ، حتى لو مات فسيحىء من يقدر أعماله ، لكنه حسن الحظ إذ جاء الأستاذ حمدى قبل رحيله عن الدنيا ، يجلس منفصلا ، يرى جموعا كثيرة تصفق لعزفه ، تتردد التعنقات ، أين دفنت هذه السهوية ؟ الدنيا بخير طالما ظهرت أخيرا . ينحن للجمهور ، يقصر على صعود الأستاذ حمدى إلى جواره ، يحتاجه حزن رهيف ، لكم يود لو شهدت سكر نجاحه ، سيوزر هانى اليوم التالى ويهديها راديو تراترستور في منفاها الأبدى . تسمعه فتبكي أيامها التى لم تعشها معه ، تكتب الغلات الفنية عن حبه العظيم ، إنه ينتظر بود وشعور صادق بالعرفان للأستاذ حمدى وكأن كل ما تخيله حدث فعلا . يسأل حمدى ، منذ كم من السنوات يعيش الداطورى فى الزعفرانى ؟ ترتجف عينا المعلم ، ينظر قرقر متأهبا للرد ، لكن الأستاذ حمدى يشير إليه بما معناه أنه يريد سماع المعلم نفسه ، يجيب الداطورى أنه لا يذكر ، يقول حمدى إنه يود لو رأى هذا السبت لكن ظروف الحارة تقف حائلا ، عموما يستريح إلى المنهر ، الصلاة الداخلية والخمدان المعطاة برأيا ضخمة والعصور الزيتية تبرز سكنتها

الخاصة ، يشير قرقر إلى الأستاذ حمدى ، انظر كيف بقدر الفنى ؟ يقول حمدى إنه يمشى الحى القديم ، يسكت فجأة ، رأى شهرة تتأبط ذراعه ، يشيان إلى السور القديم ، يصعدان السلالم الحجرية العريضة المرتفعة ، بدت متوتبة ، ترى أن تعرف كل شيء ، من صاحب المكان ، من بناء ، من جده . صاحبت أنظر ، أشارت إلى أحجار الجدار حيث تنوارى فى الظلال كتابة هيروغليفية ، لابد أنهم هدموا بعض الآثار القرعونية واستخدموا حجارتها فى بناء الحصن ، نظرا من الفتحة الضيقة إلى الساحة الواسعة ، عربات يد ومارة ، لم يتابعها الخارس ، أصبحا بفردهما ، تملكته رغبة فى احتوائها فتلامست أطراف أصابعهما ، امتزجت أنفاسهما . تحسسته بشفتيه الجريشتين ، مررت يدها فوق ظهره برفق ، عندما خرجا إلى الضوء تمددت فى جسديهما سعادة كما تمتد البناء الأثرى فى الزمان ، آثار نشوتها ضائعة الآن ، لو صعد فى هذا الشارع عشرات الأمطار فسيمكنه تحديد المكان الذى احتواهما ، ينظر إليه الداطورى ، نظرة ثقيلة ، بطيئة ، قرقر ساكت ربما يستفسران عن صمته المفاجئ ، يقول حمدى إنه يتضمن الإقامة فى الحى ، يأمل تحقيق رقبته على يدى العلم ، سمع عن عمارته ، بنيت الداطورى دخانا كشيفا ، بطرق الأفندى ، سيرة لا يملها ، يتخلى عن صمته وجوده . سيقم العمارة بإذن الله ، عديدة من العقبات تسبب فى تأخيرها ، منها عدم ثقته بهؤلاء المهندسين مصممى المباني الحديثة ، يريد تصميمها فيه راحة الزمن الحلو ، الغرف متسعة ، الصالات بها نافورات صغيرة ، الشرييات بدلا من النوافذ ، لن يعيا بتكاليف ، لا بد أن تبقي العمارة بعد وفاته كعلامة فى الحى ، عمارة الداطورى ، يريد عدائلات محترمة تحفظ المبنى لكن ما جرى فى الزعفرانى أضاف عقبة أخرى . يشوق . ينتظر بادرة حماس من حمدى بعد ذكره الزعفرانى وأحداثها ، عدم اهتمام الأفندى الصحفى خيب ظنه ، فى نفس الوقت زاد شعور الألفة تجاهه . يقول قرقر إن ما جرى أن يؤثر على مشروعات الأهالى ، وكما قال الشيخ فى خيلوته الأخيرة البعض إنه لم يقصد ضررا ، ما يحيل للبعض أنه أذى ، مجرد وقفة

شاملة يتم بعدها ترتيب أوضاع الإنسان إلى الأبد . ماتم وسيلة إلى غاية . يقول الداطوري ، لم تتضح الغاية بعد لكن يكفي أن الشيخ قال ما قاله . يتدخل حمدي مستائلاً ، ألم يجد الشيخ وسيلة إلى غايته الاتعجيز الخلق ؟ ينظر الداطوري إلى قرقر ، يدرك حمدي إن دفاعه . يستعيد لهجة الداطوري . يبدو مدافعاً عن الشيخ . أهذه لهجة تتناسب مع عجزه ، خطر له سؤال قرقر عن نشاطه الفني خلال الأيام الأخيرة : أربحاً تساؤله إلى فرصة أخرى . يود التعرف إليها أكثر . يقرر العودة إلى الحديث عن عمارة الداطوري ، أخبره قرقر أن مفتاح الحديث مع المعلم هو الكلام حول العمارة ، لا يملك الداطوري تكاليفها أو الأرض التي سيقمها عليها لكنه يحلم بها منذ سنين ، يحار حمدي . كيف يعيد الحديث إلى العمارة ؟ سيأل عن رخصة البناء . هل حصل عليها أولاً ؟ لكن قرقر يقوم وأفقاً . يتجه إلى شاب طويل يرتدي حلة كاملة ، يحيه « هذا زمن الفرار » . يصبح بحماس شديد ، « الأستاذ عاطف خير بيع الجامعة أحد السكان المحترمين الذين يقدرون الفن ويطربون لسماع النغم » . يمد حمدي يده مصافحاً « حمدي رشوان . محب للحي القديم أولاً ، وصحفي بجريدة اليوم ثانياً » . .

« بعض من مذكرة رفعت الى رئيس هيئة الأمن الخاص »

من قسم مكافحة التعصب الديني ..

ومما دعم تقديراتنا تلك الخطابات التي وصلتنا عن نشاط المدعوفادر بسببوني الهجرسي الشهير « لولي » . وأخذ هذه الخطابات أرسله والد المذكور . هذا ما أثبتته تحرياتنا لأن الوالد لم يوقعه ، وجارية محاولة الاتصال به ، وللعلم فهو غير قديم عمل بالشرطة السرية ، ولا بد أن التزامه القديم بالعمل ، وإخلاصه لواجبه دفعه إلى التبليغ عن نشاط ابنه ، وتدل كل القرائن على المسؤولية المباشرة الواقعة على عاتق المذكور . ومن خلال التعاليم التي استطعنا رصدتها يمكن ملاحظة بعض أفكار الهجرسي والتعصب ، والتحرى ضد نظام الدولة والمجتمع ، وتجدر الإشارة إلى أن جميع هذه المعلومات تم بصعوبة بالغة ، وفيها يلي بعض الخطوط العريضة التي تضمنتها أفكار الشيخ والتي أفضى بها إلى عدد من أهالي الزعفراني — بينهم المذكور .

« طلب الشيخ من المجتمعين به أن يعوا تماماً بدء تغير الأحوال ، ويجب أن يسعدوا الآن زمانهم ميشهد التعطف الحاسم ، ظهر موعود البشر بعد احتجاج عضور كثيفة خلف ستار العزة ، بعد اتصافه بكلمات لا تخصي ، صبر لا يوصف لما رآه وسمعه ، سيكشف منابع الزلازل ويرفع الأرصاد والاغلال ، ما هو إلا حرف من كتاب عظيم وقطرة من بحر لا ساحل له . اشتغل طول حياته بالإنسان ، أفنى عمره في تأمل العالم ، ما مضى ومضى وسيبقى ، عمره الاشتياق إلى رؤية بني الإنسان يتعاونون ، أما الآن فما هو ذا زمن الاتفاق ، إنه يرصد تبض العالم ويرى أياماً آتية لا ريب فيها ، يسمع منها أغاني الحية

ترتفع في مجامع الأحياء . ينفذ إلى مستقبل سعيد بالبصر الحديد ، مستقبل لا يعد به فالإنسان منذ خلق يعيش وعندما يتحقق ، مستقبل يحققه .

قال إنه منع المشاجرات تمهيداً لاجتثاث الحروب ، يصبح الإنسان متسامحاً مع أخيه ، بعد ترتيب أوضاع البشر تحتفي العداوات . تصبح المحبة حقيقية والشفقة حقيقية . بدلاً من المشاجرات يعرف كل إنسان الكمالات المودعة فيه وفي الآخرين . خلق الإنسان غنياً ، ماذا يفقر ؟ خلق عزيزاً . كيف يستذل ؟ عجن من طين الحب ، كيف يعض ؟ تزل من الرحم ممثلاً . كيف يجوع في الدنيا ؟

فكر طويلاً في الوسيلة . بعد اجتهد طويلاً . ومعاونة علوية . قرآن يحرم البشر إلى حين من الثمر . في البدء فكر في حرمانه من الخبز ، لكنه سبهلك وينقض بنيانه . أفضل وضع ارتأه حرمانه من الثمر . يعرف أن الإنسان العقيم كالشجر الأجرد ومثل هذه الأشجار تلين للنار . لكنه أعطى العطاء إلى حين مقدراً . صدمة توقف الإنسان ونقل كثيراً عما لحقه من صدمات البغض والاقتتال . بعدها يطيعه الناس . إذا لم تحدث الطاعة مستثمر الفن والقلاقل ، يخاصم الناس بعضهم بعضاً . يستعملون جزءاً كبيراً من قوتهم لدحض مجهودات الآخرين من إخوانهم بدلاً من العمل جنباً إلى جنب لإزالة الأوجاع المروية والمستوردة ، يكفى ما ضاع منذ خلق العالم في التناحر والخلاف . بعد الصدمة نتوحد أحوال البشر أجمعين في البداية . ثم تتغير الأحوال تغيراً جماعياً ، كلياً ، يصبح العالم كله أوراق شجرة واحدة ، حبات عقد متساوية . مصابيح ثربا ، وغزلان مرعى واحد .

قال إن العالم كله سيسمع صوت الحقيقة ، ستحدث كافة الأجهزة

التي تشغل صوت الإنسان وصوته ، وتنقل كافة المواصلات الجوية والبحرية والبحرية والبحرية « .

هذا ما وصلنا عقب جلسته الأخيرة إلى المختارين من أهالي الحارة . وتردد في الحسى القديم عقب الخلوة أن الطلسم سيلحق كافة العاملين بالإذاعة والتليفزيون ، ووسائل الاتصالات ، تمهيداً لانتشار أفكاره . كما اختار شخصاً من الحارة اسمه الصول سلام وأطلق عليه المُنذر الأول ، وفي أقوال أخرى ، رسول الميثاق رقم (١) .

العالم يتساقط :

يقول رواية السياسي إنه سجن أربعة عشر عاماً من أجل القضية . عشرة منها متصلة . بدأت عام ١٩٥٤ . وانتهت عام ١٩٦٤ . بخلاف سجنه الأخير . يردد حسان ، عشرة أعوام متصلة ؟ بعكس وجهه دهشة ، وتأمل ، ومحاولة بآسة لتجسيد هذه الفترة من حياة إنسان ، كم بلغ عمره عام ١٩٥٥ ؟ ، شهر ٩ ! دخل ومائة السجن وهو طفل يرضع وخرج منه وحسان ينتقل إلى الثانية لإعدادية . ١٩٦٤ عرف طريقه إلى مكتبة المدرسة . إلى الشيخ تهاى بائع الكتب القديمة . يفضي إليه بعد خروجه من المدرسة . يدفع خمسة مليمات . يجلس فوق الرصيف ، يتفكر قلبه مع أرسين لو بين إذ يهاجم خصومه شاهراً سلاحه ، يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء . توهج خياله بمغامرات اللص الشريف . رأى نفسه مرتدياً حلة سوداء وقناعاً ، يمس يده في جيبه ، يأخذ الخلى والمجوهرات ، يوزعها على زبونة العازبة ، البستان وامراته لطيفة ، يعطيها أجرة السفر حتى يلحقاً بانها . يمس تحت وسادة أبيه مبلغاً . يدفع عنه حيرة الأيام الأخيرة من الشهر . يعطى كل فقير

حول الحسين جنبها كاملاً . لكم ندو هذه الأيام حيلي بالأمانى . مع نوالى
السنين أصيب الخيال بضمور ، يوماً بعد يوم يتنازل الانسان عن أحد أعلامه حتى
يتنازل عن الحياة نفسها ، يذكر مشاعره عام ١٩٦٤ ، يسخر منها الآن ، بعد عشر
سنوات هل سيسخر من أفكاره الآن ؟ لكن ما الذى فعلته هذه السنوات الطوال
برماتة . هل مازالت لديه القدرة على الحلم ؟ يقول حسان إنه لا يستطيع تصور
نفسه محبوباً لمدة أسبوع واحد . يضحك رمانة ، برغم طول المدة يذكر بعض هذه
الأيام وكأنها ذكريات جميلة . لا حدود لقدرة الانسان على التكيف . بصمت
رمانة ، يبدو السكون حاداً يتعجب حسان . تستلئ الحارة عادة بصياح الأطفال
فى مثل هذا الوقت . حديث النساء عبر الشرفات ، يتذكر استمرار الهدوء منذ
أيام ، يقول رمانة إن ما يخشاه بالنسبة للحارة ، يرجع إلى قدرة الانسان على
احتمال ظروف شديدة . ما يجرى محير وعجيب . خارج عن المنطق ، غير محكوم
بأى قانون . يواجه الزعفرانيون قوتهم نسيبة و يعيشون على أمل فك هذا الطلسم
وانتهاء تلك الصدمة كما يسميها البعض . كل يوم تسرى اشاعة بقرار الشيخ رفع
الطلسم عن عدد معين لكن لا يحدث . يذكره هذا باشاعات الافراج فى
العقل . اعتاد المعتقلون تربيدها . يصل الأمر فى بعض الأحيان إلى تحديد اسماء
المفرج عنهم ويحددون التاريخ . تسمى الأيام ولا يحدث الافراج ، تسكت
الاشاعات فجأة لتعود من جديد ، يكذبون ويصدقون أنفسهم . تشد هذه
الاشاعات فى الاعياد والمناسبات ، كمولد النبى وعيد الثورة وعيد الأم . هذا ما
يجرى الآن فى الزعفرانى . يرقب حسان رمانة متأثراً . يحتفظ عقله بفكرة ثابتة ،
هذا الرجل قضى أربعة عشر عاماً فى السجون . يبدو مقابل لفظ السجن كهو
مظلمة . زنازين لا يمكن للانسان أن يقف فيها . أيام بلا نهاية وكلاب متوحشة .
حراس غلاظ القلوب . يقول حسان إن بعض الذين ارتفعت أصواتهم باحتجاج
هدأوا الآن وأولهم الشكرلى الذى يفضي غموضاً على تصرفاته . ثمة ملاحظة
أخرى ، خلال الأيام الأولى حرص كل رجل على الانحاء بأنه المستثنى من

الطلسم . لكنهم الآن يخفون ضعفهم . خوف الناس يتضاعف خشية أن يقضى
الشيخ بعض أسرارهم ، يتساءلون ، كيف توصل إليها ؟ يتعجب رمانة . هل نسى
الزعفرانيون أنهم مصدر كل ما يعرفه الشيخ عنهم ، إنه بعيد ما قالوه عندما لجأوا
إليه لحل مشاكلهم . عجيب حسان ، انه قضى سبع سنوات محتجاً لا يقابل أحداً
من الخلق ، يقول رمانة إن ما جرى فى الحارة خلال السنوات الماضية غامض
جداً بالنسبة له . يفكر حسان ، رمانة واحد من الذين يحاولون تغيير العالم . اعتقل
وعمره ثمانية وعشرين . خرج وعمره ثمانية وثلاثين ، ثم اعتقل من جديد . الآن
بلا أطفال . أوغد مأمون . بعد اللقاء الأول أدرك حسان أنه أمام رجل صارخ
الحياة . عمل رمانة فى بداية حياته مجلداً للكتب . ثم جرسونا فى مفهى تملكه
والدته التى ماتت أثناء وجوده فى السجن . لكم ود حسان أن يصمد والده أيام
المصيبة . لكن والده احتمل الكثير برفض البوح بتعابه ، وعلق آماله على ولديه .
رأى فى نجاحها راحته ، لهذا جاء هروب سمير كأنهيار الأساس الذى شيد فوقه
منزل من طابقين ، أبوه آيل للسقوط ، تزحم حلقه غصة إذ يتذكر والده حتى فى
ساعات نومه لا يتخلع الحذاء . كثيراً ما يقف متصلياً فى صالة البيت ، إذا حاول
حسان أو والدته الحديث إليه زعق فيها أمراً إياهما بالسكوت واتاحة الفرصة له
حتى يتلقى تقرير إبراهيم باشا قائد الخيالة ، أو يصفى إلى متاعب روميل ،
عندئذ يأوى حسان إلى غرفته باكياً . ما هوذا يرى أباه فى وضع طالما يسمعه
كحكايات عن آخرين ، أن يراه مطلقاً على والده فهذا مؤلم . يوقن حسان بوجود
صلة بين أحوال أبيه وما يجرى للزعفرانى ، يسأل رمانة عن الكلية التى ينوى
دخولها ؟ ، يرى حسان والده فى لحظات الصفاء يوم عطلة الجمعة بعد عودته من
الصلاة فى مسجد الحسين ، يقول إنه قرأ الفاتحة على أرواح الموتى وتوجه بالدعاء
راجياً من الله قبول دعائه حتى يحصل حسان على مجموع كبير ويدخل الطب .
يسأل رمانة ، ماذا يعرف حسان عن الاشتراكية ؟ يقول إنه قرأ كتباً عن
الاشتراكية ، وأن أحد الأساتذة فى المدرسة حدثهم طويلاً عن سنوات ثلاث

قصاها في بلد اشتراكي ، يقول إن قراءته متاثرة لا يربطها منهج . في البداية تحمس بشكل صياني ، لا يذكر القبط متى قرأ أن الاشتراكية تحقق العدالة . منذ هذه اللحظة بدت شيئاً غامضاً موجوداً في مكان ما ، راح يتحسس لها في أحاديثه حتى حذره أحد المدرسين ، لم يتضح في ذهنه الطريق الصعب للوصول إلى العدالة وقتئذ ، لم يدر شيئاً عما جرى من اعتقالات عام ١٩٥٩ ، لم يتم الثامنة في هذا الزمن ، يذكر أنه حصل على عيدينته وخرج إلى ميدان الحسين . جذب انتباهه كتاب لامع الغلاف ، « البؤساء لفكتور هوجو » ، غاديه إلى البيت . قال أبوه إن الكتاب صعب ولا بد من وصوله إلى الجامعة حتى يفهم ما فيه . أشده منه ، لكنه لاحظ قياً بعد أن والده يعرض الكتاب على أحد أقرانهم وسمعه يقول في المساء الهادي « انظر .. ماذا يقرأ ابني ؟ » يذكر حتى الآن سطوراً من البؤساء .

سقطت بوجهي إلى الثرى وداعاً رفقي إلى اللتى

يقول رمانه إن الأشياء الأولى لا تضيع من ذاكرة الانسان ، الفرح والوفاء . قضى أياماً عديدة في السجن . لكن اليوم الأول في عقله بكل تفاصيله ، حتى ليوشك أن يرى الآن مشرة الخبز الذي يقوم بوظيفة السجن في معتقل المباحث و يرى موضع زرار ناقص يظن أنه الثاني من أسفل ، يسكت رمانه لحظة ، يقول إنه سيحاول العثور على بعض الكتب ليقرأها حسان « انه ليس مثقفاً بما فيه الكفاية . غلب على عمله السياسي عنصر الحركة لكنه يعرف بعض الكتب الأساسية التي لا غنى عنها » يقول حسان إن هذا سيساعده على بلورة العديد من أفكاره . ينظر رمانه عبر نافذة بيوت الحارة عليله . اعتادت الزعفراني الصمت منذ أن أصبحت تعاليم الشيخ تمتع الشجار واقعاً محسوساً . يذكر الواقعة القرية لوالد حسان ، يسأل . هل عمل الوالد بالجيش ؟ . يهز حسان رأسه نقياً ، لا يرغب في الحديث . يسكت رمانه أيضاً ، في البداية تمنى حسان اتصال

الحديث بينها . لكن لا يمكن الاستمرار في موضوع واحد بين الزعفرانيين إلا وعند إلى ما يجري . أسئلة عديدة تطفئ على ذهنه . اكتشف رواية الطلمس ما رآه في الحل ؟ هل يؤثر الوضع عليه ؟ ما رآه في أقوال الشيخ من المساواة ؟ إن استعارات مشابهة تشغل رمانه ، تناولاً في حديثها قضايا عديدة لكنه تمس حنا أوصاعها الشخصية في ظل الظواهر الخاصة التي تمر بالزعفراني . حسان لا يحسني الحديث في هذا الموضوع ، لكنه يفتق إذ يذكره أحد أباه خاصة أن أحواله تتخذ الآن شكلاً مزعجاً . حدث صباح اليوم أن تسلي صبيان إلى سطح البيت مواجه لها . أفلتنا من رواية هائلتها . بهذا يشير إلى والده ، يصيح بلهجة منعمة « العيب أه .. أه .. » صاح إن العدو يشن حملات نكسة جارية بالإذاعة . قدفه صبي بحجر صاح متادياً أنه رئيس الأركان . قال إن محاولة جرت لاغتياله بواسطة وحدة مدرية ، زعن . إن الثغرات لم يحكم إغلاقها . طلب مدير المخابرات . أوما حسان برأسه واستدار لكن والده جذبه . صفعه بقوة . قال إنه لابد من أداء التحية العسكرية عند الانصراف . هذا التسبب هو السبب فيما يلاقيه هانيان الآن من صعوبات في إخفاء حركة قواته عبر الجزء الجنوبي من الزعفراني . طاب لونه بالانضباط مظهراً وجوهاً . يحزن أوما حسان . رفع يده بتحية عسكرية . عند الباب وقفت أمه تسكن صامتة . همت « يا حسان بيتنا » ، سألته ، إلى أين سيمضي ؟ قال إنه سيطلع إلى سطح البيت المقابل ويمنع العينية من قذائف والده بالظلم . هل يلجأ إلى عويس راحياً منه إلاخ الشيخ بمخالفات العينية . حتى الآن يرفض الاعتراف بالطلمس رغم سر مان مفعوله عليه . رغم ذلك ربما اضطر إلى اللجوء إليه باعتباره مصدر القوة والسيطرة الآن في الحارة . لم يجد الصبي . أطل من فوق السطح ، رآها يقفان في الحارة يشيران إلى الخضراء الواقفة في الشرفة ، لول إليها مسرعاً . لم يجدها . ذهت حجل . لم يعتد دخول بيوت الآخرين في الحارة ويجري الآن مفارقة العينية .

غالب ضيقه وأدى التحية العسكرية لولده . قدم التقرير المطلوب منه ومضمونه
إتمام الإجهاد على فرق الاعتقال .

ننظر وفاءه إلى حسنة ، يرى سنينته الأولى وعمله في المطبعة تحت إمرة
عاهل اسكندرانى اسمه بدر ، تعلم منه التجديد والسياسة . كيف يطبع منشور ؟
كيف يهرب من المراقبة ؟ كان عفياً . لم تلحقه اضطرابات العمل السياسى . لم
يتفلس في الخلافات ولم يناقش زميلاً له يعتقد نفس الأفكار لكنها تختلف في
وجهة النظر لدرجة العداء الشديد . بحيث يبدو عداء كل منها للآخر أشد وعورة
من عدائهما المرجعية والمستغلين . وقتئذ لم تحركه إلا الحماس والرغبة في عبث
المجهول ، اقتلاع الظروف القديمة من أساسها . بدأ العصف فسيحاً والواقع يسمح
بالتشخيص ، في السجى وهنت الآمال ، أحيال الفكر في استعصاء العالم وثباته
وضالة الإنسان بالنسبة إلى أهداف الأشمل . لكنه يذكر الآن هذا العجز الذى
مات عن تسعين عاماً في المعتقل . شارك في تأسيس الحزب الأول عام ١٩٢١ .
وأخلص القضية حتى مات في معتقل الواحات . يستعيد الآن جنازته المهيبة .
جثمانه الملقوف في بطانية حمراء يتخللها شريط أسود من الطرف إلى الطرف .
الطبايير الجذائزى . وقفة رجال الحرس الذين لم تستطع ملابسهم الرسمية طمس
ملاحقهم البريكية وتساوهم إلى القرن والنجوع . بل كثر ما والذى يفود ثماتالة
مليون من البشر ، يقارب اثنين . لكن ما أقل البشر الذين رأوا حتى ما كافحوا
من أجله بغيرهم . هناك من يجب بعد الناس عن بعضهم البعض ، يوجب
الخلافات الدامية سباً وأكتمها . يدفع الرميل إلى الشك في زهيد . أهم مرض
تشير جرثومة لا تقدر على العيش إلا في جو معتدل صيفاً ، معتدل شتاء كحصر .
إنه ينظر إلى حسنة . يقول لا ينبغ الفرصة لأفكاره أن تنعكس على عتبه
حتى لا يفسدها الشاب البقظ النحس . منه خروج والهم يدب في كل
شئ حتى ما جرى في الزعفرانى ، كأنه نتيجة لسنوات الخلاف والتناحر وعده

الوحدة وضياع الهدف . إنه يستدير إلى حسنة . تهرب غيثاه . لم يحب طفلاً .
لكنه يشعر تجاه الفتى بشاعر شئ أشمل بكثير من الأبوة ، تراوده راحة خفية .
الآن أمامه من سيواصل الاندفاع بحسنة القديم ، ستحدث منه إلى زمامته
الأمر بل . سيقول هم إلى القضية متجددة . وما أقموه من العمر لم يضع هدراً .
منها اعترض على حل الحرب لم يفكر في وجود فتيلك جاءوا إلى الدنيا . يعرفون
ما عوقبه في البدايات . و يوماً يسيرون بداهة الخالي من العطب . إن الفعل لا
يدركه . هل يوقف حسنة تساقط العالم ؟

- ٥٥ -

نقرب من أجهزة المناهضة إلى هيئة الإعلام العليا

سار يخ ٢٨ / ٣ . نشرت جريدة « نيرا فوبياز » المصارفية خبراً في
صدر الصفحة الأولى . يتحدث عن ظاهرة عربية في جامعة البلاد . وكيف
أعد أحد المشهورين طلباً مسيحياً القدرة الجنسية لرجال . وأعلن تعصبه لهذه
على العالم . وعلى الكاتب الأساسى « ساجر » « بروس دى فوج » المسم في
المناهضة تقطع منه ما يلي :

« من المثير حدوث هذا في القرن العشرين . إذا صح الأمر فيجب
الاستعداد لمواجهة عالم بلا رجال . وعلى النساء المسارعة بإرتشاف اللذة قبل أن
تصبح عزيمة المال ، ونحن لا ندرى رأى العلم في ذلك ، لكن الموضوع يثير قضايا
عديدة ، إذا أن صاحب الطلمس يقصد غايات معينة . وكما تقول الأنباء إنه يسعى
إلى تغيير الطبيعة البشرية بواسطة إحداث صدمة تمهيداً لخلق عالم خال من
الاضرابات . تتوحد حدوده ولغاته ، خال من النزاعات والأحقاد . ويقول الشيخ
إن دنيانا تضم عوالم مختلفة . وليس صحيحاً أن الجنس البشرى واحد . فهناك

جنس الأغنياء . وجنس الفقراء . جنس السود ، وجنس البيض ، الإنسان ضد الإنسان . وهذا ما يريد محوه ، أن يجعل الإنسان للإنسان ، وذلك بإيجاد الإنسانية في وضع واحد يوقفها ثم يفرض عليها ما يريد . هذا ما نقوله تلك الأخبار الغربية . وانشى أعلن منذ الآن أنني المشر الأول بالشيخ وتعاليمه لعل هذا يقينى أثر الطلسم ... »

وبعد نشر هذا التعليق كتب صحفي متخصص في الشؤون السياسية بألمانيا الغربية يدعو إلى ضرورة توجيه نداء عاجل إلى حكومتنا بفرض اتخاذ موقف حاسم . واصدار بيان رسى بضع الأمور في إطارها الحقيقي بالضغط حرصاً على الجنس البشرى . كما دعا هذا الكاتب حكومته إلى ضرورة التشاور مع الحكومات الأخرى في العالم بصدد هذا الأمر الخطير . ولا يخفى ما تتضمنه هذه الدعوة المشبوهة من إعداد للتدخل في شؤون البلاد . وسارعت الأبنواق المعادية بتزديد هذه الأنباء . ودعت السياح إلى التردد في السفر إلى بلادنا بقصد ضرب الحركة السياحية . وبالتالي تخريب مورد هام للاقتصاد الوطنى ... »

على أثر قيام بعض الصحفيين الأجانب بتوجيه أسئلة الى الناطق الرسمى حول حارة الزعفرانى بادر رئيس هيئة الاعلام إلى اصدار تصريح رسمى فيما يلى نصه .

«... دأبت بعض الصحف الأجنبية خلال الفترة الأخيرة إلى ترويع أخبار مغرضة زعمت بوقوع أحداث معينة فى حارة الزعفرانى الواقعة بالحي النديم من عاصمة البلاد . وتتضمن هذه الأخبار خرافات لا يصدها عقل متحضر فى

الربع الأخير من قرننا العشرين .. إننا نفى بشدة هذه الأخبار . ولبادر إلى القول بأن أهالى الزعفرانى يعيشون حياة عادية شأن كل أهالى العاصمة وغير العاصمة . ولا نستطيع إزاء هذه المزاعم إلا السخرية من صانعها فضلى الرأى العام العالمى .. »

الخوف من ضياع الشك .

.. فى البداية أخفى عاطف حذراً وريبة . منذ عام وأكثر لم يتعرف إلى صديق جديد . أصحابه القدامى أعاد النظر فيهم ، انتهى إلى انقطاع عنهم . لا يسعى لقاء فريد أو وجدى إلا إذا غمرته الوحدة تماماً حتى يوشك على الهلاك بمفرده . أو يحن إلى معاشية جو أسرى لمدة غابرة . بالرغم من هذا تأخذ حسرة بعد انقضاء لحظات على تواجده عند فريد وامراته . يرقب مرجحها . اسراعها إلى المطبخ . احضارها الجبلى الذى أعدته بنفسها . أو تجهيزها بعض العصير فى الخلط الذى اشتراه فريد من السوق الحرة بالطيار بعد عودته من إيطاليا فى انعام الماضى . شقة صاحبه صغيرة . أثيقة . يعرف قصة كل قطعة أثاث بها . الحياة الزوجية الرائقة تثير فى نفسه مشاعر رهيقة . ليس حسداً . ليس حقداً . لكنه يشعر بجراحه الرخوة . يرى نفسه فى موضع فريد ، رحمة مكان صفاء . يرى نفسه جالساً إلى رحمة . يتحدثان فى أمور تخصها وأشياء يحب شراؤها ، وزيارة لاهد من القيام بها . وفيلم جديد جدير بالمشاهدة . إنه يرى رحمة الآن فى مدينة أخرى . ترمق بنفس النظرات التى خصته بها أحد الذين كانوا من أقرب الناس إليه . سيفاجأ بسبيل رحمة تعرف عنه أشياء كثيرة . أدق شئونه . تعرف عدد قصائده . عنوان الترنزى الذى يفصل عنده جاكثاته . الأفلام التى يعجب بها . الأغاني التى يطرب لها . لن تقول له إنها عرفت من خلال عاطف ، أثناء

خروجها يحدثها عن نبيل صاحبه ، يحكى لها آخر مقاماته ، أفكاره ، يقول إنه اليوم فى المكان الغلاتى يفعل كذا أو كذا ، قبل أن يعرفها به حدثها عنه . عندما قدمها إليه أول مرة ملأته سعادة . جلست رحمة خجلة ، شجعها على الانطلاق فى الكلام ، أوشك أن يذمغ نائراً . صديقه الأول وحبيبة قلبه ، قام أكثر من مرة ليتصل تليفونياً ، وليدعها يفردهما ، أثناء عودته رآها . رحمة تدير كوباً بيدها ، تبادل نبيل النظر ، تأثر للغاية ، فى نهاية اللقاء أعلن عن سعادته لبده علاقة صداقة بين حبيبته وشقيق عمره وتوأم روحه ، وقال إنه حدث كل منها عن الآخر بما فيه الكفاية ، أى أن لعلاقتها جذوراً غير مرتبة ، أمسك بيدها ويده نبيل ، يذكر اللقاء الأول بكل تفاصيله كما يعنى المواقف التى رصد خلالها تطور الخيانة ، سألها عن نبيل بلهجة خاصة . قولها بعد فترة إنها التقت به وتحدثت إليه . وقوع الجفوة ، عاطف لا يشق بأحد منذ شهور . ربما هذا ما بدل انطلاقة صمتاً دائماً ، لكنه يفكر كثيراً فى حدى الصحفي ، طريقة الترحيب إلى أيدائها أعادت إليه بأسى أسلوبه عند التعرف إلى الآخرين ، الفتحاح الذى صدأ . كان يعتبر الأصدقاء امتدادات مكمله له . لكنه لاحظ أو خيل له أن ثمة افتعالا فى حدى هذا ، ربما لاشتغاله بالصحافة والذى يقتضى إبداء الود حتى يحصل على ما يريد وإن أكد المافع الشخصى لجيئه إلى الحارة ، أصغى عاطف وتمنى حظاً سعيداً له ثم أصر على المشى ، فى طريقه إلى البيت فكر فى شيوخ أمر ما يجرى ووصوله إلى الصحافة ، إن رعباً يدركه كلما تخيل استدعاه من قبل أحد رؤسائه وسؤاله عن الطلسم . هل يستطيع تجاهلهم عندئذ ؟ أحس بشيوع أمر الطلسم فى السند كبه . فى البداية حاول كى رجل زعفرانى إخفاء الأمر عن الآخر . لكن كل شيء افتضح . الأيام تمر ولا أحد يدري متى الفرج ؟ يبدو أن الأجهزة الرسمية تتابع الظواهر باهتمام . جاء رجال كثيرون غاضبون ، جمعوا معلومات ، ونسألوا ، وعلم من روض أن هذا يتأثر نفوذ سيد التكرلى ، أما على الكوجى فأوقفه أكثر من مرة مؤكداً اهتمام الهند بالموضوع ، ودعوتها لعدد من الأهالى

الزعفرانيين لإجراء فحوص هندية عليهم وشفايتهم ، يخفى عاطف ضيقاً من طول المدة المنقضية على بدء الطلسم . يزيد ضيقه عن إشاعات الحارة بقرب فك الطلسم ، بثور التخمين ، ترشح أسماء ، روض تأتى إليه فى أوقات منتظمة ، لم يعد يخشى حضور هذا ، بالطبع لاحظت الست بثينة التى تحلت وضعف بدنها دخول روض بيت أم محمد حيث يسكن عاطف الأعزب . رصدت العلاقة الوليدة ، ظنته التكر الوحيد الباقى على حاله . ذهبت إليه . عرضت عليه أن تغسل له ثيابه ، أن تعد طعامه ، قابلها بصد ، لم تستطع الرقيق إذ كفت عنه بعد تعامل الشيخ ، راحت تنقل بين النساء وتتحدث عن العلاقة المحرمة بين روض وعاطف ، قابلوها بعدم اهتمام . لم يعد أحد يصغى إليها ، ربما لانكفاء كل زعفرانى عن ما جرى له ، أولاً أصابها من هوس ، ومفادتها بيتاً ونومها فى الحارة ، تخشى لონامت داخل الشقة أن يدركها الموت . قابلها طاحون أفندى تجرى فى ميدان بيت القاضى ، بدت مرعوبة . أمسكت بثيابه ، هداها ، انتفضت كحمامة مبلولة ، قالت إنها تجرى هرباً من الموت ، لو جلست فى مكان واحد سيدركها الموت ، لم تهتم الزعفرانى بذهاب روض إلى عاطف ، وقوفها فى الشرفة معاً ، فقط لاحظ عاطف عصبية نبيلة المدرسة ، واغلاقتها مصراعى الشرفة عند ظهوره ، قالت روض إن الغيرة تنهش نبيلة ، أولاً لأنها مدرسة ، ممل منذ ست سنوات ، يقال إنها أذخرت حتى الآن مائتى جنيه ، ثانياً لدراستها الجامعية ، ثم لا تلقى استجابة من الوحيد اللائق بها ، لم تفقد الأمل حتى رأت بعينها روض وعاطف فى الشرفة فأيدت تعجبا من الأفندى الذى يتجاهل الجامعية ويجرى وراء الجاهلة المطلقة ، قالت أكثر من مرة بعد ذلك إن ما جرى للزعفرانى عدل ويستحق رجالها أكثر من ذلك ، أصغى عاطف وضم روض إليه ، استكان الجسد البض إلى ذراعيه ، شم رائحة شعرها ، ورأى منبت نهديا البراشعين ، عندما تجيء إليه تنهى أخبار الحارة ، تقتش الدولاب ، تخرج ثيابه المستحقة ، تنظف الشقة . تمسح البلاط ، يرقب الخلاء ها و بروز مقدمة ركبتيها ،

اعتبار ثوبها عن بضاعة فخذيها ، يتبع الحنايات الجسم الرائق ، تعتمد إطالة بقائنها أمامه . تكثر من حركتها ، ما يخفيه القوب من جسدها أشد ظهوراً من غيرها . تأمل قيامه فجأة ، يطرحها أرضاً فتتف بنبوة وشوق ملثاع « ضمنى ضمنى قوى » ثم تقطعه ما منحه إياها الأنوثة . تحتوية داخلها . بعد حين يقض شفتيه . الرغبة أدركها الطلسم . ضاع تاجيح الشهوة وازدهارها ثم ذبولها . في البداية أوشك أن يطردها لرغبته الغروب من عجزه . لكنه عندما أبطأ خروجه اليومي بدأ يألفها . يعتاد ما تبديه من همة ونشاط عاليتين ، حتى فوجيء بقلق غامض بسبب غيابها ذات ليلة . اعتادها . إنها تقبل عليه كتيار يبدأ حيناً ويهدر حيناً آخر ، يتصورها معه منذ ثلاث سنوات ، يروض يتفادى الحياة ، عذابات الفراق الكاوية ، يرى رحمة في الطريق كأى فتاة ، حاول تذكر كم من المرات التقيا صدفة خلال علاقتهما ؟ مرة واحدة في الطريق الرئيسى . تهلل حتى أوشك أن يحتضنها . فبست شفتيها بحذرة . لوجاءت روض قبل موعدها بثلاث سنوات لما عرفت رحمة لسبل . تبدلت المصائر ، أثناء إحدى جولاته توقف أمام المتجر ذاته ، اشترى نفس العطر ، أعطاه لروض . ارتعشت أطراف شفتيها ، رآها طفلة وأنثى وفرحة . قالت « ربنا يخليك . . . » عمرى لم يحضر لى أحد أى حاجة « ، تابعت هداياه ، حجاب ، قصان داخلية ، قبض وبنطلون لصغيرها ، بككت ، يوم أن اشتراها تقول همسى مرتعش إنها لا تريد إلا قربه ، يرى صدقها ، يلقي العزاء فى أن ما حل به يوم رجال الزعفرانى ، أحياناً تتلقى نظراتها ، وماذا بعد ؟ ، لا تترك اللحقة تتجمد ، تسارع إلى تضيئه . يستسلم لها على أمل حدوث المعجزة . لكن عبثاً ، تأمل أن تجد فيه الرجل الوحيد الباقي . لكنه يشك فى وجود مثل هذا الرجل . أين هو ؟ أهو متزوج أم أعزب ، أم طفل مازال يرضع ؟ يشك أيضاً فيما نقله الصول سلام . عندما استدعاه مع طلاحون ورأس القجلة أضمر عما وسخر به . أمثل هذا الشخص الذى ينسى وجهها رآه منذ ساعة يصبح النذر الأول . لحظ جديدة حديث ، إيقاع لطيف ، تغير لا تخطئه عين ، قال لهم إن الشيخ

يود أن يقضى إليهم باسم الشداعة والكوثر ، إنه يحب الأهالى حبا لو أبداه لقاض وزاحم مياه السجوقى مأوتها ، يحبهم و يشفق عليهم . حب مادته باقية ، سداه وحنه تشغاله يشونهم قبل عييتهم إلى الدنيا ، يعلم أن الجميع يخفون كراهية لما حل بهم ، سيجين الوقت الذى يدرك كل منهم جم الفوائد والرجاء الأعظم ، إن حب الشيخ رجب ، واسع ، يتجاوز الإنسان إلى الزهور والحجارة والحيوان والصخر المتوحد عند أطراف الشواطىء . امتداده كنباعه النجوم عن بعضها . وشفاقته كظل ماء البحر ، ما يري يده الشيخ أن يفتح كل إنسان بحبه المكنون ، أصملى عاطف فكه فيما نقله الصول . ترسب معنى غامض فى أعماقه أنه يشهد حدثاً كبيراً سيغير مجرى الزمان ، يقول الشيخ إن عجز الرجال الخطوة الأولى فى طريق محبة . كيف ستظهر بنية الخطوات ؟ فى نهاية حديث . قال الصول إن ما وصلهم ليس سرا والعالم بدأ يعرف . بدأ يفتق . كلام الشيخ واجد طريقته بين مختلف السحن وفى أعنى بحور الجنيات ، فى اليوم نفسه أطلان عاطف النظر إلى روض ، أطوقت خجلة ، يعيش تورد وجنتها وتكر النظرات فى حذقها . تبدلو بكراً لم تمس . قال إن الشيخ فعل ما فعل لأنه يحب الأهالى . أوشكت على السخرية . لكن طالما يتعلق الحديث بالشيخ فوجب التزام الحذر . سألت متى سيرفع طلسمه إذن ؟ عبث بزار جاكنته . راوده احساس بالأسر . بالسنجن . مط شفتيه ، رفعت عينها ، الله قادر على جعل الفرج قريباً ، بدا رجاءوها حاراً ، نجلى ، قال إنه سيخرج قليلاً ، لم تيد معارضة خوفاً من اغصابه . أو عدم ثقها فى قدرتها على اقتاعه . أثناء عبوره الزعفرانى تذكر سطورا قراها يوماً عن عزن مدينة أصيبت بالطحاعون فى آسيا . الداعة لا يجيئون . الغرباء انطلقوا إذا ضل أحدهم طريقه ، أو شك على دخوها . يحذره العشرات من أهالى الحى الذين يتجمعون الآن دائماً على مسافة من مدخل الزعفرانى ، فضولهم شره . أم محمد لا تجلس أمام الباب كعادتها ، تغلق باب المدرة عليها . لا تجد من تتألمهم . لم يرها ، يشعر بخجل مصدره روض . لا يد من إضافة شيء إلى شخصه

حتى يروق كرجل في عينيها ما هو؟ لحظة مروره أمام المقهى يرى الداهلوري جالساً فوق الكرسي، يعقد يديه أمام بطنه يطرُق برأسه، يلحج حمدي الصحفي، قرر تجاهله لكنه سمع نداء يقول حمدي إنه سيسعد جداً لو جلس عاطف إليه. يشرد قليلاً، يقول إنه لو يطيل البقاء... يحب الداهلوري، يتسم بهدوء وعندهما يصيح حمدي منادياً محمد العجوز، يقول هذا لا يصح، يضحك حمدي، إنه يعتبر نفسه من أهالي الحى، يوشك عاطف أن يقول له، لكنك لست من الزعفراني، يقول حمدي إنه منذ اللقاء الأول وهو مشدود إليه، وهو انطباع ليس من السهل أن يحدث إنسان في آخر، سبتكم بصراحة، لقد شعر بنداء عاطف له، طلب أن يسمح له بندائه «عاطف» كما رجاء أن يناديه حمدي، لكن يشعر أن هذا النوع الجارح يخفى روحاً بالغة الرفقة، يتسم عاطف، يومئذ شاكر، يعلو صوت حمدي، إنه يقصده ما يقول فعلاً، يؤذ التحذير إلى عاطف كالإنسان، ما يحدث في الزعفراني تناقلته وكالات الأنباء، لكن الرقابة تمنع الحديث لأخبارات عليسا، يتم عاطف، هل عرف الموضوع، أيس، في الخارج، لكنه لا يريد للحديث أن يتصل، يسأل حمدي، هل يسكن عاطف الزعفراني منذ فترة؟ بضيق عاطف عينيته، منذ خمس سنوات، يمسك حمدي يد عاطف اليسرى ثم اليمنى، «أنت العرب؟» يقول حمدي، إنه أعزب أيضاً لكن بفارق بسيط، لقد مارس الزواج أربعة شهور فقط، لأول مرة يبدو عاطف مهتماً، هل جمع حمدي عنه معلومات؟ لكن لا يوجد في الحارة من يعرف أى تفاصيل عن علاقته برحمة، فما بعد لم يدر متى بدأ يشعر بالاقتراب من حمدي؟ هل سيعاود سيرته؟ يتحسس الناس منذ اللقاء الأول، تنقضى أعوام وهو أسير الانطباع الأول، يتناقص عن كل ما يتناقض معه، يتجاهل الأخطاء، يعامل قياً وأوصاف داخله هو، حتى تقع المصائب فتجيء الكوارث، يوه نفسه دائماً على تسامحه أقوالاً بسيطة سمعها بداية حياته ثم نسها، لم يدرس قصة قابيل وهابيل؟ ألم يوقن باستحالة انتحاح إنسان عسى تحب إلا بعد أن لعلته الأفعى، أدرك أنه لا آدمي حصن مغلقة، فيها بلغت

المحبة وجسد الوهم ضخامة في القلوب، تبقى دائماً أبواب سحرية مغلقة لا يدرى أحد ما تخفيه، تذكر قصة من ألف ليلة وليلة، يصل البطل إلى قصر فاخر به كل أنواع النعم يحوى سبعة أبواب، يقول صاحبه للبطل، افتح ما شاء لك من أبواب واستمتع بكل ما تجده لكن احذر الباب السابع، دائماً يوجد باب سابع في كل علاقة، عندما يفتح يذوب النعم كله، عاطف أثر ألا يدخل القصر ذاته حتى لا يغالب ضعفه أمام الباب السابع، ما يشده إلى روض أن العلاقة بينها مهما كانت سيظل لكل منهما عالمه، جلوسه إلى حمدي مرات لن يزيل ما أحاط نفسه به، القدرة على البوح أمر لا يقدر عليه من أصيب بجراح نافذة، صحيح البدن يجري، يعوم، بغض، أما العليل فمن أين له هذه القدرة؟ إذن ليظن، ستظل الحواجر عقامة، روض الآن في البيت، قبل نزوله قالت «ربما أنت الليلة عندك» تذكر حلم المراهقة البعيد، أن يقضى الليل بجوار امرأة يناها وقتاً شاء، تفاجئه فكرة مزعجة، ربما تعرف رحمة ما جرى له، تظهر سحرية، تتبادل عنه حديثاً موجعاً مع نسيب، يتمنيان له شفاء عاجلاً، تعهد عنه تماماً كأمرأة حمدي، لكن الحزن معروف في الصحف الأجنبية، كيف يواجه رحمة لو التقى بها بعد لحظات، منذ هذه الليلة الربيعية، الأبريل لم يرها، ربما تغيرت ملامحها، بعد هذه السنة الياسمين، استمر فترة مقتنعا أنها لو التقيا صدقة سيروك الحلم البغيض، تتسم تنشف لحظاتها الحلوة، يدب الفناء، يتفرد الحصب، لم يدر إلا فيما بعد أن قصوه حجرتها الذي رآه من الشارع وقتئذ أضاءه حقائقها، ساعدها على ترتيب ملامحها التي لمسها وشم رائحتها مراراً، الفستان الأخضر المنقوش بورود حمراء، الفستان الأخضر الذي تتناثر فوقه أوراق ليات صفراء، طاقه السهرة الأسود، جوارب النايلون القميص الداخلي المائل إلى الخضرة المخفوف الطرف بالمنايل، كل هذا أعد لرجل آخر وجه الضربة فأصاب مقتلاً، أقسحت ثغرة وقوضت بناء، لو قابلته رحمة فجأة، إذا نحت هبتة غريبة عما ستسنى عجز الحارة، والطمس، ستبسم، تحاول التفتيش عن تأثير اللقاء المفاجيء، تخلق

سحابت ندم في سماء روحها ، لتتحطه ، تلاحظ أبعاد مرحة . توارى عينيه كأنها تراجعنا إلى الوراء قليلا . تسأله عما به فيقول إنه مشغول بأمور هامة ، يضيق وقته لتجابه لهذا لن يستطيع البقاء معها . تنظر إلى قيصره ، إلى جويوه الأمامية التي تبرر منها أوراق صنونة ، وبطاقات ، تتوقف عند الحزام الجلدي العريض المحيط بخصره ، تشهق فرجة إذ تلاحظ الحزام الجلدي البني المتدلى من الحزام « عاطف .. ما هذا ؟ » لن يقول لها إنها غداره حديثة جدا ، محشوة بالريصاص ، اثنتي عشرة طلقة يمكنه إطلاقها بضغطة من الزناد ، ما يخيفها منظره الذي تضفي عليه الغدارة رهبة وغموضا ، تدليها من الحزام الجلدي أبرز رشاقة جسده . لا يعلق كثيرا على دهشتها وتساؤلاتها ، ربما ناقشت الأمر مع نبيل . يندب الذعر إليه . ربما يطبق عليه عاطف الرصاصات ، عاطف يمشي متمهلا ، يلتقي بحمدى الصحفي ، يجيب على أسئلة بخصوص الغدارة . يتحدث عن ندرتها ، وقدرتها ، ودقتها ، مهارته في الشديد . يشر ذعر الدافوري الذي يوجه بصوت عال أن ينسها في جرابها الجلدي ، ترهب الحارة ، في البيت ترفعه روض بأعجاب يفوق أعجابها الأول ، إنه يتوقف الآن أمام فترة متجر سلاح وأدوات صيد . بنادق ضخمة بفوهتين . حواب ، أحذية غطس ، نظارات الرؤية تحت الماء احزمة مليئة بالخرائط ، طيور محنطة ، في الخلفية صورة ملونة لرجل أجنبي يصبو مسدسا في اتجاه شيء فوق حبال مكسوة بالجلود ، إن عاطف يمر بعينه متمهلا على صف طويل من الغدارات . أحجام متنوعة وأشكال مختلفة . الخشب النسي ، القوهمات السوداء . لبعض الغدارات ملامح أنثوية . يشمخ ، يتناقض مظهرها مع جوفها المهلك . المسدس لفظ مذكر حتى لو أطلق عليه غدارة ، تتسرع عيناه إلى غدارة محملة الملاح . صرخة الفوهة . مستطيلة المضض . ترقع في صدوق خشبي مبطن بقطيفة حمراء ، بطيل التأمل ، يرفع رأسه ليقرأ اسم المتجر ، ينظر في الساعة ، الساعة ، أمامه نصف ساعة يكفي للعودة . ونصف آخر يتأهب لخلافه

للشوم ، غدا يعود ليرقب الجسم المعدني الخدد ، المراقب كلغم يراه المارة في اليوم الواحد عشرات المرات ، لكنهم لا يعون ..

من تقرير سريع لرئيس هيئة الأعلام عن تطور الأحوال الزعفرانية عالميا :

تفيد تقارير المحققين الاعلاميين في سفارات البلاد وتقارير وكالات الأنباء ان الأحوال الزعفرانية بدأت تحتل موقعا كبيرا من اهتمامات الرأي العام العالمي . وما يلفت النظر ان تتحدث صحيفة صغيرة تصدر بالفرنسية في « لا بازا » عاصمة كولومبيا عن الشيخ عطية ، تصفه بقديس العصر الذي سيجر العالم وفقا لأسلوب جديد ، مثل هذا النشر يعني ذبوع أمره الى بلاد بعيدة ، أما كبرى الصحف الأوروبية فلا تخلو من نشرة أخبار يومية مفصلة عن الشيخ في صفحاتها الأولى ، حتى خصصت « اللوموند » عموداً صغيراً ثابتاً في الزاوية اليمنى لصفحتها الأولى ، يتكون من خمسة وعشرين سطرا تطبع بحروف بارزة ، وفي عددها الأسبوعي الأخير نشر مقال بقلم البروفيسور كورنو المتخصص في الفلسفة الاجتماعية تحدث فيه عما أسماه فكر الشيخ عطية . وموقعه بالنسبة للمفكرين العالميين الذين أحدثوا ثورات ضخمة في تاريخ الإنسانية . وفصل عليهم الشيخ عطية لامتلاكه الوسيلة العملية التي تمكنه من تحقيق أفكاره . ورد على بعض العلماء الذين تشككوا في قدرة الشيخ على إخضاع الرجال ، تحدث عن إمكانية تأثير الوهم في حالة وجود شخصية قوية تعمل في ظروف معينة . وقال إن الخوف والاحترام لدى الجماهير تجاه زعمائهم إنما يدخل في تركيبه الوهم بدرجة عظيمة . كما نشرت الصحف اليونانية ، والإيطالية والأسبانية والكندية ما زعموا أنه فكر الشيخ ، وسمى كل جزء بالمطور ، وبلغ عدد المداخيل

المتشورة حتى الآن أربعة، يتناول الأول القدرة على الحب الشامل، والثاني حول الحروب والأوبئة والمخاضات واستمرارها منذ بداية خلق العالم وعدم جدوى كل الجهود التي بذلت لانهائها، وضعف الذاكرة الإنسانية الجماعية. والنظور الثالث يتحدث عن الحقيقة المخفية، ويتناول بعض المفائق الواضحة. السابعة كالشمس، والتي يمكن للأظمة السياسية تعويرها وإقناع الناس بعدم جدوى ما هو في مصدحتهم. وضرب أمثلة بالفنى والفقر، وكيف يتصل ملايين الخلق حكم أقلية من الناس، أو الخضوع لحاكم مضلل سنوات عديدة تأكل أعمار كاملة، والرابع بعنوان «الوهم الجميل» ويدور حول الأوهام التي تغفل الخلق عن رؤية الحقيقة أو المطالبة بحقوقهم، لرجحت هذه المناظير الى لغات عديدة، طبعت في طبعات مختلفة، خاصة في الهند وأفغانستان، حيث ظهرت جماعات تعمل ولاءها للشيخ، وخلال الأسبوع الأخير تقدم السفير الدائم لدولة «مالانديا» بياحتجاج يتضمن استنكار حكومته لما سمعه بتدخل أجبر في شئون شعبه الداخلية، أشار إلى وجود تجمع ضخم ظهر إلى الوجود فجأة يتلقى تعليماته من الشيخ عطية، عقد هذا التجمع عدة اجتماعات موسعة خطب فيها عدد من زعمائهم ومعلميهم كبار السن. أعلنوا ميلاد قوة لا تقهر سوف تحسم كافة أشكال الصراع والحروب بين الإنسان والإنسان، بين الإنسان وذاته. من ناحية أخرى وقعت اضطرابات واسعة بين البوليس والمتظاهرين في مدن الهند الرئيسية، ودولة مالاجاشيا، عندما تجمع الآلاف في الميادين الرئيسية وهتفوا داعين الشيخ عطية مد نفوذه إلى كافة أرجاء الدنيا. وأن يقر ويدل فقد طال انتظار البشرية. واكب هذه الدعوات أعمال عنف شرسة هوجمت خلالها مؤسسات ومراكز أعمال، وقام بعض البحارة في المحيط الهندي بالاستيلاء على ناقلة البترول «أوانشا» التابعة لأحدى الشركات الهولندية. أعلنوا انتهاء الوهم الطويل وأنهم لن يسمحوا بمضداتهم. أبرزت وكالات الأنباء الأجنبية هذه الأنباء، كما بدأت الإذاعات لعالية تتعرض للشيخ عطية، وأول إذاعة تحدثت

عنه في برنامج أخبارى «مونت كاهرى» وأول إذاعة أعدت عنه برنامجاً خاصاً «أنقرة»، كما تولت محطة «روكسانا» الموجهة إلى البلاد العربية، وإذاعة «رصانبا» الموجهة بالعربية إلى المشرق ترديد أخبار عنه، وتشير تقارير الآراء العامة المرفوعة في المدة من ٦-٧ إلى ١٢-٧ من قبل «جماعات الأمن الملتزم» و«هيئات الاتحاد الأمنى» و«مكاتب مكافحة السخرية والنكت» إلى اهتمام الرأى العام بالشيخ، ولهذا تقترح، أولاً، أن تنشر صحفنا أخباراً عن ظهور رجل يدعى أمورا معينة، وستقوم أجهزة إعلامنا بتدبير حملة قوية، الغرض منها إظهار الشيخ على هيئة مشعوذ مجنون، في نفس الوقت توازيها حملة أخرى عن حدث عارض، محلى، تسلط عليه الضوء بشدة. كحالة قتل معينة، أو مجنون هارب فى المدينة يهدد الأبرياء بالحقق والتدريج، وستولى كتابنا وصحفيونا السخرية من الصحف الأجنبية والتنظيمات النوالية للشيخ ودور النشر التي تطبع أعماله. إن إذاعة أخباره ونشرها ستؤدى إلى امتصاص قدر كبير من اللفظ الدائر».

نص تأشيرة على ملخص لتقارير عدة عن الأحوال الزعفرانية :

تشكل لجنة عليا تختص بالأحوال الزعفرانية، وتضم كلا من :

«المستول الأعلى عن المواطنين .

«رئيس هيئة الفكر العليا .

«رئيس هيئة الصحة العليا .

«مفتى الشؤون الامنية .

علا صوت التكرلى بعد انقطاع . أثناء وقوف الأهالي لتسلم وجبة إفطارهم بدأ زعيقة عندما رأهم يلتفون إليه . ورأى نبيلة تخرج من الشرفة ، خديجة الصعبيدية تطل من نافذتها حتى أم محمد حجبت الضوء عن عينيها ، تطلعت إليه . صاح واصفاً الأهالي كنهم بالجبن ، طاك فتلوا السكون فسوف يحل بهم ما هو أظف ، يسارع طاحون بمقاطعته قبل أى أحد حتى يسجل سبق الدفاع عن الشيخ ، يطلب صمت التكرلى ، يجب ألا ينسى أنه من الزعفرانى ، بأعلى صوت يقول التكرلى إنه ميعزل فى نفس اليوم . تأخر على أن اشتراك بعض الرجال معه ومقاومة فساد الشيخ . لكنه لم يجد رجالاً ماذا ؟ لفتوا الزعفرانى من الذكور حتى قبل الطليسة ، من الطابور يعلو صوت رأس الفجلة ذو الخنفة البسيطة . يقول إن الحارة تعرف حقيقة التكرلى بفضل الشيخ ، لو صح خلو الحارة من الرجال فلائهم سحوا له بالإقامة بينهم حتى اللحظة ، يصبح التكرلى هائلاً ، لم يبق إلا رأس الفجلة « أبور يالة » ليرد عليه ، يعرف أمورا عن امرأته لو حكها لشل مكانه ، يزعم رأس الفجلة « اسكت يا قواد » يتردد صوت نسائي « عسى لنا » ، يتعرف طاحون إلى صوت امرأته . يخرج من الطابور ، يلتفت إلى نافذة بيته حيث تطل امرأته فى قبض نوم أحر ، « ادخلى .. ادخلى » ، تلوح بيدها كأنها تقول « اسكت يا أخى بلاهم » ، يتزايد إنزعاج طاحون الصامت . لا تفوت فرصة إلا وتقوم امرأته بزيارة الجيران أو الحديث إلى الرجال من النافذة ، لا تعباً به ، نظراتها تعبيرة بما جرى له ، عندما حدثها عن مشروعه الخاص بتحقيق العدالة عن طريق الاتفاق أملاً منه كسب احترامها لتفكيره فى أمور جلييلة ، سخرت منه وقالت إن من يكشف دماغه سيجد شبكة مجارى ، إن التكرلى يختم صباحه بصفة قوية فوق الحارة كلها ، أثار خبر عزاله مناقشات تنوعت واختلفت . بعد تناول الإفطار تساءل كل رجل وامرأة تقرىبا ، هل

سيتمرض عوييس للتكرلى فى نداءه ؟ ، ترقبه لكنه لم يلح بأى إشارة إلى التكرلى . ونضمن النداء رداً قصيراً عن بعض الاستفسارات الموجهة إلى الشيخ والتي تتضمن خيرة الأهالي حول شعائر دينهم . هل يصومون رمضان خاصة أنه على الأبواب ؟ رد الشيخ بأن ما سيجريه من تعديلات على الإنسان والعالم إن يسس جوهر الأديان والعقائد والمثل . تعالجه تمس أموراً جوهرية غير متعارضة مع الحقائق العلوية ، وعندما يتفهم العالم ما جاء ويستجيب سيتكشف الحقى ويظهر كل أمر واضح حلى ، حوالى التاسعة تساءلت أم سهر فى حديثها إلى أم نبيلة عن الكيفية التى سينقل بها التكرلى أثاث بيته ، من سيجازف برجولته ويدخل الحارة لنقل العفش ؟ والحقيقة أن هذه المشكلة تجسدت وعرة فظيعة أمام التكرلى .

أثناء تناول الزعفرانى إفطارها خرج ، اتجه إلى شارع الميهدي حيث تكثر شركات النقل ، قوحي ، يرفض قاطع ، واستفسارات موجهة إليه ، ونظرات سخرية ، طلسمت الحارة معروفة لدى كل أصحاب العربات ، اضطروا إلى الانصراف بسرعة خاصة بعد تجمع عدد كبير من السائقين والحمالين والمارة حوله وتفحصهم الوقع له وتردد صيحات عديدة « الحقوا .. هنا زعفرانى .. » ، ذهب إلى ميدان السيدة زينب محاولاً استئجار عربة كارو ، لكنه لم ينجح أيضاً ، مضى إلى الدراسة ، إلى العباسية ، كوبرى القبة ، حوصر فى كل مكان يرفض وتطلف شره ، قال أحد العريجية إنه ليس مستعداً أن يصبح مثله ، أخيراً نجح فى اقتياد صاحب عربة كارو ، عجوز ، أصم ، يقف بميدان المطربة ، لم يناقشه فى السعر الذى عرضه عليه . سلك به طريقاً طويلاً خلفياً حتى لا يراه أحد أهالي الحارة مصادفة فيفسد كلى شيء ، استغرق بجته المضى سبع ساعات بحيث لم يقترب من الحارة إلا حوالى الرابعة . فى هذا الوقت الذى يشجب فيه الضوء سمعت امرأته قرقعة عجولت فوق بلاط الحارة ، عندما اطلت رأيت الأهالي كنهم

ينظرون من السواقة والشرفات . يشع التكرلى إلى أعلى ، العرجى برأسه ،
صاح بعض الأهالي لكن العرجى لم يلتفت حوله ، التكرلى يدفعه إلى أعلى بينما
يستدير إلى الوراء ملوحاً بقضته مهدداً . اكرام امرأته تنأى الآن . انتظاها بسبب
هذا صفة . فترة طويلة أقامها هذا . صحيح أنها لا تعترض على كل ما يقوم به
حتى لو غادرها أياما بدون طعام فمن تعافيه بما تستطير إليه بنفس الخجل ، مادة
لا يبقى معها تقوداً . كل ما تحتاجه يحضره هو . لا تطلب منه الخروج ، أو
الذهاب إلى السينا إلا إذا دعاها هو . لكنه عندما أخبرها بنية في مقابلة
الزعفراني سأله عن السب ؟ أبدى إزعاجاً شديداً لأنه نادراً ما يسمح لعرض
عليه ، ولأنها تجهل ما حولها ، أما تساؤلا فيتضمن إهانة له قالت أيضاً إن تحرير
الشيخ ينص على سرية الطفل داخل الحارة أو خارجها ، أنت غضبا . هل
ستصدق هي أيضا هذا الشيخ الجنون ؟ قرب منها . أحاطها بذراعه ، قال
هائما إنه يتوق إلى استئناف شهره معها وحكايته لها ، غصت شهيا ، عشى أن
تكشف تعابير وجهها عما لظفته ؟ إذ حدث من آلام أن خرجت معزبة نفسها
لانتظار الزعفراني . لاحتمال لقائها المفاجيء وزوجها . أن ذهبها إلى تبيل في
أقصى المدينة من أشد الغامرات التي خاضتها خطورة ، التفت به ، احتضته ،
قبلته ، تظلمت الحجرة . رنت الكنب ، أصرت على قيامها بغسل ثيابه ولكنها
رجاها أن تجلس إليه ، استدارت إليه بوجه يحتمل رغبة ، ناعته ، لكن عشا ،
استعدت عنه ، بكى ، لم يتكلم تبيل لكنه قال عند انصرافها ، يجب احترام ما
يقوله الشيخ . قالت إنها خافت عليه لكنها لم تستطع بعدا عنه . تمست لم تكتب
إليها خطايا وردت عليه ، يتجمع لديها مجموعة من خطابات الغرام ، تمراها كل
يوم بعد خروج التكرلى . لم يلفظ تبيل الكلمات التي ترقب سماعها . التي لم
تصغ إلى مثلها من التكرلى أو الرجال الذين احتووه . في الساعات ترى فتهم
وخورهم . لحظة إفراغهم لشهوتهم يرغب كل منهم في القرار . بعضهم لا يتبادل
معها كلمة . أما تبيل فبدأ متسلا يرغب صغريته . آخر ما يربط فيه جسدها .

عندما غلا صوت التكرلى يتعجده قبل يدها . لأول مرة رجل يقبل أناملها . ثم
انصرف . طلبت منه أن يأتي نهارا ليقصها أطول وقت تمكن يحضره عما . ما أزعجها
ثناء زيارتها الأخيرة له شعورها بنفوره منها . ربما يرى فيها تهديدا لرجولته ، لهذا
رجته بحماسة أن يكتب إليها . لكن لم يصلها يريد . تعزى نفسها بامتناع سعاة
البريد عن الدخول إلى الحارة بعد إصابة أحدهم بالظلم في الأيام الأولى ،
تماماً كمحصلى الكهرباء . والباعة الجائلين ، وممرضات الصحة اللواتي يجتن
لرش البودرة المهلكة للحشرات ، وبعن خلسة كميات منها للمراشعات ، قربت
القيام بزيارة أخرى خفية إلى تبيل بعد انتفاها إلى مسكنها الجديد . أو علم
التكرلى ربما قبلها . إنها تودع الأمن جزء من عمرها . في حجرة النوم الداخلية
المطلة بالزيت ابسم أمامها لأول مرة . همس نحو الكلام في أذنها . فكرت في
طبولها كثيرا ، قلبت سجن عمرها في الضال تله طيات التكرلى . إن حوقا
يقبزهما على مهل . ماذا ينتظرها في السكن الجديد ؟ الحيران ، الرجال الجدد ،
وشلهم . حبرتهم . سحقهم . ربما يفقد الأمن فيها قسما لاقتراحه بأخرى
و يلفظها هي . أمنية خفية ستفارقها تولد ذهب إلى الشيخ . تنص عليه عبيدا
عامضة . لا تزال تذكر إشارته إليها على لسان عويس . أيا سيدة طيبة ولن
يحكمي ما يسمى إليها . برغم كل ما جرى فإنها تفارق مكاناً عزيزاً . كن قطعة
أثاث نفاك وينقلها العرجى الأصم كأنها تنزع من لحمها . تنظر بأسمى إلى
زوجها . يتحرك بنشاط ، يحمل حقائب الثياب ، وأطباق الصينى ، واللاواتى
الزجاجية . يتعجل الرحيل . أنها تودع الأمن والاستقرار وعودة التكرلى اليومية
إما بمفرده أو مصطحبا أحد الرجال . كل مقعد ينقل يبدو مكانه فارغا . يصبح
البلاط أكثر رطوبة ، والبيت كالنم الحرب الذى خلعت ألسانه . الأهالي يرقبون
رض الشاع فوق العربة كهذهم كلها رجل جاز أو جاء ساكن جديد . يحاولون
التعرف إلى مستوله الاجتماعى من قبعة الأثاث وما يضمه . الآن يتحيل
بعضهم ما جرى فوق السرير الذى يرقد مفككا فوق العربة . بينما يرقب آخرون

العرجي الأصم . يتخيلون ما سيجري له الليلة لو اقترب من المرأة تنتظره في مكان ما . ان رأس الفجيلة يروح ونحيى الى الشرفة قلقل ، فريدة خرجت منذ ساعة مبكرة مع ابنتها نشوة منذ الصباح ، لم ترجعا ومنذ ساعة جاءت أمه التي لا تنزل من فوق السطح كثيرا . قالت بصوتها المرتجف « خذ بالك من بيتك » . عادت تصعد السلم مرتعشة الخطى ، مهية كالتلدير . قرر ان يغوص الليلة معركة معها ، سيمنع دروس الإنجليزية التي تجعلها يذهبان إلى بيت رجل غريب . إنه قلق أيضاً لرغبته في التحدث خلصة إلى التكرلي ، يرحوه بحرارة الاتصال به لو رفع عنه أثر الظلم بعد فراق الزعفراني . عندئذ يذل المستحيل للانتقال إلى مسكن آخر منها ارتفع المبلغ الذي سيدفعه كخلو أو مقدم لن يبالى بالإيجار الشهري ، المهم إنقاذ نفسه وبيته من الزعفراني وطلاسمها حتى لو أنفق مبلغاً يوجعه . إنه لا يفارق الشرفة . عندما قاربت العربة على الامتلاء بدأ يستعد للنزول حتى يتحدث إلى التكرلي . الست بشنة أيضاً ترقب الجيران الذين يتأهبون للانتقال . ازدادت نحولاً . الطعام لا يقرب معها إلا على فترات متباعدة ، تظلل عنها ، تصبغها . لا تنام إلا وقتاً محدوداً خاطفاً ، تخاف الموت إذ يغلبها التعب . طول البقطة . يتردد في أذنها وقع خطي غامضة ، أنفاس تلمس جلدها . تبدأ في السقوط عبر منحدر حلزوني لا نهائي . توثقها قيود غير مرئية . تستيقظ لاهثة ، هجرت شقتها ، تخشى موتها وحيدة ، تجلس في الحارة تقاوم النوم ، يضطرب ذهنها بصور عديدة ، ترى البيوت بعيني ما بعد الموت . سيقى كل شيء ، وستسمع آلاف النساء بلحظات المتعة بعد أن تمضي هي لن تدع للموت فرصة الانفراد بها أبداً في الشقة . ماذا يعني عزال التكرلي ؟ لابد أنه السليم العاقلي الذي لم يلحقه الظلم ، يريد النجاة بنفسه ، تتعق بأوهي الخيوط . يرى الأهالي في هذه اللحظات ، الست بشنة منقوشة الشعر ، تنجبه حافية القدمين إلى بيت التكرلي ، تلتقي به فوق السلم ، باستامة طرية تتناقض مع ملامحها الخادة واضطراب عينيها ، تنوجه إليه بالحديث « تسمع كلمة » ينظر

إليها بدهشة . حذر يوشك أن يبلغ الخوف يبدو في عينيه . يفتقر السلم مبتعداً . « نعم يامست انت » ، تقترب منه متمهلة « لو سمحت غنتي خمس دقائق » ، يعلن صوت التكرلي . تقول خديجة الصعيدية إن بشنة ربما أقضت التكرلي نقوداً وتسمى لاستردادها ، أم سهير تؤكد وجود أمر غامض ، تقول زنوبة أنها تسمع صراخ بشنة ليلاً لكن أم يوسف اقتربت من الحقيقة عندما قالت إنها تريد جس أحوال التكرلي قبل إفلاته من الحارة . يراها الأهالي الآن تخرج مندفعة في أثر العرجي الذي يحمل فوق كتفه حشايا ، تتوسط الحارة ، تدفع أشخاصاً مجهولين عنها ، تشب فوق قدم أثر أخرى كأنها ترقص رقصة غامضة غريبة ، تبرق عيناها ، تجز على شفتها بأستانها . يزعم التكرلي « حارة مجازين . . » عندما ربط العرجي البغل إلى العربة وبدأت في التحرك أسرع بشنة ، تعلقت بها كما يفعل الأطفال ، التفت العرجي خلفه ، رفع عصاه ، مال جسمة ، هوى بها فوق رأسها ثم يدها ، سقطت . صاح بعض الأطفال مستهزئين . لكن الأمهات نهرنهم ، إن تمزق ثياب بشنة وجربها وانتفاخ وجهها أحدث رعباً خفياً ، حزناً في الزعفراني ، أم سهير لم تستطع منع دموع ذرفها على أحسن الثبات . التي لم ترد إلا أفخر أنواع الثياب ، لطالما أغرق عطرها الزعفراني كلها أثناء خروجها ، حتى أم يوسف راحت ترقبها بهدوء وخوف . لا يذكر أحد من قال إن ما جرى لها تستحقه تماماً لأنها بدأت بإثارة الشغب في الحارة . لأنها سبت الشيخ علناً أكثر من مرة عند خروجها لتشتري الخضار أو السمك من السوق القريب في بداية الظلمة ظننت أن ما تقوله لن يبلغه ، لكنه يرى كل شيء من مكانه ، يسمع الحسة . يعرف حقيقة الآفة ونوعيتها ، إخفاء الفكرة عنه عبث ، يدرك كل شيء ، يفهم اللغات والملهجات ، يعرف القلم الغريب ، يمكنه إقامة الجسور والصلات مع سائر أنواع الجماد والحيوانات ، هذا ما تناقله الأهالي في اللبنة نفسها ، تنبأوا للتكرلي بالمصير الأسود ، ظلت بشنة ملقاة حتى ميعاد النوم الإجباري ، همدت فوق أرض الحارة ، لكنها في الحقيقة لم تتم الليل في الزعفراني ، لا أحد يحجبها من

التوت ستر في الطرقات والميادين ، تهرب منه ، من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى آخر .

بعد تحرك العربية الكارو . ظهر التكرلي متأبطاً ذراع امرأته . يمشي مشمهلاً . يحمل حقيبة صغيرة . يرتفع رأسه في تحد واضح . لم يجي أحداً ولم يلق السلام . تطرق امرأته إلى الأرض بخجل ، تجنباً بشينة المدة ، في هذه اللحظات بدأ رحيل النهار واضحاً ، النساء يتسحين إلى داخل بيوتهن . يغسلن ما تبقى من أوعية . يتأهين لاستلام وجبة العشاء . تردد لفترة قصيرة صوت بسيوني المجرسي يزعم لامرأة ابنه تولى . « ابتعدى عني . . ابتعدى عني يا فاجرة أنا في مقام والدك » . تبع ذلك خروجها باكياً وجلوستها قليلاً أمام البيت ، دخلت من جديد ، حسن أنور لم يقارق الشرفة ، يستمر في ضرب المنقذة الصغيرة التي يضع فوقها خرائطه بقبضة يده ، لقد خسر جزءاً هاماً من قواته . النهارت جهة من الخطر جبهاته . ان الخراب يحتاج المناطق التي أحلتها قواته منذ قليل . استدعى روميل وعنفه . يقدم القائد الألماني الكبير حججاً تبدو مقبولة . نقص الإمدادات والوقود ، لكن متى خففت الأدلة والبراهين مرارة الهزيمة ؟ . استدعى ابنه رئيس الأركان العامة . جمع قادة الجيوش الميدانية . مدير المخابرات . جورنج قائد الطيران . جوكونوف قائد الضيق الأوسط . دوق ولجنون . نابليون . فون مولتكه مستشار الجبهة الوسطى . المورد البني . مونوجري . إيرنهاور . روكوفسكي . دونيتز . زعم في وجوههم ملوحاً بعصاه ، لا بد أن يعرف سبب الهزيمة ، كيف عرف لفظ الهزيمة طريقه إلى مصطلحاته ولغته ؟ .

تطورات .

بعد تشكيل اللجنة العليا للأحوال الزعفرانية طرح الموضوع على أكثر من جهة . ناقشة أكثر من مسئول مع مرفسيه . أبدت الأجهزة المختلفة اهتماماً كبيراً بهذا الأمر الداع الأهمية .

بالنسبة لجهات الأمن العليا فقد اشغلت بعدة أمور هامة . منها تدبير وسيلة لمراقبة تصرفات الأسطى رمانة المجرسي ، أصر قسم مكافحة الأفكار الهدامة على مسؤولية الأول ، وقدم قسم مكافحة التعصب العديد من الخطابات التي جاءت تصف نشاط المدعولولي . على أعلى المستويات تقرر رصد تحركات الإثنيين . في البداية شكلت لجنة عليا من المختصين ببيئة الأمن الأعلى . مثل فيها عن كل قسم ضابط برتبة العميد ، نشأ نزاع بين قسم مكافحة الأفكار الهدامة وقسم مكافحة التعصب عندما تقرر الاستعانة بالخبر الوحيد في البلاد الحاصل على دكتوراه علمية في طرق اكتشاف الآثار المنسية ، أصر كل قسم على الاستعانة به ، قدم كل منها حججاً قوية ، أوشك الأمر أن يصل إلى نزاع لا تحمد عقباه . لكن رئيس الأمن الأعلى حسم الموضوع عندما قرر عمل الخبر بشكل أساسي تبعاً لقسم مكافحة الأفكار الهدامة نظراً لخطورة رمانة ، وإمكانية اتصاله بجهات أجنبية ، مع انتدابه الخبر يوماً لمدة ساعة يقدم خلالها النصح والمشورة إلى مكافحي التعصب . اقترحت اللجنة بعد اجتماع دام ست ساعات كاملة تشكيل لجنة فرعية لبحث ما يمكن للأسطى رمانة القيام به في الزعفراني . ثم تلا ذلك سلسلة اجتماعات ، ورجوع إلى الملفات وتقارير مأموري السجون المعتقلات التي ضمته مدداً مختلفة . وملاحظات الحراس ، والجواسيس من السجناء ، والاستعانة بمراجع علمية متخصصة ، تم شراء مرجع من إيطاليا خصيصاً بالطائرة . أمكن الوصول إلى تصور لما يمكن أن يقوم به من أعمال هدامة ، تتلخص في محاولته نشر معتقداته على الحارة ، وأكدت اللجنة هذا الافتراض بما ورد في التقرير السري المرفوع إلى المشرف على الأمن المستتب ، واستند إلى مصادر أمكن تجنيدها من الزعفرانيين ، وبقيد التقرير أن أحد سكان الحارة ، وهو طالب يتردد بانتظام على الأسطى رمانة ، وان خلواتها تتزايد ، ويدل هذا على نية رمانة العمل في الأوساط الطلابية ، أما الأمر الثاني الذي استخلصته اللجنة فهو توافر الامكانيات لايواء مطبعة سرية ، أما الافتراض

الثالث فهو تجميع أسلحة تمكنه من تنفيذ أعمال تخريبية في حالة انتقاله إلى مرحلة الكفاح المسلح . رأت اللجنة الفرعية ضرورة بذل الجهود عليه عند خروجه من الحارة وعزله في معتقل بعيد . في نفس الوقت بحثت اللجنة موقف لوري الهجرسي . وتم تجميع معلومات كافية عن نشاطه . وحياته ، كما أمكن مراقبته بانتظام بسبب ذهابه اليومي إلى المصنع ، ورصدت التقارير ظاهرة مخيرة ، هي عدم أدائه فرائض الصلاة ، مما دعا رئيس اللجنة إلى الشك في الخطابات المرسلة ، لكن مسئول القسم أكد أن والد المدعو أحد كتبة هذه الخطابات . وبالتأكيد دفعه إخلاصه إلى وطنه وإلى مهنته القديمة كمخبر للتغلب على عواطف الأبوة . وبناء عليه تقرر استمرار مراقبته .

هذا ما تم في دوائر الأمن . في نفس الوقت صدرت توجيهات عليا بضم ممثلين عن كافة المصالح الحكومية والهيئات والمؤسسات إلى اللجان الفرعية المنبثقة عن اللجنة العليا لمتابعة الأحوال الزعفرانية ، قدم اقتراح من أحد أعضاء المجلس المنتخب بإعلان حقيقة ما يجري في حارة الزعفراني واعتبر هذا مانعا للمضاعفات والنهمسات التي تتحول إلى صرخات غير معترف بها . لكن المندوب الاعلامي رفض هذا ، سيعد نشر ما يجري اعترافا رسميا بما سبق تكذيبه . لقد نشر الأمر في أكثر من صحيفة عالمية قبل أن تعلم به الجهات المسئولة في البلاد ، ولا يدري أحد كيف تسرب الخبر ، لكن عالم اليوم لا يخفى فيه أمر وأيضاً تختفى فيه كل الأشياء . أبدى أعضاء اللجنة تعجبهم وطالبوا بإيضاح هذه النقطة الأخيرة . قال المندوب الاعلامي إن ما جرى في الزعفراني تلقفته الجهات الأجنبية . واستغلته الجهات المعادية لتشويه سمعة البلاد . وضرب حركة السياحة ، هكذا فقر اسم هذه الحارة الصغيرة إلى صدر الصفحات العالمية ، تضمنته العناوين المثيرة ، لكن يمكن رفض هذا كله . ثم قدم اقتراحا بإصدار إعلان رسمي يوزع على سفاراتنا بالخارج يتضمن نفيًا لوجود حارة الزعفراني

بالبلاذ ، يوازي هذا تنفيذ خطة سرية ترصد لها اعتمادات فورية بمقتضاها يتم انذار جميع أهالي الحارة لإخلاء منازلهم ثم يتم نقلهم إلى مساكن الدولة في جهات متباعدة بحيث لا تسكن عائلتان على مقربة من بعضهما . ويعد تخطيط منطقة الزعفراني بحيث يراعى في المباني الجديدة الطراز القديم ، وتستغنى هيئة الأعلام العليا المشروع بخطة محكمة تظهره على أنه أحد مظاهر الاهتمام بتجميل الأحياء القديمة والحفاظ عليها . وهكذا تتحقق عدة أهداف داخلية وخارجية ، قبل الاقتراح بعدم ارتياح ، وقام مندوب الهيئة العليا للمباني المنشأ من الطوب الأحمر بالرد علميا وموضوعيا فقال إن ما يطلبه الزميل ينطلق من ظروف الحركة الإعلامية فقط بدون مراعاة الظروف الأخرى . هناك استحالة هدم وتخطيط وبناء المنطقة خلال أيام ، ثم إن اختيار حارة واحدة سيثير الدهشة والمريبة أكثر مما يبعث على الاقتناع ، ومن الناحية العملية يستحيل اتمام المشروع في مدة لا تقل عن ستة شهور ، أولا ، لا بد من تشكيل لجنة فنية معمارية لوضع التخطيط الجديد . ثم قيام اللجنة بمعاينة على الطبيعة . وهذه مستحيلة لظلمة الزعفراني ، ثم تحدث مندوب الهيئة العليا للمحافظة على الآثار فهاجم بشدة اقتراح المندوب الاعلامي ، وصفه بقصر النظر لتضحيتة بتراث البلاد من أجل السمعة البراقة الكاذبة ، هدم الزعفراني جرعة حضارية لاحتوائها على بقايا بيت يرجع تاريخه إلى العصر المملوكي الأول . هنا اعترض المندوب الاعلامي ، وقال إن هيئة الآثار تهمل في المحافظة على آثار البلاد وتتركها عرضة للتلف ثم يهيج المندوب المحترم عندما يصبح الأمر متعلقا بهدم جدار يتوقف عليه سمعة الوطن ، رد عليه المندوب الآثاري بقلة الاعتمادات المخصصة للهيئة ، برغم ذلك فالهيئة تبذل جهودا كبيرة من أجل الحفاظ على تراث البلاد . ثم تلا قائمة بالأعمال التي نفذتها الهيئة خلال العام المالي الأخير ، طالب بنشر القائمة واتهم المندوب الاعلامي بتجاهل جهود هيئة الآثار العليا ، انتهى الاجتماع الأول بدون وصول اللجنة إلى قرارات محددة . في نفس الوقت تضمنت تقارير الاستماع التي تقوم

بإعدادها المصلحة العليا للتصنت والمكلفة بمتابعة الأحوال الزعفرانية في جميع الإذاعات العالمية تطورات جديدة. ورد في أخبار « محطة البيبي زدينو جراس » إن جماعة من الرجال أطلقوا على أنفسهم « اتباع الشيخ عطية » أعلنوا إيمانهم بفكره ، نيتهم في إرسال وفد إلى المدينة التي تشرف بآبواه ، كذلك أذاعت إحدى المحطات التي تبث إرسالها باللغة الهند وآسيوية انتظام أعداد كبيرة من المواطنين في ولايه هيا كوالا في صفوف طويلة وسيرهم تحت المطر ساعات ، وتجمعهم في الميدان الرئيسى بعاصمه البلاد وهناك وقف رجل خطيباً فيهم ، قال إن الأمر هان ، والميعاد حان ، والبعيد اقتررب والحنى ظهر ، كل شىء سيعود إلى حاله ، سترجع الأمور إلى بساطتها ، ستلثم الشقوق ، ستجاور الوديان ، والسحب والأرض ستعانقان ، ستشمل العالم رحمة وينتهى التلامعقول من دنيا الإنسان سيعاد تنظيم ما أعوج من نظام اختل واضطرب ، ونقلت إذاعات مقديليانو ، وكوشنو ، وهالوران ، فقرات مطولة من خطاب الشيخ المسن ، وقد وجهت المصلحة العليا للاستماع تقريراً سرى بما تضمنته هذه الأنباء إلى المشرف الإعلامى ، ورئيس الهيئة العامة للمحافظة على سمعة البلاد ثم انعقدت اللجنة الفلسفية الفرعية . ضمت أساتذة الفلسفة في الجامعات الأربع بالبلاد وذلك لدراسة أهداف الشيخ ، فى الجلسة الأولى انضم ضابط برتبة لواء من الأمن المخصوص اعتذر عن عدم ذكر اسمه ، ثم بدأ فى قراءة تقرير يتضمن الخطوط العريضة لأهداف الشيخ ، وتلخص ما قاله الضابط فى حب الشيخ للعالم . ثم موجز للمنظور الثانى الذى يعلن فيه شففته على العالم ، ثم المنظور الثالث الذى يستعرض فيه بعض صنوف الشقاء التى يعانها الإنسان ، أما المنظور الرابع فيتضمن خطواته فى سبيل تصحيح مسار البشر ، وسيله إلى ذلك سلب الانسان أعز ما لديه إلى حين إيجاد وضع يجمع الأحوال المتضاربة المتنافرة فى حال واحد ، أصغى الأساتذة بعمق ، قام أكبرهم سناً ، شكر اللواء على تحشمه مشاق

الحضور ، وأكد اهتمام اللجنة بما تلاه . لكن هناك أموراً يجب مناقشتها فى حرية تامة قبل استعراض أفكار الشيخ منها مثلاً تحديد من هو الشيخ ؟

أهو حقيقة أم وهم ؟ أهو وسيلة أو غاية ؟ أهو علة أم معلول ؟ وبعد الاتفاق على الخطوط الأساسية يتم الانتقال إلى مناقشة الأفكار ، ومحاولة تقريرها إلى مدرسة فلسفية معينة ، أو إطلاق تعريف محدد . وتلك أمور تحتاج إلى وقت لاتناء كل من الأساتذة إلى مذهب فلسفى مخالف للباقيين ، ثم طلب فى صيغة مهذبة من اللواء التفضل بمقادرة الاجتماع حتى لا يمثل وجوده تهديداً لحرية الفكر ، امثل اللواء ، لكن هيئة الأمن الأعلى اوجت بضرورة بذل جهود مكثفة لتجنيد أحد الأساتذة لمعرفة ما يدور ، ورفض رئيس الهيئة اقتراحاً بتركيب أجهزة تسجيل سرية ، وقال إن تجنيد أحدهم أكثر فائدة ، ربما تمت الاستعانة به لتوجيه المناقشات إلى وجهات معينة ، من ناحية أخرى استمرت تدفق الشرطة السريين إلى منطقة الحى القديم ، كما نشطت الهيئة العليا لتجميع النكت والأشاعات فى رصد كافة ما تنطقه الألسنة ، نتج عن هذا ازدحام مقاهى الحى القديم بالقرباء ، ظهر بعض مهندسى المساحة فجأة فى الشوارع القريبة من الزعفرانى ، يقيمون آلاتهم على الحوامل الخشبية فى الطرقات ، ينظرون من خلالها . استمر أحدهم يقيس الشارع الرئيسى لمدة أربع ساعات . ترددت إشاعة قوية عن نية الحكومة فى إزالة مجموعة ضخمة من المباني والشوارع تمهيداً لسير الأوتوبيس ، ورغم عدم ظهور أى دلائل عملية تؤكد أو تكذب هذه الإشاعة فإنها لم تخمد مما أقلق سكان البيوت القديمة ، ذات الأبخارات المنخفضة .

بعض الوقائع

حدث أثناء خروج طاحون غريب اليومى أن لمح ورقة مطوية بعناية . ملقاة فوق الأرض . ولأن كل تصرف يقدم عليه الآن يفكر فيه مرتين خوفا من خطأ غير مقصود ربما أغضب الشيخ ، لذلك تردد قليلا قبل أن يميل و يلتقطها ، عندما قرأ السطور القليلة المكتوبة بخط معوج وحبر لونه أخضر انتابه ارتباك ، ففكر ، هل يبلغ عويس بما قرأه ؟ يلتفت حوله ، لا يقف أحد بالقرب منه ، لم تره امرأة أو طفل ، هل يعود إلى البيت و يبدأ تنفيذ ما جاء بالورقة ؟ إذا علمت أمراته منساعده . لن تبخل بأى جهد يحوى بصيصا من أمل فى سبيل عودة رجولته لكن لو رجع سيبدو هذا مرييا ، ليمض إلى العمل ، إلى غمرات زملائه . ونظرات الزميلات الموظفات المشفقة ، إذ ترفع أحداهن عينها عن دفتر تدون به بعض الأرقام أو السطور ، يقرأ فيها أذراكها الحالة ، كأنها تقول ، أعان الله امرأتك ، ربما يوجد عشرات الرجال فى المصلحة لا حول لهم ولا قوة ، أحوالهم مسترة ، لكنه يمشى وكأن لافتة معلقة فوق رأسه .

شئ فظيع ، عند باب الحارة قابله الأسطى على المكوجى ، استوقفه ، سأله عن صحته ، عن أحواله . قال إن الزبائن طفشوا من عنده ، لا يكوى إلا ثياب أهالى الزعفرانى فقط وتلك لا تكفى ثمن الجاز الذى يشعل به موقده ، لولا الوجبات المجانية التى توزع ل مات أولاده جوعا ، رفع يديه دعا الله أن يمد عمر الشيخ ، مال هامسا على طاحون ، هل يعرف طاحون طريق أى شخص يقرضه نقودا ؟ هز طاحون رأسه . ودلوا نطق بسرعة ، لكن على المكوجى لم يد رغبة فى الانصراف ، قال إنه يفكر فى جمع مقدار من المال ، يكفيه كى يقطع تذكره سفر إلى الهند ، هناك سيجد الطلسم المضاد لطلسم الشيخ ، الطلاسم الهندية تجب ما عداها . كل المشاكل ستحل من الهند ، قال فجأة متخليا عن اللهجة الحاملة التى

سادت صوته ، لو أقتنع طاحون الأهالى بجمع أجرة سفره إلى الهند ، سيعود بالفرج ، بسط طاحون يديه وكأنه يقول ، من أين له القدرة على اقناع الأهالى ؟ فى نفس الوقت تفحص ملامح المكوجى ، سمع من أمراته أن المكوجى يعود كل ليلة إلى الحارة سكران . يمضى إلى حارة قديمة فى نهاية شارع الموسكى يتجرع كشوش السبرتو ، وقبل نوم الحارة الاجبارى يظهر متمايلا ، يقف كل من يقابله يؤكد وصول الفرج من الهند قريبا ، ثم تعرف الزعفرانى سكرانى من سكانها إلا والد نبيلة المدرسة ، قبل موته أكثر من شرب الخمر ، رآه الأهالى مرات راجعا يتمايل و يسقط أحيانا فوق الأرض ، فى إحدى الليالى طارده عدد من الصبية ، بين الحين والحين يستدير ليواجههم ، يحاول حفظ توازنه ، يرفع يده خاطبا فيهم يزعم « اغبياء .. أنتم لا تعرفون ما أكنه فى قلبى .. » تصادف عودة طاحون ، نهر الصبية ، صاحب الرجل معه ، راح يلتفت إليه متها إياه أيضا بأنه لا يفهم ما فى قلبه . أم نبيلة تستقبله بكاء وحزن ، إن ادمان شخص للخمر يعتبر من الكوارث فى الزعفرانى ، وكثيرا ما سمعت الحارة زعيق أم نبيلة إذ تحاول منع زوجها المدرس القديم من الخروج إلى الشرفة ومخاطبة الحارة ، كثيرا ما تناقشت أم سهير مع زوجها ، هل سيدخل مثله الجنة ؟ هل تجوز الصلاة عليه ؟ وقيل إن موظفا محترما جاء بخطب نبيلة لكنه تراجع عندما علم بسيرة والدها وأعراض الأدمان التى ظهرت عليه خلال السنوات الثلاث الأخيرة من عمره . قال المكوجى إن الفرج آت لا ريب فيه والهند لن تسكت ، خيل لطاحون أنه شم رائحة خمر ، ضاق ، استأذن فى الانصراف ، لا بد أن يلحق بالعمل ، أسرع ممسكا بالورقة ، لمح مقهى الداطورى مفتوحا ، الجرسون يرش الأرضية الداخلية ، يجلس هذا الشاب الذى يقولون عنه إنه يعمل بالصحافة ، لم يتضمن أى نداء أذاعه عويس تحذيرا بالبعد عن هذا الصحفى ، اعتاد الأهالى رؤيته جالسا إلى عاطف الجامعى ، رأها البعض يمشيان معا عند نهاية شارع الأزهر ، طاحون يعتبر نفسه محصنا ضد أمثال هذا الصحفى . يعجب للسهولة التى استدرج بها عاطف .

أيضاً قرقر الموسيقى، قال الداطوري إن عجيء مثل هذا الشاب (كلمة الشاب هنا تعني الفحولة) لا يحمل إلا معنى واحداً ، هو طمعه في نساء الحارة ، يتسار تحت عمله الصحفي الذي يحميه من المساءلة القانونية ، يلتقي هدفه بأهداف القوادين الذين تعرضوا لامرأة التكرلي ، إنه أخطر منهم لوجود من يحميه . لم يرد الداطوري ، استمر الصحفي في التردد اليومي المنتظم ، ما يحيره الآن عجيبه المبكر في هذا الوقت ، ربما اتفق مع امرأة ما من نساء الحارة على اللقاء بعد خروج زوجها ، يحتل بها ساعات النهار ، تعود قبل الثانية ، ترى من هي ؟ أم يوسف امرأته مثلاً ؟ إن سبقها بطل من عينها شرساً خلال الأيام الأخيرة . يحاول الهرب منه ، البعد عن مرمى عينها ، يتمهل في خطواته ، يرى زوجته بعيني عقله تحكم الملاءة النصف حول جسدها ، تعتمد الوقوف أمام المقهى ، تفرداها ثم تلقاها حتى تتيح للصحفي رؤية بعض من مفاتيح جسدها ، يقوم وراءها ، يلحقها في حارة الوطاويط ، أو تحت بيت القاضي ، من ميدان الحسين بركبان عربة تاكسي ثمضي بها إلى بيته ، تعجل الانفراد به ، يراها في حجرة النوم ، طاحون بتخيل أوضاعاً فاجرة تتخذها امرأته بالإضافة إلى أن الصحفي شاب مازال في مستقبل العمر ، وهذا سيكشف أمام عينها القوة الحقيقية لزوجها ، لا يدري طاحون لماذا يوقن أن قواه أقل من قوى هذا الصحفي ؟ حتى لو زال الظلم فلن تنسى الأفندي بسهولة . تضطرب خطى طاحون ، تفزوه حسرة هائلة ، يتحسس الورقة ، ربما يجيء الفرج بعد تنفيذ ما جاء بها حرفياً ، لم يبق طويلاً في المصلحة ، استأذن رئيسه في الانصراف ، عاد يقطع الطريق إلى الحارة ، أبدى ارتياحاً عندما لمح الصحفي جالساً بالمقهى ، عندما اقترب من مسجد سيدى مرزوق صاح بعض الصبية الذين تجمعوا فجأة « آه يانى .. آه يانى يازعفرانى » ، جفل ، برغم إصرار الصبية بالاختفاء إلا أنه جرى باتجاه الزعفرانى ، عندما تجاوز مدخل الحارة شعر بأمان ، بعد الحد الأمامى للمدخل لا يمكن لإنسان أن يتعبه ، لا يمكن للرئيس أن ينظر إليه برية بعد إعفائه مؤقتاً من قيادة القاطرات وإسناد

عمل مكتبي إليه في ورشة الآلات . أيضاً لا يمكن للصحفي الدخول . الزعفرانى هادئ تماماً . اضطر الآباء إلى منع أولادهم من الخروج للعب مع أولاد الحارات الأخرى بعد تعدد المشاجرات . بقاء الأطفال في البيوت يسبب مضايقات لأحد لها خاصة خلال عطلة مدرسية كهذه ، البيوت ضيقة ولا تحتل الضجيج ، لكن الآن لا يغادرون الحارة أو البيوت ، صاحب هذا هدوء غريب أدرك الأولاد ، لم يعد يسمع زعيق أحدهم ، لم يربعضهم يخوضون مباراة حامية في لعب الكرة أو قذف الطوب ، معظمهم الآن يمضون أوقاتهم نائمين ، هدوء غريب لم يعتده طاحون حتى خطر له إنها ليست الزعفرانى ، ربما لعدم عودته من قبل في مثل هذا الوقت المبكر حيث الشمس تفرش جزاء كبيراً من الزعفرانى ، والحركة الخافتة تشرب من البيوت ، غسيل اللؤلؤ ، مسح البلاط ، يطرق الباب ، لحظات ثم يسمع الشبشب يأت فوق الأرض ، ثم يصنع إلى أى صوت ، يطرق الباب مرة أخرى . مرات ، يد خشنة تقبض قلبه ، أين ذهبت ؟ .. لكن الصحفي بالمقهى . هل يجلس عامداً كي يضلله ثم يقوم ليلاحق بها في مكان اتفقا عليه مسبقاً ، ربما عاد فعلاً من لقاء تم بينها ، تأخرت هي قليلاً حتى لا تثير شكاً في صدور رواد المقهى والجالسين أمام الدكاكين ، طاحون لا يحمل مفتاحاً ، هي تفتح الباب دائماً ، يعود إلى خارج الحارة ، أى شبشب سمع ، أهو وهم ؟ الصور تتعاقب على ذهنه الملتب ، إنه يدخل إلى المسجد . يتوضأ . يبدأ تنفيذ ما جاء بالورقة ، في صغره لم يفته فرض واحد ، مع مرور السنوات أصبح لا يصلى إلا الجمعة فقط ، يمضى إلى الحسين كل أسبوع ، ثم يتجه إلى مقهى قديم أزيل الآن ضمن ما أزيل من مبان قديمة ، في العامين الأخيرين تخلف عن صلاة الجمعة مراراً ، لكنه واطب على أداء صلاة العيدين ، اعتاد أهالي الزعفرانى التجمع في ساعة مبكرة ، يهتفون بعضهم ، يتصافحون ، حتى لو تصادف وقوع خصومة بين البعض فإن كل شيء يصفو مع نسيمات الهواء الباردة النقية التي تلتفح وجوههم إذ يخرجون من الزعفرانى إلى الطريق . كل هذا .. انتهى الآن ، يجفل الزعفرانى

من مواجهة جاره ، هل يخرج من المسجد ؟ المكان الوحيد الذى يمكنه الجلوس فيه منفردا بدون مضايقة ، مقهى الداطورى ، لو ذهب إلى أى مقهى آخر لن يجد راحته ، ربما اعترضه الجرسون ، طلب منه مغادرة المكان ، يخاف الزبائن الاتصال به ، أو الشرب من كوب رشف منه شايا أو حلبة ، الزعفرانيون معروفون فى الحى كله ، قبل الطعام الجماعى منع البعض حرمتهم من الخروج لشراء الخضار أو اللحم ، عدد من الباعة أظهروا طمعا فى النساء ، تماما كالأشقياء الرباطيين أمام السجون فى أيام الزيارات ، ينصبون فخاخهم للزوجات اللواتي يفتقدن ، رجالهن خلف الأسوار . لكن امرأته لم تراخ هذا كله وخرجت . طاحون يشعر بوقوع ضحية لمؤامرة عاتية ، هو الرجل الطيب المسكين الذى لم يؤذ أحدا ولم يتآمر على مخلوق ، ولم يدمس على زميل له ، تأمر عليه السمسار الذى أوصله إلى الشقة ، تأمر عليه رأس الفجلة عندما قبل تأجير المسكن له ، الداطورى الذى اختار لبقاه موقعا قريبا من الحارة . الرجال المتطلعون إلى أرداف امرأته الثقيلة كلهم شركاء فى المؤامرة ، لو تضامنوا معه فى تحقيق مشروعه الضخم الذى يضح به رأسه ، تلك الشبكة من الأنفاق المتلاقية المتفرقة التي يتجمع فيها كل الجياع ، فى لحظة معينة يهبون ، يخرجون إلى الضوء ، يجثثون كل ما أمامهم . يعدلون الأوضاع .

بعد قليل وقع من الحوادث فى الزعفرانى ما جعل حدى الصحفى يقطع تأملاته وسكونه الذى لفت نظر الداطورى ، وما جعل طاحون يقاوم إغراء قويا بالانقطاع عن كتابة البسمة والالتفات إلى ما جرى ، قبل انقضاء النهار ، تندفع امرأة شابة تحمل حقيبة ثياب ضخمة بنية اللون تتبعها فتاة فى حوالى السابعة عشرة إنها مضطربتان ، يتدفق الدم إلى وجنتيهما ، تسند المرأة حقيبتها إلى الأرض ، قرب مدخل المسجد تميل الفتاة بحقيبتها إلى جوار الحقيبة الأولى ، تعود بسرعة إلى الزعفرانى ، تقف المرأة ، تنفث حولها ، تفوح رائحة عطر خفيفة

من ثيابها ، تشابك أصابعها ثم تنفرج لتشابك من جديد ، لن يستطيع إنسان مقاومتها أو ثنيها عما قررت ، ها هي ذى ابنتها تظهر حاملة حقيبة بنية صغيرة ، منظرهما عادى حتى هذه اللحظة ، لكن لم تمض ثوان الا تندفع امرأة عجوز ينحنى ظهرها انحناء شديدا ، وعندما رآها بعض المارة قدروا تجاوزها المائة عام ، مشيتها المتعثرة وصوتها النائح لفت انتباه حدى الصحفى ، يستدير الداطورى على مهل حتى يواجه تماما كل ما يجرى ، تصيح العجوز ، يا عاهرة ، يا خائنة ، تطلب من المارة أن يتقدموا ، أن ينعوها ، كلما أحست باتساع المسافة بينها وبين المرأة والفتاة يزداد نواحها ، بالفعل تقدم أحد المارة منها محاولا استفسار الأمر أو استيضاحه ، لكن تنطلق صيحتان فى وقت واحد ، الأولى من المرأة نفسها ، والثانية من أحد الواقفين بالطريق « إحدري . زعفرانية » ، يسأل حدى الصحفى عن شخصية المرأة ؟ بعد لحظات يجيب الداطورى قائلا إنها فريضة امرأة رأس الفجلة ومعها نشوة ابنتها ، يعود الداطورى إلى صمته ، تتوقف العجوز ، تهيل الشراب فوق رأسها ، تطلق ألفاظا لا معنى لها ، تبدو كطفلة شائثة فقد منها شيء ثمين تخشى العودة بدونها ، يوقف الصراخ طاحون .

لم يستطع الاستمرار ، للحظة خشى وقوع مصيبة فى بيته . قام بدون أن يعي . يخرج ممسكا بالقلم العارى من الفطاء ، يتقدم من أم رأس الفجلة ، يزداد عويلها . تطالبه بالحقاق بها ، أن يردها إلى بيتها ، يسأل طاحون بفرع ، يخوف ، من .. من هي ؟ تقول العجوز ، الخائنة ، ابنة الحرام ، يدرك طاحون أن المقصودة امرأة ابنها ، تغمره راحة . بل تدركه سخرية عابرة وهو ينظر إلى العجوز التي وقعت تماما فوق الأرض ، لكن هذه السخرية تطايرت عندما رأى نفسه فى لحظة آتية يصرخ مثل هذه المرأة ، كما تذكرا انقطاعه عن كتابة البسمة . تتملكه حيرة ، هل يبدأ من جديد . هل يستأنف ما كتبه ؟ وإذا عاد إلى الكتابة هل يشوذا ؟ من يفتى له فى الأمر ؟ لا يدري ، لا يعلم من كتب الورقة ؟ هل يرجو

من عويس أو من الصول سلام الذي أصبح المذر الأول أن يبلغ الشيخ حيرته ؟
 ربما أبدى سخطاً عليه ، يضايقه موضوع الورقة منذ البداية ، يعود ليتأمل ما كتب ،
 نسي عدد المرات ، يسب رأس الفجلة و يلعن أمه ، يلقي اللوم عليه وليس على
 قرينة ، لا انطلمس نفسه . كيف يمكن لسنيرة مثلها أن تعيش مع صاحب هذه
 الخلقة ؟ يحاول تجاهل أفكاره ، ينظر إلى الورقة ، استند برفقيه إلى المتصدقة -
 تتزايد حيرته - تزحف أم رأس الفجلة إلى مدخل الزعفراني ، فوق نتوء بارز
 تنسج ولا تكف عن الكلام ، تلعن الحائنة ابنة الحرام ، تسب أصلها وعائلتها ،
 وتؤكد أن أهم شيء عند اختيار الزوجة هو الأصل ، لكن ابنها لم يهتم بالأصل ،
 جذبه لون جسدها الأبيض ، أكلت عقله بحركتين في الفراش ، تاه المسكين . ثم
 يجنحها ولم يعرف امرأة أخرى طول عمره ، الفرص أمامه كثيرة والعذبات يرغبتها ،
 لكن قليلة الأصل بعثرت النعمة ، خربت بيتها بيديها ، إنها قدرة لا تنظف منزلها
 إلا كل شهر مرة - رائحة طيبخها تسد النفس ، عرق إبطيها يركم الأنوف ، لم
 تستشف شعرها أبداً ، أخذت ابنتها معها ، هذا الشاب الذي أغواها يستدير إلى
 ابنتها بعد قضاء وطئه منها ، من يتزوج طفلة عليه تحمل العواقب ، دلالها وتمنعها ،
 رجوعه كل يوم فلا يجد لقمته معدة ، والصحون القذرة تملأ المطبخ ، عليه أن
 يغسلها ، أن يقشر البصل و يفصص الثوم ، عند مشيها معه تغمر للشبان والمسكين
 لا يلحظ شيئاً ، لم تحترم أمها ، لم تتذكر موتها ، لم تذهب إلى القرافة مرة
 واحدة ، في الأعياد لم تتصدق عليهم بقرش ، ولا كعكة حتى . كل ما شغلها
 البحث عن أحضان الرجال ، المتعة الحقيقية لأمثال هذه الفاجرة لا تأتيا إلا بين
 أحضان الغرباء ، إذا تأوهت بين ذراعي زوجها ، فهي تهدف إلى الحصول على
 قدر من المال ، أو نفقة المصيف ، الله وحده يعلم ما يجري عندما يتعري جسمها
 أمام مئات الشبان ، كل شيء أصبح مقلوباً في هذا الزمن الأسود الذي تكتمل
 فيه أنواء المرأة عندما تتعري لغير زوجها ، ثم تجرؤ في صباحها وشيوخها على

التطلمع إلى رجل غريب ، قبل مصافحة أي رجل تلف يدها طرحتها خوفاً من
 نقض وضوئك ثم يلف الزمن لشخرب امرأة بيتها بيدها .

إن رأس الفجلة يمز كفتي أمه محاولاً إسكانها ، عيناها جاحظتان ، خيط
 لحيل من لعاب يتدفق من جانب فمه الأيسر ، خوف يفرقه شيئاً فشيئاً ، خوف لم
 يألفه من قبل ، يستدير حوله ، عاطف الجامعي يرقبه ، يبدو أنه عائد من عمله ،
 إنه صامت ، يتقدم على المكوجي من رأس الفجلة ، يقول له إنه رأى امرأته تخرج
 مع ابنتها ومعها ثلاث حقائب ، فكرر في اعتراضها لكنه لم يستطع ، بأي حجة
 يتدخل في شئون الناس ؟ متعود إليه عندما يجيء الفرج من الهند ، ينظر رأس
 الفجلة بجمود إلى المكوجي ، يلحظ الفتحة المثثة التي تكشف جزءاً كبيراً من
 صدره ، جزء من الصدريتي الحريري الذي يرتديه ، يتذكر أفاويل عن رجوعه
 سكران كل ليلة ، يتذكر منظرًا من أحد الأفلام ، البطل يقول للبطة ، تشربي
 ويسكي ؟ امرأته تتأمل كأساً في يد الغريب ، تهمس بدلال ، لا ، أنا أخاف ،
 يلحظ الآن تشققاً في الجدار المواجه له ، يتذكر أسرة أقامت في نفس البناء ،
 رجل صالح اسمه الحاج بيومي يمتلك دكاناً للبياض عند حارة الرشيدى . امرأته
 الست نعيمة من أحب السيدات إلى قلوب الزعفراني . رآها دائماً تطل من
 النافذة الضيقة ، تغطي رأسها بطرحة بيضاء . ابنها فاضل لم ير إلا حاء لا تشه ،
 في السنوات الأخيرة أضيف إلى ما يحمله مسطرة خشبية كبيرة ، بمجرد تفرجه
 من كلية الهندسة منذ عامين أصر على الانتقال مع والديه إلى مسكن آخر . اليوم
 صباحاً التقى رأس الفجلة بالحاج بيومي ، كبر الرجل وتقدم في العمر ، رآه
 قليلاً ، خالياً من الأصباغ ويقع الجير ، تفوح من ثيابه البيضاء رائحة عطرة ، قال
 إن فاضل أصر على أن يأخذ حقه من المرائحة ، باع الدكان وهو الآن من البيت
 إلى الحسين ومن الحسين إلى البيت ، أما فاضل فبعمل في السعودية وسيرسل
 إليها دعوة للحج العام القادم .

يسأل رأس الفجلة عن الاتجاه الذي مشيت فيه ؟ يشير على المكوجى إلى الطريق المؤدى إلى الميدان ، يخفى المكوجى دهشة من الجدية الشديدة التى سأل بها رأس الفجلة وكأن معرفته الاتجاه سيبيدهما إليه ، فجأة ، يتطلق إلى داخل الزعفرانى ، تتعثر خطواته ، يتصرف فى هذه اللحظات وكأن شخصاً خفياً يحرك خطواته ، يفتح باب شقته ، يتجه إلى الخزانة الرئيسية ، يتحسس مقبضها ، كل شيء فى موضعه عدا دولاب الملابس . جميع ضلعه مفتوحة ، زجاجات العطر اختفت من فوق التريجة ، يتذكر زجاجة على هيئة امرأة ترفع يدها لمسكة باقة ورود بألوانها الطبيعية رغم دقة حجمها ، العطر يخرج من قلب هذه الباقة ، الجزء الخاص بثيابه مفتوح ، خال تماماً . ادراج المكتب الصغير المطعم بالصدف كلها مفتوحة . الدرج الرئيسى مكسور . يتحسسه . يضغط بيده لسان القفل . يحتاج إلى تصليح يكلفه جنياً . ومشوار قصير إلى خان الخليلي ، مثل هذا النوع من الاقفال يحتاج إلى صانع ماهر . يطوف بالشقة ، فيما عدا هذا كل شيء فى مكانه . يتساءل متعجباً ، لماذا أخذت ثيابه ؟ ثم أفكار تلح عليه ، من سيعده له الطعام ؟ من يغسل ثيابه ؟ من يأتونها على دخول بيته ؟ رفض زمناً طويلاً مجيء خادمة ، أمه عجوز لا تستطيع قضاء حاجاته الخاصة ، صحيح أنها تستطيع يوماً فى الفجر ، تستحم تحت الدش البارد فى أيام الشتاء القارسة ، تغسل ثيابها . تطهى طعامها ، تعنى دائماً ما يدور حولها ، تقضى معظم نهارها فى تصنيف شعرها ، الاشراف على تربية الكتاكيت وصغار البط لتبيع كل ما تربيه بعد ذلك إلى امرأة تجلس فى سوق أم الغلام .

إن الوقت يمر ببطئاً ، والضوء يشحب ، ولا بد أن فريدة تستقر الآن فى البيت الذى قصده وثمة نداء ان اذيعا ، لم يهتم بمضمونها ، تدق الساعة الكبيرة فى الصالة الباردة ست دقائق ، ميعاد العشاء الجماعى للزعفرانى خان . لم يتحرك ، إن وجهه هادئ تماماً ، لولا خيط اللعاب لبدا عادياً ، يتفقد هيس من

هواء غير النافذة ، يتذكر حفيف ثيابها إذ تمر بالقرب منه ، صخر يتأمنه ، فقرها أحيانا الجلوس على ركبته ، تقضه فى رقبته ، فى بداية زواجها توقظه إذا ذهبت إلى دورة المياه ، تطلب منه أن يقف لها بالصالة ، الغريب أنه لم يفكر فى تشوه عظمها رأى صورتها ولى وجهه بسرعة ، لا يريد أن يراها ، لولاها لما ذهبت فريدة . هى التى عرفت الطريق إلى مدرس اللغة الإنجليزية ، منذ أيام زعفت فريدة فى وجهه ، قالت إنها ضاقت به وسهت منه إلى المدرس الخلو الشاب ، لم يهتم ، فلها تغيظه ، بندول الساعة يروح ويحيى فى زمن خاو ، يتحنن على طرف المكتب المطعم بالصدف ، يتخذ أوضاعاً شديدة الانحناء ثم يعتدل ، سيبحث عن المدرس ، يتعرف إليه ، يهديه صفيحة مليئة بالنقود الفضية فئة القرشين المدممة الحجم ، سيق . له قيمة المبلغ لا تقاس بعدد القطع إنما بقيمة الفضة التى تموتها . عملة انقضت من زمن والصياغ يجمعونها لصهرها وتشكيلها فى حلوى ، سيهديه أيضاً تحفة نادرة من الخزف ، السيف الاثرى الذى امتلكه يوماً أحد سلاطين المنود المسلمين ، مقبضه وغمدته مطعمان بالزمرد وفصوص الياقوت والفيروز ، سيهديه أيضاً حلة مصارع الشيران الإسبانى السجوة فى القرن السادس عشر ، سيشرح له قيمتها ، ميقول له إن كثيراً من تجار التحف عرضوا عليه التخلي عنها مقابل مبالغ طائلة ، لكنه رفض ، يكفى جلوسه أمامها وتغيب السلطان والمصارع ، كيف جاهد كل منها ، كيف صارع . كل منها خصومه . هل سيقرض هذه الهدايا ، سيتخلى عن فريدة ، ال طمأنينة من نوع آخر تراوده على مهل ، منذ زواجه بفريدة يتوقع ما حدث ، يتقن أنها ستخونه يوماً . أو تغفل غيره ثم تمضى ، حاول تأجيل ما جرى إلى أطول زمن ممكن ، اغرقها بالنقود ، اشبعها جنسياً ، حتى جاء الطلسم . لكن ما ذنبه ؟ فرت فريدة ، القلق المؤجل ولى ، انتهى انتظاره لما سيحدث ، بدأ زمن افتدائها الذى تخيله طويلاً ، لكثرة ما عاشه لا يتعجب الآن ، كأنه عاش اللحظات من قبل ، يرى يوماً تموت فيه فريدة ، تحمل فى نفس يكسوه قماش ملون جميل . سيصلى عليها ، سيبكى ، لكنه مستغمر راحة نهائية .

من تقرير مرفوع الى اللجنة العليا لأحوال الزعفراني

وبالفعل تم استدعاء رجل صالح تقى معروف بكراماته و يقيم بقطف من أعمال محافظة قنا ، وقام باعداد طلسم الغرض منه حماية العاملين بأجهزة الاعلام ، خاصة الأذاعة والتلفزيون حتى لا يهددهم الشيخ ، ويستغل أجهزة الدولة لنشر مبادئه الزعفرانية . من ناحية أخرى ثبت مسؤولية عدد من الأهالي عما جرى وهم :

« زمالة الشيوعي ، المختفي داخل الزعفراني من الرقابة البوليسية المقررة عليه .

« لولي المعروف بتعصبه الديني والذي بلغ عنه والده نفسه .

« جنرال غامض تضاربت حوله الاقاويل ، ومن الممكن انتمناؤه إلى بلد أجنبي يعتنق الأفكار الهدامة ، ونزل إلى داخل الزعفراني بوسيلة ما .

« عميل للمهند ، يتخفى في ثياب مكوجي .

« و ينسحق أغراض هؤلاء كلهم الشيخ الذي يثير كل هذه الضجة ، وجار اتخاذ الوسائل » .

الخيلاء

يصف الأصول سلام فترات بشرة مسكنه ، إن حيوية مفاجئة سرت إليه ، لم يعد يزعم لامرأته أو يثير المشاكل فيما يتعلق بأحواله الجديدة . على

العكس لوحدت تدمر من جانب أحد الأهالي أو أبدي أحدهم مخالفة فهو أول من يسادر إلى التحذير ، في أحسن الأحوال ينصح ويهدى . يعرف الزعفرانيون الآن بلقبه الجديد « التدوب الأول » قال الشيخ إنه سيختار سبعة منذرين من كافة البشر ، قال لمصون سلام إنه ما جرى في الزعفراني ليس إلا البداية . حرف الألف ، الفاتحة الشهيق الأول الصرخة الأولى ، في المستقبل القريب جداً ربما كلف مندره الأول ، بأعمال تتجاوز نطاق البلاد كلها ، كل أمروله حين ، كمل حدث وله أوان ، بعد حين عندما ترتوى غصونه بماء المعرفة والحكمة سينطلق ، أشياء كثيرة تغيرت فيه بعد لقائه بالشيخ ، سنوات طويلة لا يختلط بالأهالي ولا يسمح لامرأته بزيارة جاراتها ، إذا خرجت لشترى خضاراً أو ترور الحنن يحدد . وقتاً لا بد أن ترجع بعد انقضائه ، إذ تخرج ثقله وحده . يروح ويحيى . يتعجل رجوعها ، ينظر من الشرفة على يسرها بمجرد وصولها ، يكتس وجهه جهامة ، يعنفها ، يتهمها بالتكبر . يتحدث عن نساء عجائز ينظرن بعيون زائغة إلى شبان في أعمار أبنائهن ، منذ طلسم الحارة لم تخرج امرأته ، بعد عودته من لقاء الشيخ ذكرها بالحلم الذي رآه ثلاث مرات ، كيف جاءت ولي العهد ، أمسك يده ، تأبط ذراعه ، مشى معه في الحديقة . قال « اشتقنا إلى طعامك بإسلام » عندها روى الحلم أضمرت تكذيباً صامتاً ، أكدت امرأته أنها لم تكذبه أبداً . لكنه أغمض عينيه ، قال إنه يثق من تكذيبها وعموماً ها هي ذى الأيام نشبت صحة ما رواه ، الشيخ يستدعيه ، يجلس معه سبع ساعات كاملة ، لن يحدثها عما قاله ، لا بد أن تعيد ترتيب البيت لتستقبل من حين إلى آخر عدداً من الحارة . عند حضورهم ما عليها إلا اغلاق الباب وتركهم معه . لا ترعجهم بدخولها ، سينقل إليهم بعضاً من زاد القول وثمين الحكمة المهمة لا يمكن مقارنتها بما يقوم به الولد عويس . عويس مجرد مناد . علو صوته وقوة حنجرته هما ما أهلاه للقيام بهذه الوظيفة . مجرد المقارنة تبين الأصول سلام ، قطب عينيه ، سأل هل تقصد اهانتته ، أكدت امرأته أنها لم تقصد ، تفكر في هذا وبرغم تصريحه مراراً

نيت في عدم فصل أى تفاصيل عن لقائه بالشيخ فإنه فى نفس الليلة وقبل استغراقه فى النوم حكى لامرأته عن حجرة الشيخ، عن رائحة البخور التى تملؤها بدون أن يرى أى موقد تنوهج فيه جرات، صوته، يأتى من وراء حجاب بنى، يصدر من فوق ومن أعلى، من كل ركن بالحجرة، هذا يدخل الرهبة إلى القلوب، لكنه اعتاد بحالة الكبار وعظاء القوم، هذا جعله أكثر مقدرة وتعملا للرهبية. بعد أيام ثلاثة أعلن عويس أنه يجب على طاحون والباز وعاطف والداطوري التوجه إلى التذمر الأول. حذر من التأخير وقت النداء. التفت سلام إلى امرأته، قال إن الوقت الذى تدرك فيه الحارة قيمته قد حان. لم يذكر عويس نفسه بين المدعوين لأنه المنادى، والحقيقة أن أى شخص لا يهيم بجنى عويس أو عدمه الآن. عويس لم يهتم كثيراً بتواجده مع عاطف الجامعى أو طاحون فى اجتماع واحد، طاحون لا يدرى أحد حقيقة وظيفته، تقول امرأته إنه سائق قطار فآخر، لكن النساء فى الشاجرات يعابرن امرأته وزوجها العطشى فى السكة الحديد. عويس لا يهتم، لا يعنيه شئ الآن، كثيراً ما يلتقى بأحد سكان الحارة بعد الانتهاء من لنداءاته فلا يتوقف لتبادل الحديث. يكفى بإلقاء التحية الزعفرانية «هذا زمن الفرار...»، لا يعنيه تبادل الحديث مع مأمور القسم نفسه، تقلصت المدينة الضخمة التى بهرت فى البداية، ما يراه منها تلك المسافة المحصورة بين حجرة الشيخ ومأواه، غير مسموح له هو بالذات بمغادرة الزعفرانى، يستسلم لحالة غريبة. أنه يمضى إلى الشيخ، يقطع الحارة متمهلاً، منادياً، يستوعب الآن ما يلقى عليه بسرعة، يأوى إلى حجرته، يتناول طعامه الجماعى. يتأمل السيوت. الوجوه، الضوء الخفى فى غرفته، يستعيد صوراً قديمة وبعيدة من حياته، كأن هذا كله لا علاقة له به، كأن من ينادى أو يمشى أو يمضى إلى لقاء الشيخ آخر، بل إنه ينظر إلى حركة ذراعيه وساقيه أو أصابعه إذ تمسكان بطبق الطعام، يخل إليه أن هذه الأعضاء تنتمى إلى شخص مختلف، كثيراً ما يستبسط أثناء نومه النهارى التعب المنقطع، ينظر إلى جسده فكانه يرى نفسه فى

حلم، يرى عينيه ورأسه وقفاه، عندما يقوم من النوم لا يشعر بأى ترحيب للقاء يوم جديد، أما الطعام فذاق أصنافه واحد، لا يأكل ليستمتع إذا ليستد فراغاً يجب أن يمتلئ، إنه يذكر أياماً بعيدة تنتمى إلى إنسان مجهله. أيامه الزعفرانية يوم واحد متكرر بلا ملامح، لا مجال فيه للحلم أو الأمل، لو عاد إلى البلدة سيكره كل من يراه. «عاصته المدبنة»، أخذت منه كل شئ، ولم تمنحه مرقداً آمناً ولا لقمة هنية، حتى الأسى لا يتقابه إذ يذكر تخيله عن حلمه بامتلاك عربة يد، عربة بيضاء فوقها رسوم ورود، وجود أناث مهتسمات، صور نساء يرتدين اللآلئ اللقب، ولبيل واسم الله على مقدمتها، فى البداية ظن أن الشيخ خير مساعد له على تحقيق حلمه، لكنه شيئاً فشيئاً راح يتأنى عن حلمه ذاته بامتلاكها، يتذكر بأسى جلوسه بمحطة القطار فى البندراذ يمضى إليه أيام الأسواق طفلاً، يرقب بلهفة مروق القطار السريع، تبدو عرباته الرمادية خطاً واحداً، ترج عجالاته الأرض، بعد مرور آخر عربة ينتهى الصخب كأنه لم يحدث أبداً، يحاول استرجاع أيامه السابقة على مجيئه إلى الزعفرانى، مفهى أبو الغيط، أسئلة المعلم عن شوارع البلدة، عن تخيلها، عن كل طوبة فيها، ملاحظها تغيب عن ذهنه لكنه لم يضع حلمه بعودته إليها يوماً، يبحث عن أبنه الحلال التى ستعود معه لتصبحه فى المدينة، يسأل، يختار، ينتقى، ما أسعد العروس، صاحباتها ينظرون إليها بحسد، ستعيش فى مصر، ستزور أهالي البيت كلهم والمشايع والاولياء، وستعود كل سنة مرة أو مرتين ترتدى اللآلئ كنساء مصر، تضع البرقع واليشمك على وجهها، ربما سمح لها عويس أن تصبغ شفيتها بالأحمر والأصفر، أنهن يزيتها ويفصلن ثيابها ويسعين هنا وهناك يشترين لها الحاجيات، تجهزون الحناء، فى أعماقهن حسد برغم ما يبدنه من فرحة، يجلس عويس مرتدياً جلبابه الأبيض وعمامة بيضاء. يدخل السجائر ويتحدث عن المسالى العالية والكبارى والتمويلات ونساء مصر وخلاعهن، وكيف إنه لو ترك

لنفسه من لصاع ، لهذا أثر لم نقسه والمجىء إلى بلدته ينتقى منها ابنه الحلال التي تشاركه حياته وعمره « تسوى له الهدمة واللقمة » .

إن حزنا تحيلا قاسيا يقرى قلبه الآن ، لم يطمع في امتلاك ذك كان أو مقهى أو مركب فى النيل أو التجارة أو العمل ساعيا فى الحكومة ، السر كل ما سعى إليه ، أن يضمن خيزه وغداه ، ماذا اعاقه ؟ من حفر له كل هذه الظروف ؟ أى كراهية يضمنها لمن يجهله ، لا يدري من ؟ من ؟ مع مضي الأيام لم يعد يعينه الا لم ذاته . ماذا بهم وكل لحظة تشبه الأخرى . الأيام لا تأتى بجديد ، يقين قوى داخله يؤكد له أن كل شيء سيبقى على حاله ، لن يحدث تغيير ، لن يرى بلدته ولن يمتلك غربة يد .

ينتظر طاحون إلى جيرانه صامتا . لا يدري ما يعينه لقب « المنذر الأول » ، الأصول سلام لم يبدأ الحديث بعد ، لم يسبق لأحد بين الحاضرين دخول بيته إلا ليهدئه إذ يهدد بإطلاق النار على نفسه ، يود طاحون لو تمكن من نقل ضيقه مما حل به إلى الشيخ ، معظم وقته يقضيه الآن خارج البيت ، المصلحة ، يود لو توارى عن الجميع ، يشع أمر الزعفرانى فى طول البلاد وعرضها ، قال أحد زملائه إن بلادنا غريبة لأن الكثير من الأمور يشيع و يعرفه الكبير والصغير لكن الصحافة تتجاهله ، ارتجف طاحون ، ود لو اختفى عن عيني زميله ، رغبة الاختفاء تتزايد به ، منذ يومين تمنى أن يسقط فى البوابة عندما سمع اثنين فى الطريق يمزحان ، يصبح أولها مداعبا الثانى « يا زعفرانى يا .. » أحد الساعة .. فى المصلحة زرع العامل البوقية . وصفه بأنه يمشى مترخيا وكأنه زعفرانى ، بعد أن طلب طاحون تحويلة أكثر من مرة إلى طبيب المصلحة للحصول على إجازة ، والطبيب يأمر بعودته إلى عمله كل مرة ، تزيد الهمس حوله ، قال بعضهم إنه يرجو شفاؤه لكن محال ، بل أن بعضهم اقتحم عليه مكانه عدة مرات بدون مناسبة مصطحبا بعض الأغراب ليروا الرجل الزعفرانى ، وحدث أن جاء زائر

يوما إلى أحد زملائه فدعاه إلى رؤية طاحون الزعفرانى ، وقف الصيف أمامه وراح يبدي أسفا ، ويقول بصوت مرتفع « لا حول ولا قوة إلا بالله .. » إن لحية نابشة « ، إن طاحون ساخط أكثر بعد تكرار فشله كتابة البسمة ألف مرة ، لم يتشاجر مع امراته عند عودتها ، ناقشها ، لم تسخر منه إنما رجبته ألا يرهقها لأنه يشعل جوقها ثم يتركها ؟ ابتسم ابتسامة ظلت أن وراءها ما وراءها ، أحاط ذراعها ، ضغط صدرها . لكن شيئا لم يحى الأرض الموت . انقلب على ظهره بينما خرجت انفاسها كالضحيج وهمست بحسرة أو جعت قلبه ، « هدنى .. » ارحنى « ، قضى الليل بعيداً عنها ، يتمنى الآن لو طلب من المنذر سلام إبلاغ الشيخ بسخطه وتساؤله ، إلى متى يدوم الحال ؟

إن المنذر الأول يرحب بضيقه ، يقول إن ما سيحدثهم فيه أمور جليلة ، لم يعرفه الحاضرون على حقيقته برغم بقائه أوعاماً طويلة بجوارهم ، لكن أمثاله ممن اعتادوا القيام بأعمال صعبة لا يقدر عليها إلا الصقوة ، يخفى أمرهم عن العميون حتى تحين لحظة معينة ، إن قليلا من الأهالي يعلمون أنه قضى عشرات السنين بعد الطعام للملوك والأمراء ، الزمن الذى لا يبقى على حال غير وأبدل حتى أتى به إلى الزعفرانى ، ولأنه لا يقوم إلا بالكثير من الأعمال فيها هوذا الشيخ يختاره ويصطفيه كى يبلغهم ما يريد ، إن الشيخ يريد الخير للبشر ، و يمكن الحب للمعالم كله ، كل زعفرانى يظن أن ما أخفته الشيخ به أمر صار ، لكنهم لو تعمقوا فكره ، ورأوا ما يكشف عنه بصره القوى لعرفوا أن ما يبدو مصيبة هو فى جوهره خير هائل وطيب وصالح ، يتميز الزعفرانيون إلى الأبد لأنهم أول من اتبعوا تعاليم الشيخ ، لقد درس الشيخ أحوال الخلفاء وتواريخ الأمم وسير الشخصيات العظيمة وأخبار الأوائل وما خلفوه من تراث ومن كتب ، تعمق فى المديانات ، فى العقائد ، نشرب كل الملل والنحل ، استقصى أسباب الحروب ، والمجاعات والكوارث وعلل النفس الإنسانية ، يقول الشيخ للزعفرانيين ، لينظر

كل منكم إلى نفسه ، عندما يولد فإن خياله الطفل يحوى الرغبات والأحلام ، يزدهج بالروى ، أى إنسان ، تطلع يوماً إلى أن يصبح إنساناً عظيماً ، يغير ، يبدل ، بعضهم وثق أنه سيصبح ملكاً أو طبيباً مشهوراً ، مع تقدم العمر تتناقص الأمنيات ، تتواضع الرغبات ، تنقلص الأحلام ، بل إن الإنسان صاحب الرغبة نفسه يحى عند حد معين من عمره ويسأل نفسه متعجباً ، هل تطلعت يوماً لأن أصبح زعيماً أو قائداً أو مهندساً أو طياراً ، ما أخبئنى ..

إن المستر الأول يتوقف لحظات عن الحديث ، بعينه الضيقتين ينظر إليهم . ربما ليستطيع تأثير ما يقوله أو ليتذكر حديث الشيخ إليه . عاطف يتأمل صورة قلعة الوصول ، معلقة فوق الجدار المقابل داخل أطار خشبي على الطراز العربى . مطعمهم بعاج وصدف . شبه قليل يربط بين الصورة والعجوز الجالس أمامهم . ملامح الإنسان ذاتها يدركها التغيير ، الملامح المادية فكيف لا يدرك التغيير ما هو غير ملموس ، ما لا يمكن إمساكه بأيدي . أو رؤيته بعيون ، يتساءل عاطف ، هل يعيش أربعين سنة أخرى ؟ كيف ستصبح ملامحه عندما ؟ هل سيقراً نعى « رحمة » فى المستقبل البعيد مصادفة فى الصحف فلا يترك الموت فيه مشاعر ولا يستثيره حزن ؟ ربما التقى بها فى مستقبل قريب بعد خمس أو ست سنوات ، تدفع أمامها عربة صغيرة يرفق فيها طفل مليح ، لن يختلج له جفن ، لن ترغيف روحه . أربعون سنة ، ثلاثون ، عشر سنوات ، لكم يبدو هذا كله وهماً . هل فكر منذ عشر سنوات فيما بيرون للزعفرانى الآن ؟

فى اللحظة المقابلة لتلك اللحظة التى يمر بها الآن ، منذ عشر سنوات ، هل جال بفكره أنه سيجلس إلى أمثال هؤلاء ، كل منهم يعرف غلة الآخر . يجتمعهم العجز ورجل لا يدرك أحد درجة وعيه بما حوله هو الذى يتقل التعاليم إليهم . يتحدث باستعلاء شديد ، لا يدرك أحد متى سينتهى ما يجرى ؟ كلام هذا العجوز مقدد القوام يعنى امتداد الأمور الزعفرانية لتشمل مناطق أخرى ، إذن هل

سيستمر الحال ، أم سينزاح الكابوس من هنا و ينتقل إلى مكان آخر ، لا أحد يدرك ، عاطف يذكر حمدى الصحفى ، ينتظره الآن على مفهى الدائورى ، عاطف يميل إليه الآن ، لكنه ليس الميل القديم إلى الأصحاب ، سنوات ولت لم ينقطع خلالها عن رؤيتهم يومياً . نبيل ، عبد الرحمن ، فريد ، يسهرتون معاً ، يجوبون شوارع المدينة الليلية ، يستشيرهم فى أدق شؤنه ، لم يخف شيئاً عن نبيل ، فرحة اللقاء الأول برحة نقلها إليه ، يوم أن قالت له « أجبك » تفجرت منه سعادة قصوى ، اشترى زجاجة براندى ، قرأ الأكواب ، تحدث طويلاً ، رغب وقتله فى قص كل ما فى ذهنه وقلبه على صاحبه . حكى عن طفولته ، عن زملاء الابتدائى والإعدادى والجامعة ، عن فتاة رقيقة تهمس عندما تتحدث ، كأنها تنظر إلى بعيد ، زاملته فى الجامعة ، رفع كأسه ، طلب من نبيل أن يشربا فى صحة ابتسامتها التى حيرته زمناً ، أرسل إليها تحية حارة حيث تقيم الآن فى لاهائى هولندية ، لم ير المدينة لكنه يخيل له أنها عاصمة رقيقة كالفتاة ، شوارعها هادئة تتلاصق سقوف مبانيها ، حكى عن أمه ، عن خجلها الأثنى الذى ظل ملازماً لها حتى وفاتها فى السبعين . لم يكتف بافتتاح القلب إنما رغب أن يرى نبيل كل ما يتعلق به . أخرج حافظة نقوده . راح يطلعه على ما تحويه ، نتيجة جيب صغيرة . مذكرة قطار ، ورقة بها أرقام تليفونات . صورة لرحمة كتب عليها « إلى حبيبى الوحيد فى العالم . وإلى الأبد .. عاطف » ، يوشك الآن على الانسجام ، لم يدم هذا الأيد إلا شهوراً ، فى تلك الليلة لم يكف عن الحديث حتى الصباح . أصفى صاحبه إليه . حدثه عن رحمة عن عاداتها ، عن إيقاع مخارج ألفاظها . فى تلك الليلة الراحة دلت صداقتها أبدية . باقية ، فى اليوم التالى كككل سهرة أو لقاء يحدثها عن أصحابه ، عن سهرهم فى المفهى ، أغانيهم الجماعية ، نكاتهم ، ما يقصه كل منهم بعد بلوغه نشوة الشراب ، تبرق عينها ، تعكس رغبتها فى مشاركتهم الانطلاق ، رؤيتها لحظات ميلاد الرغبات المضاجئة ، وعدها أن يخفصها يوماً كل أسبوع للسهر مع أصدقائه ، عاشت أحوال

الآخرين من خلاله أكثر مما عاشته هو، عرفت عاداتهم وأمزجتهم أكثر مما عرفت عاداته وأمزجته هو، في لقاءاتها يحدثها عن الآخرين، تسأله، كيف أحوال فريد؟ هل استلم نبيل ثيابه من التريز؟ هل دفع قسط التليفون المتأخر؟ هل استلم الشلاحة الجديدة؟ سعى إلى أن يعرفها بأقرب الخلق إليه، نبيل، قال لنفسه عندما تعرفه جيداً ستطلع على جانب من شخصيته هو، الأصحاب وقتل امتدادات طبيعية لذاته، لا يدري متى التقى برحمة وأخبرته عن اتصال نبيل بها واستفساره عن أحوالها، قالت إنه بدأ رقيقاً، لحظتها أدنى حماساً، في نفس اليوم اتصل به، رجاء الاتصال بها دوماً، عندما يكلمها كأنه هو الذي يحدثها، لا يذكر الآن متى بدأ يقلق؟ لا يدري متى تسأل، هل اتصل نبيل برحمة أم هي التي خابرتة؟ لا يدري متى اكتشف إنها لا تعرف عنه قدر ما تعلمه عن الآخرين؟ عن نبيل بالذات، حتى علاقاته العاطفية تعرف كل تفاصيلها، صنع من نفسه جسراً بدون أن يقصد، هل أحب مخلوق مثله؟ لقد أحب الجدران والشوارع والأشجار والمتاجر والبيوت التي يتحرك بينها معارفه وأحبابه، ثم جرى ما جرى، وها هو ذا الشيخ يتحدث عن حب شامل أسر، أي حب هذا؟ يضيق بالجلوس هنا، لكن ثمة ما يحيره على الالتزام بكل تعاليم الشيخ، روض لا تطلب منه شيئاً، لا تجهر برغبتها التي تضج بين ضلوعها كأنثى، ما تمناء أن تبقى إلى جواره. اعتاد صحبتها لكنه يضيق بالتصاق جسدها به، إذ يشم رائحته، يشعر بليونته، بالحياة داخله فإنه يقدم على المحاولة، لعل معجزة تتحقق، أو استثناء يحدث، ربما غفل عنه الطلسم ليلة واحدة أو ساعة، تتوهج فبلاته، كثيراً ما يلتصق بها، في لحظة معينة يدرك إنه لا فائدة، يهمل ولا تبدأ هي، ثم تنفك إلى حقيقة ما تعيشه الحارة، يصفو صوتها من اختناقات الرغبة، تهمس أنها تريد القرب منه فقط، ينزل صمت بينها في مثل هذه اللحظات، يرى عاطف نفسه واقفاً أمامها. عارياً تماماً إلا من حزام جلدي يتدلى منه هذا المسدس أسود اللون، ذو المقيض الحاد الخواف، الدائرة الصغيرة الحمراء تتوسط كلا جانبيه.

والجديدة هرمية الشكل التي تعلو قوته، سيفضي هذا على هيئته غموضاً، الرجال حاملو الغدارات قليلون.

النذر الأول ينهي حديثه، يوحى بحفظ كل منظور يذيعه الشيخ، لا يزال في الوقت متسع حتى ميعاد النوم الاجباري، ليست لديه الرغبة في العودة، روض تغسل الأذن الشياب، تجلس متفجرة الركبتين، يضاضتها توجعه، أمام البيت يقف البدان، يضيق عاطف بالحديث إلى الآخرين الآن، غير إنه يرق للعجز الذي أخرج خطاباً ورجلاً عاطف أن يقرأ له، وصله الخطاب صباح اليوم ولم يجد بعد من يفك له كلماته المستعصية عليه، إذا خرج إلى الطريق، سيهرب منه الكبير أو الصغير بحجة إنه زعفراني ممسوس.

يتأمل عاطف المظروف المستطيل ملون الخواف، أربعة أطوار، ثلاثة يشابهون، كل منهم عليه رأس امرأة جميلة العنق، تنظر بوقار، الطابع الرابع عليه باقة ورود ترفعهما يد لم يستطع تحديدها، أهى يد رجل أو امرأة؟ الحروف غامضة، ليست التحليلية، ليست فرنسية، الأرقام التي تعلق سعر الطوايع واضحة، ربما تنتمي الطوايع إلى بلدة تتحرك فيها رحمة الآن، ربما أرسلت إلى أسرته خطاباً الصقت به مثل هذه الطوايع بعد أن تبلى الورق الصغير بلسانها، بالتأكيد أتت. مثل هذه الحركة. ينقبض قلبه. مرض قديم تحركه أوجاع طارئة، بدأ يقرأ الخطاب المكتوب فوق ورق خفيف شفاف، الابن يكتب من ميناء لم يذكر اسمه، لكنه في الطرف الآخر من الدنيا، الليل يبدأ هناك عندما يستيقظ الزعفرانيون، إنه بخير، يعمل فوق مركب يونانية، منذ شهر أرسل إليها عشرين حبتها استراليا وقطعة قماش ومعظف وبلعاً محشواً باللوز، يرجوها ألا يقلقا عليه، كما يمكنها الكتابة إليه على المقر الرئيسي للشركة في أثينا التي سيصلها بعد أربعة شهور من تاريخ كتابة الخطاب. يتوقف عاطف عن القراءة، يقول: هذا

يعسى وصوله إلى اثينا بعد شهرين من اليوم. يقول إن الخطاب تأخر، يقول
البنان إن قلبه اكلمه على الولد في الأسابيع الأخيرة خاصة بعدما حدث
لزعفراني، وانقطاع ساعي البريد قرر الذهاب إلى المقر الرئيسي للبوستة في
شارع الأزهر. هناك وجد بوستة الزعفراني كلها مكسدة في جانب، وبعد أن
طلب منه رئيس المكتب الوقوف على بعد من الحاجز الذي يفصل الموظفين عن
الجمهور. ألقى إليه الخطاب كما يلقي كرة في مرمى، يبدو الرجل متأثراً وهو
يسأل عاطف، هل يعرف موظفاً في مصلحة البريد حتى يساعده في البحث عن
هذا النطر الذي لم يصل؟ يفكر عاطف لحظات، إنه لا يعرف لكنه سيذل
محاولة ربما وفق، يقول البنان إنه كلما سمع بزيارة ابنه لبلدة ما فكانه ذهب إليها
ورأها بعينه، بدا الأمر غامضاً لعاطف، عندما لعب الابن في هذه الحارة
وشارك وأندبه النوم في غرفتها الفقيرة، هل جال بذهنها إنه سيجوب العالم
بحارا. هؤلاء الأغراب الذين يرونه في كل ميناء، الفتيات اللواتي يضاجعهن،
رواد الحانات التي يلجأ إليها فوق اليابسة، كل هؤلاء، هل يرجع أحدهم إلى
الزعفراني؟ هل يفكر مخلوق في العالم بوجود إنسانة مثل روض، كل ما تطلبه
القرب منه، أقصى أمانها الخروج معه والجلوس فوق الحفصة تحت ضوء
الشمس، كم مشكلاتها في الدنيا؟ يد يده مصافحاً العجوز، يثق أن البنان
سيوقف شخصاً آخر وطلب منه قراءة الخطاب، يتمنى ألا يصل ابنه حتى
تنتفج الكروب، منذ سنوات يتمنى رؤية ابنه لكنه الآن بنفس اللسان والقلب
يرجو ألا يخضر، يحار كيف يخبره بما يجري، هل سيصيبه الخطاب الذي يرسله
إليه بتسلف، لن يكتب، ربما ظن ابنه لحاق سوء بوالديه فبهج إليها، يظاً
الزعفراني فتع الكارثة.

يقتررب عاطف من مقهى الداطوري. يخطوناجبة حدى الصحفي،
يفكر أن له معارف في هيئة البريد، تواتيه رغبة له جسوره إلى حدى. المسافة

بينها أقل، لكن لا يزال الحذر يكبل أقدامه. بعد انقضاء عشر دقائق على بداية
حديثها تهاجمه رغبة في الانصراف والعودة إلى الانفراد بنفسه، وسط الجموع
بسخر من زحام الخلق، حوله بالآلاف لكنهم لا يستطيعون التقاذ إليه، يتأملهم
من صندوق زجاجي مغلق، جدرانه لا ترى. بعد تعدد اللقاءات بينها يقن أن
اهتمامه بالأحوال الزعفرانية ليس نابعا من مهنة كصحفى، لم يلمح فيه تلك
اللامبالاة التي تجعل الصحفي يعالج كل الموضوعات بروح واحدة ولا مبالاة.
يقول إن المنذر الأول عقد اجتماعا بعدد من أهالى الزعفراني، انهى خلاله بعضا
من أفكار الشيخ، يقول حدى إنه مهمت بعرفة هذه الأفكار إلا إذا حظى الشيخ
نقلها، ينظر عاطف إلى عقارب الساعة، الزمن نفسه مفيد الآن، مطلق، أمامه
ثلاث ساعات ونصف حتى موعد النوم، يمكنه بعد ساعة للنقى إلى هذا المتجر
يتأمل المسدس، يقول إنه ما أدركه هو رغبة الشيخ في خلق السلام والمساواة،
يسدى حدى إهتماما، يتذكر عاطف اندفاعاته تجاه أصحابه كأنه يرى نفسه في
صورة ياهته، كصورة المنذر الأول سلام أسيرة الاطار الخشبي المطعم بالصدف،
يقول عاطف إن الشيخ يرى طموح البشر إلى المساواة. إلى انتهاء الحروب، أن
يعلم الجميع فوق المصالح، أن يصبح الأول كالأخر، لكن هذا لم يتحقق برغم
تصائب الجبال، وإدعاه كل زعيم أو مفكر رغبة صادقة لتحقيق ذلك، كل جيل
يقول، يستصعب الأسوأ أفضل في السنوات القادمة، لكن لا شيء يسر إلى
الأحسن، صحيح أن ثمة تغييرا وبعض تحول، لكنه تعبير الصورة وليس الخطوة،
ضرب أمثلة بالحروب وتعود المجاعات واستمرار الفقر، تحدث عن النفس
وأوجاعها، كم من الأمور لم تعسم، كم من الشهوات لم ترو، وكم من الرغبات
لم تتحقق، تحدث عن منظور عنوانه « دليل الخيران إلى معرفة الإنسان ». في
وقت معين سيوقعه على الخلق، يقول عاطف إن الشيخ قضى سنوات طويلة بعد
طلمسه، ما جرى في الزعفراني ليس إلا البداية. سيطلمس العالم عندئذ يحقق ما
لم يتقدم عليه التاريخ. يسدى حدى إهتماما، يقول، على الصحافة ذق تاقوس

الخطر، ماذا يجري إذا مات الشيخ قبل فك الطلسم، ما رأى العلم في مثل هذه الظاهرة؟ هل يعتمد الشيخ على قوى خفية أو ظاهرة في تنفيذ أهدافه. أم يعتمد على الانحاء وما يحدثه من تأثير؟ يبدى عاطف شكه في الاحتمال الأخير لظهور حالات العجز قبل سر يان أى خبر عن الطلسم، يقول إن الشيخ سيصدر تقويماً جديداً بحيث يوحد في المستقبل البعيد بين مختلف التقاويم في البلاد.

سيبدأ هذا التقويم من اليوم الأول لطلسم الزعفراني، سيقسم الأيام والشهور والسنين فيه طبقاً لما سيتم من خطوات في سبيل تحقيق كل ما حلم به البشر، يضحك حمدي، إذن سيجدون أنفسهم في عالم مطلسم. يقول عاطف، تقصد علماً عاجزاً، من خلال هذا العجز سيعيد الشيخ تعديل الأوضاع، يسأل حمدي هل رأى عاطف الشيخ؟ يقول إنه لم يره أبداً لاحتجابه، لم يذهب بنفسه في المرة الأولى ليشكو ما حل به، عندما ذهب سمع صوتاً قوياً ولم يره لأن الساترة التي تقسم الغرفة جعلته يجتأ عن النظر.

من مقعد مقابل ينظر إليها الداطوري. يعقد يديه أمام بطنه، بعض المارة يتوقفون ليشيروا إليه وإلى عاطف، عاطف لا يعبأ، يوقن أنه سيجري كل هؤلاء مزعفرين عندما تنفذ مشيئة الشيخ، يسأله حمدي عن أحواله؟ هل يحدثه عن المسندس الذي قرر شراءه، هل يحدثه عن أشواقه لرحمة، هل يحدثه عن صورة المنذر الأول سلام القديمة الياقة؟ لكنه يقول «أخباري عادية»، يقول حمدي بدون مقدمات إن بطاقة وصلته من زوجته السابقة، يبدى عاطف اهتماماً، كيف، ماذا كتبت؟ يتوقف فجأة عن تدفق الأسئلة كما بدأها فجأة، يقول حمدي إن البطاقة جميلة جداً، من ورق فاخر لم يره مثيلاً هنا، ولونها يميل إلى زرقاء سماوية، ثمة فروع نخيلة خضراء مرسومة، يتخلل كل فرع خط أبيض

مخيل، كتبت مطراً، تذكره بالخير وأن البطاقة أعجبها فارستها إليه، لم تترك عنواناً، ربما رغبة منها في إقامة حوار من طرف واحد، ربما ليس حواراً على الإطلاق، إنما رغبة ذكرى عابرة حركتها لأرسال هذه البطاقة، يقول إن هذه البطاقة كدفقات المسحراتي في الليل لكنه لا يفضي عليها أكثر من قيمتها، يعرف أنها لن تعود إليه، وحتى لو طرقت الباب يوماً، هل سيجدها نفس الإنسانية، هل ستجده نفس الإنسان؟ يتسم عاطف، مسحراتي الزعفراني يعيش مأساة، أحببت امرأته مفرس ابنها وذهبت إليه، ويبدو أنها الزعفرانية الوحيدة التي لم ترجع خائبة وثمة أقوال تتروى عن سعادتها، رأس الفجلة يقف يوماً في الشرفة ينظر إلى مدخل الزعفراني كأنه ينتظر عودتها، وقف أكثر من مرة في ثيابه الداخلية غير مبال بنساء الزعفراني، سمعه البعض يكلم نفسه بصوت عال، وقيل إنه يتجرد تماماً من ملابسه في الشقة، وينظر إلى جسد سحبل وساقه الرفيعتين، وضلوعه البارزة، يدركه حزن غامر على نفسه، يقبل جسده ويعلم صوته في البكاء كالأطفال، ينوح «لا تزعل يا رأس الفجلة»، لا تحزن يا رأس الفجلة» إنه يخاطب نفسه بالقلب الذي رفض سماعه سنيا، يقول حمدي، إنه سكنت بعد سفرها، لم يذل محاولة واحدة حتى ترجع عن قرارها فيما عدا دخوله عليها تلك الليلة عندما بدأ كل منها ينام في حجرة، بدأ سفر امرأة حمدي غرباً لعاطف، يلعب السفر دوراً غامضاً في حياة المحبين، يورث حزناً في أي الأحوال، الشوط النهائي للفراق، هل سيأتي يوم يعشق امرأة، يجرها ثم نعانى من أجله؟، يسأل، الا ترغب في السفر؟ يقول حمدي مستفسراً، إليها؟ يهرع عاطف رأسه نقياً، يقصد السفر من أجل السفر، إنه يحن إلى الرجل، يرى نفسه متوقفاً في الموانئ والمطارات ينظر إلى المسافرين بدعشة وانحجاب إلى المسندس الذي يتمنطق به، لن يدعه بعيداً عنه، لن يضعه في حقيقته. إنما سيتمنطق به، حتى في خطوات نومه بالفتادق الجبلية، أو ذهابه إلى مطعم ناعس أبيض، يقول حمدي إن ما يريغه سيثير دهشة عاطف، يود لو قابل الشيخ،

يصنع إليه . أحيانا يجيل له إن هذا الشيخ لا وجود له على الإطلاق ، وإن أهالي الزعفراني وقعوا ضحية أمور غامضة . يظن عاطف شفتيه ، لم يرد ، تدركه رغبة في الابتعاد ، يسلك حدى ورقة وقتلا ، ربما يكتب بعضا مما قاله عاطف عن التعاليم ، أو يدون ملاحظات معينة .

الداطوري يرقب عاطف ، لا بد أن الأفندي الجامعي فهم تعاليم الشيخ أكثر مما أدركها هو ، ما سمعه يبدو كتندير مصيبة ، ما معنى طلسم العالم ؟ قلب نظام الكون ، بالأمس تنبه الداطوري إلى أمر أزعجه كثيرا ، لم يقلق لندرة رواد المقهى ، لأعراض أصحاب الدكاكين والورش عن طلب المشروعات منه ، لديه مدخر يكفيه لمواجهة الأيام الصعبة ، مطالبة محدودة ، ولم يرتبط طوال عمره بكيف معين برغم ملازمته المقاهي طوال عمره ، ما أدمى روحه ، اكتشافه مرور أربعة أيام بدون أدنى تفكير في مشروع العمارة ، ليس لقلّة الرواد من المقهى ، أو لكلف السمسرة عن التردد عليه فأكثر الأوقات تفكيراً في العمارة أثناء انفراده بنفسه ، وبرغم ازدياد خلواته في الأيام الزعفرانية ، فإنه لم يفكر في البناء ، لم يخص كميات مواد البناء المطلوبة ، لم يجز العديد من العمليات الحسابية في ذهنه لتسعين أسعار الحديد والأسمنت ، لم يتخيل ما سيجرى بينه وبين لجان تقدير الإيجارات ، الأدهى من ذلك نسيانه أسماء بعض الذين قرر إسكانهم في العمارة ، منذ فترة ناقش نفسه ، هل سيقبل الناس سكنى عمارة صاحبها زعفراني ؟ ألن يخافوا عدوى الطلسم ؟ ألا يهابون فقدان القدرة ؟ أفتع نفسه بأن أزمة السكن ستجلبهم يرضخون ، ثم إن الطلسم لم ينص صراحة على انتقال عدواه في مثل هذه الظروف ، برغف قلبه الآن ، هل نسي ملامح البناء أيضا ؟ لقد استقر رأيه بعد العديد من المشاورات أن يجعل المدخل رحبا ، قسيحا ، أن يبنط الأرض والجدران بالرخام الوردي اللون . أن يثبت في زوايا السلم مقاعد

رخامية ليستريح عليها المسنون والمتعبون أثناء صعودهم ، نسي لون الطلاء الخارجي ، صحيح أنها مرحلة نهائية ، بل يحدث كثيرا في هذه الأيام أن يأتي السكان ويقيمون بينا البناء لا يزال طوبيا أحمر أو سفالات البياض لم تنفك بعد ، لكنه قرر ألا يدخل واحداً من السكان إلا بعد إتمام كل شيء ، ما يجزئه الآن . نسيان لون الطلاء ، أيضا لون الأفاريز ضام نهائياً من عقله ، يدير أصابعه حول بعضها محاولا التذكر لكن عبثا ، يود لو جلس أحدهم إليه ، لو جاءه أحد الناس الذين قضوا زمنا يربحونه حيز شقة ، يبادلهم الحديث ، بل يتساءل الآن لأول مرة ، هل سينسى العمارة حقاً ؟ هل يكفي المبلغ الذي أذخره أو ينوى إداره ، حتى لو باع المقهى ، هل سيتغلب على أسعار البناء التي ارتفعت ارتفاعا فاحشا ، الداطوري لا يرى ماذا حل به ؟ هل يقدم على خطوة عقلية فيشترى الأرض غدا ؟ حولة بسيطة مع السمسرة وبتقنى واختار ؟ لا شرط له إلا وقوع الأرض في الحى القديم ، لا يأس من هدم المقهى وبيعها في مقابل اعداده مكانا قسيحا لمقهى حديث تحت العمارة ، يحوى مناضد كثيرة وجهاز تليفزيون ليرى الزبائن مباريات الكرة وأفلام ليلة الخميس ، وركنا خاصا لهواة الشطرنج ، وسيوصى أحد المسافرين إلى لبنان بشترى جهاز تسجيل يتبع عليه تسجيلات أم كلثوم ، لكن هدم المقهى الآن ويبيعه سيخسره كثيرا ، سيقبل سعر المتر لأنه زعفراني ، أن يعدم مشترى ما ، فالبعض سيري في ظروفه فرصة ، يشترى الآن المقهى بخص بخس ، وبعد زوال الأحوال الزعفرانية سيرتفع ثمنها ، لكن ... لون الطلاء ، هل نسيه بسهولة هكذا ؟ الداطوري يلمح البنان يعيش متمهلا ، يحمل مطروفا ، مطلب إلى العديدين قراءته ، يرق الداطوري فجأة حتى ليوشك على اليكاء إذ يتخيل ابن البنان مبحرا عبر العالم ، أبوه يعرف أخباره من خطابات أو خطا بين في السنة ، ثمة فجوة في نفس الداطوري ، نوترج وأتعب لصار ابنه الآن مهندسا ، لصار أفضل مستشاريه في أمور البناء ، لأشرف بنفسه على التصحيحات ، يعجب الداطوري ، طوال حياته لم يشعر بحاجة إلى أن يصبح أبيا ، إنه يحب

الأطفال ، بل عليهم يوزع عليهم القروش في الأعياد ، شيان الزعفراني يذكرون عبيدية الداطوري في طفولتهم ، لم يتصور نفسه أباً في يوم ما ، عاش بروج قريية إلى الطفولة ، يوشك على التحلى عن وقاره واللعب مع بعض الأولاد إذ يرون أمام المقهى يتصاحون ، يتبادلون الكرة والشتائم . يتابعهم راضيا ، تبقى انفعالاته تحتية ، محفلة تحت ملامح وجهه الطيب ، لأول مرة يشعر الآن بحاجة إلى طفل ، إن خوفا غامضا يدركه وحزنا سنيا يجعله موشكا على الكاء ، صباح اليوم قابل الأسطى عبده زوج الست بيته ، عاد إلى الزعفراني بعد غيبة ، بعد اختفاء امرأته ، سألها عنها .

قال إنها تجرى في الشوارع هربا من الموت ، تخاف النوم حتى لا يدركها الموت ، أقابلت عديدين ، قالت إنها ستهرب من الموت في الجيزة ، إذا شعرت به مازال بطاردها ستختفي في النيا في قنا ، في أسوان ، إذا يشت من الحرب في مصر ، ستختفي في السودان ، في الحجاز ، لكنها لن تموت ، لن تسمح له بأن يكتم أنفاسها ، قال الأسطى عبده إنها تجرى ناظرة إلى الخلف كل دقيقة ، حاول إقناعها بالعودة إلى الزعفراني لكنها اقلت منه . يتضاعف حزن الداطوري ، يذكر سهرات بيته ، دعونها أصحابها كل خميس ، ارتفاع التصفيق وعزف العود والقانون من مسكنها ، وصوت غنائها ، يحزن على المقهى الذي هجره زبائنه الأصليون ، يحزن على البنان الحائر برسالة ولده ، يحزن على الجرسون المعجوز الذي ربط نفسه إلى مصر المعلم والمقهى ، لا أسرة له ولا مأوى ، يتمدد فوق الدكة آخر الليل . وفي الصباح يقوم قبل السادسة ليشعل الركوة ويرش الأرض ، على رأس الفجيلة الذي هجرته امرأته بعد عمر طويل ، على غاطف الذي غادر المقهى منذ لحظات تاركاً هذا الصحفى الفضولى ، على الصحفى ذاته وما تشتمنته مهنته من متاعب وأخطار . على الخيلاء الكاذبة التي نزلت على المنذر الأول سلام ، على حسن أنور الطيب ، ابن الأصون ، الذي لا يفارق شرفته

الآن مرتديا الذى العسكرى باستمرار ، على إنه سمير الذى طفش ، لا يدري أحد مقره ومشواره يحزن على سنوات عمره الضائعة ، لم يتزوج ، لم يعرف الكيف ، لم يحزن اللذات ، لم يمارس البهجة ، لم يصحب دياب تاجر الوراق والزهنورى وباعيسى فى نزهاتهم الليلية ، يفنون ، بطربون ، يدخلون الحشيش ، إن دموعا صامتة تسيل على وجنتيه الآن ، بينما يقترب منه على المكوجى مترعاً ، غمورا ، يرفع يديه زاعقا ، سيجىء الفرع من الهند ، سيجىء الفرع من الهند .

تقرير عاجل مرفوع الى اللجنة العليا للاحوال الزعفرانية

« اسفرت الجهود الشاقة التي بذلها رجال الأمن ، جميع القروع عن تجنيد شخص زعفراني ، «قابل وعد بالشفاء العاجل ، وهكذا يمكن القول أن الزعفراني لم تعد منطقة مغلقة بعد أن ظلت كذلك طوال الفترة الماضية ، لقد واجهتنا صعوبات عديدة لاعتقاد الأهالي القوى أن الشيخ يعلم كل تصرفاتهم ، من ثم فقد يلحق بهم أضرارا ، لكن استطعنا تجنيد هذا الزعفراني بعد جهود مكثفة ، من ناحية أخرى يتيح لنا هذا فعلا إمكانية دراسة حالته العضوية عن طريق عرضه على أكثر من طبيب اختصاصي لتحديد نوعية العجز وإمكانية مقاومته ، وقد رفعنا تقارير الأطباء الذين قاموا بفحوص دقيقة على هذا الزعفراني إلى المشرف الأعلى على الشؤون الصحية ، وقد ثبت فعلا وجود حالة فريلة تتلخص فيما يلي : —

- ١ — العجز عن الانتصاب .
 - ٢ — اختفاء الحيوانات المنوية اختفاء تاما .
 - ٣ — سلامة الجهاز التناسلى ، وعدم وجود أى التهابات به أو أمراض .
- ونظرا لتفرد الحالة ، أطلق عليها الأطباء « النعنة الزعفرانية » ، وحاليا

تقوم هيئة طبية كاملة بدراستها ، وقد أفاد هذا الساكن الزعفراني بمعلومات قيمة ،
لنجزها فيما يلي :

١- الشيخ يقوم بطرح أفكار معينة ، لا يهدف من ورائها إلى تقويض
نظامنا الاجتماعي فقط ، إنما إلى هدم النظم الإنسانية .

٢- يدعى الشيخ إن العقل البشري لا يزال في مرحلته البدائية ويرغم
إنجازات العلم فإنه لا يزال متخلفاً ، والأمور الهامة التي تحكم مصير البشر غير
معقولة ، وغير مفهومة ، وضرب مثلاً بالحرب ، وقال إن الإنسان يحلم بإنهاء كل
الحروب لكن الذاكرة الإنسانية ضعيفة ، لهذا تنشب الحروب من جديد ، وقال
إن قابيل وهابيل مازال يعيشان .

٣- ضرب مثلاً بالعدالة ، قال إن فكرة العدالة نسبية ، تتلون طبقاً
للنظم وما هي إلا مخدر يحلم به الإنسان منذ فجر وجوده . لكن هل تحققت ؟ إن
الناظر إلى الأوضاع البشرية الحالية يجد تحققها عبثاً ، لا فائدة في أي مفكر أو
مدع بوجود نظرية تقول بالعدالة وهذه من الأمور التي تدل على عقم العقل وقصر
النظر ، يولد الثامن متساوون . ثم تبدأ الفروق . يحدد لكل مولود مساره الناتج
عن ظروف لا علاقة له بها ، يقتنع البشر بالظروف لدرجة أنهم يتقبلون أكثر
الأمور شذوذاً على إنها أوضاع طبيعية ، فيموت الآلاف جوعاً ، ويموت العشرات
نخمة ، نشهق الأبنية العالية وتتواضع أكواخ الصفيح ، العدالة أمر لا يمكن تحقيقه
إلا بعمل خارق ، عمل بمثابة الطمة على وعى الإنسانية ، يضعها في مواجهة
الخطر ، يهدد الوجود والأبدية ، من خلال هذا الوضع يمكن تحقيق ما يصبوا إليه .

تلك بعض الأفكار العامة التي استقيناها من الزعفراني ، ونظراً لخطورة
الموضوع رأينا معالجة الأمور بسرعة تامة ، وقد فاء إلى معلوماتنا أن أحد الأعضاء

مجلس المنتخبين الشرعيين ، قرر توجيه سؤال في المجلس إلى المسئول الأعلى عن
الشروة البشرية ، بخصوص ما يجري في الزعفراني والإشاعات المرفضة التي
تطلق في الداخل والخارج ، وفاء إلى علمنا أن هذا العضو - هو منتخب عن الحى
القديم - ينوى في حالة عدم وضوح الإجابة المطالبة بتشكيل لجنة اتقصي حقيقة
ما يجري من أحوال زعفرانية ...

نص بتأثيرات دونت على التقرير السابق :

- ١- تدعم قوة الشرطة السرية المنتشرة حول الحارة .
- ٢- يتم التركيز على متابعة المسجون السياسي السابق رهانة ، والمشبه
فيه « لولى » والتأكد من عدم وجود أى صلات بين أحدهما وأى دولة أجنبية .
- ٣- يتم الاتصال بالرئيس الأعلى لمجلس المنتخبين الشرعيين ، ومنع
مناقشة أى موضوع يتعلق بالزعفراني في المجلس .

محاولة انقاذ الموقف :

« كتب المحرر العسكري »

أبدى الزعيم حسن أنور اهتماماً شديداً بما يجري على الجبهة الوسطى ،
على أثر قيام الشيخ بمشدد فرق الهجوم وتوجيه ضربة رئيسية ، وذلك بإفذاره أهالي
الزعفراني عن طريق مستشاره الأول لشئون الفكر ، المارشال سلام ، ونفسي
الانذار استمرار الأحوال إلى أجل غير مسمى لكنه قريب ، أيضاً قام سيد أبو
الحناطى بتوجيه الانذار الثالث إلى الزعيم والقائد ويتضى بفصله نهائياً من
المنصحة ، هذا ، وقد انتقل الزعيم بنفسه ، صباح اليوم إلى موقع القيادة الميداني
بالجبهة الوسطى حيث تدور سلسلة معارك رهيبية ، طاحنة .

برقية صحفية:

تقييد الأخبار أن أكثر من محاولة بذلت لاغتيال الزعيم ، تمت أبرز هذه المحاولات أثناء انتقاله من مركز القيادة الرئيسي بالشرق المطلة على أرض المعركة بالزعراني ، إلى النافذة الصغيرة بالحجرة المجاورة للصالة . والتي تضم موقع القيادة الميداني الحصين ، على أثر هذا بادر المارشال حسان رئيس الأركان بتعقب فرق الاغتيال .

أمر سرى .

تدفع كتائب الهجمات الصاعقة التابعة لفيلا مارشال اتبلا إلى أعماق العدو .

بداية الهزائم :

لم توفق جهود حسان ، ومساعدى والدته فى منع الصبية من التحرش بحسن أنور ، وقتله اليومية تغريم بمناوشته ، خاصة عندما يعلو زعيقه غاطبا القادة الذين أبدوا إهمالا . بالأمس ، راقبه بعض الأولاد من فوق السطح المقابل قذفه أحدهم بحجر أصابه فى كتفه . علا صراخه « أين هملر .. أين هملر ؟ إنه لا يخشى محاولات الاغتيال .. يجب أن يظل قدوة للرجال ، أقل هزة تبدو عليه ستنعكس بشكل مباشر على جميع المحاربين فى كافة ميادين الحرب ، الصور المتلقطة له التى تتناقلها وكالات الأنباء والصحف يجب أن نعب عن التماسك والشباب منها أشتدت الظروف ، اضطرت حسان إلى الذهاب بنفسه إلى أسر الأطفال ، لم يأت هذا بنتيجة ، يبدو أن الصغار وجدوا فى معاكسة حسن أنور سلوكى تعوضهم عن فقدان مجالات اللهو واللعب ، بعد تعذر ذهابهم إلى الحارات

الأخرى . أو الخروج فى رحلات استكشافية إلى الحلاء أو المساجد القديمة ، يضاف إلى هذا أن أولياء أمورهم متعوهم من الذهاب إلى المدارس للتحقيق بها نظراً لما واجهوه من مضايقات وصلت فى أحد المواقف إلى أن بعض التلاميذ طرحوا يوسف بن طاحون ، وخلصوا ثيابه كئها بغرض الكشف عليه ، ومحاولة معرفة ، هل يشبههم أم إنه يختلف نتيجة للطنسم ، استدع حسن أنور أبنه ، طلب منه الوقوف إلى جانبه طوال اليوم ، أبدى حسان ضيقا ، لن يستطيع ملازمته ، دهش حسن أنور ، قال إن هذا أمر ويجب الامتثال له ، إن حسان قادر على مناقشة والده لفتحات طويلة ، أحيانا يشترك فى استعراض أدق التفاصيل الخاصة بسير المعارك ، يتفعل و يبدى إهتماما ، لكنه لم يفكر فى ملازمة والده باستمرار ، لن يتمكن من متابعة دروسه ، البحث عن شقيقه واستقصاء أحواله ، لن يستطيع الذهاب إلى رمانه ، مضى عمره باسرع مما يتصور ، عندما مر بعض حسان بدا له سن الثلاثين نائيا ، استغرقه العمل ، الحرب من البوليس ، سنوات الاعتقال الطويلة ، كل هذا حال دون دخوله علاقة متكاملة ، إنه لا يتدم على هذا ، ولكن ذلك أحد الأسباب القوية التى حرمت الحق فى الاختيار ثم الاستقرار ، كلما تقدم الإنسان فى العمر قلت الفرص المتاحة له ، ليس فى الزواج فقط إنما فى كل شىء ، أحيانا فى لحظات ضيقة يظن ضياع كل ما سجن من أجله . عندما دخل السجن لأول مرة جاء إليه أحد زملائه . همس عذرا من الأفرط فى الحديث أو الأدلاء بأى معلومات لأن بعض الزملاء على اتصال بالادارة ، ينقلون ما يدور فى العبر مما يساعد على تطوير التحقيق وكشف بعض الجوانب ، أخفى رمانه دهشته ، كيف يوجد بين الزملاء من يعمل لمصلحة الادارة ؟ أرقه التفكير ، لكن فيما بعد عرف كيف يتحول الإنسان من النقيض إلى النقيض . من السهل القول بتغير إنسان ، لكن الشعم متابعة ذلك التغير والسقوط ، سكنت رمانه ، قال إنه لا حدود لامكانية تغير الإنسان ، كثيرا ما يصبح هذا موحعا ، رأى الكثير ين يتخلون عن القضية ، وعندما رفض حل

الخير أبلفوا عنه ، لكن تعرفه إلى حسان . فيه عزاء وأى عزاء ، إن لقاءات حسان برمانة أصبحت شيئاً أساسياً ، أيضاً الفترات التي يخرج فيها إلى الخلاء القريب ، يجلس فوق حجر . أو مقهى صغير لا يأتيه إلا سائقو عربات النقل ، حسان يضيق بأحوال والده ، يحرص على اختيار الصبيغ التي يرفض بها طلبات والده ، خلال الأيام الأخيرة يشعر الزعيم بخواء ، قواته الضخمة ، كبار قادة التاريخ ، أشجع الرجال . كل هؤلاء لم يستطيعوا إلحاق خسائر موجعة بالجانب المعادى . لا يزال أبو المعاضى يشن الهجمة تلو الهجمة ، يرسل الخطاب بعد الخطاب ، بضرية بارعة قطع الامداد الرئيسى ، أوقف الراتب الشهرى ، أما الشيخ فيحكم قبضته ، لكن الأدهى تعاون ابنه سمير مع الأعداء ، لا يثق إلا بابنه حسان . لهذا استدعاه ، طلب منه ملازمته ، قال إنه لم يهتز بسبب المواقف الأخيرة ، سيشن هجمات مركزة ضد جبهة عبد العظيم أفندى الجواهرى ، وصاحب البيت المقابل ومدير المستخدمين ، يجب على حسان فقط تحمل مسئولياته ، قال حسان إنه مخلص لوالده وزعيمة . نكن هذا المطلب الأخير لن يلتزم به نظراً للعديد من الأمور التي يجب إنجازها ، قام حسن أنور واقفاً ، صاح بصوت مرتعش « هذا أمر » ، إن حسان مع مرور الأيام تتباه حالات ضيق ، فى البداية ظن ما جرى لوالده عارضا ينشئ بعد يومين أو ثلاثة ، لكنه أوغل فى طريق لا رجعة منه . تذكر بالأمس قبل نومه ، بكى تأثراً ، لم يتوقع يوماً رؤيته أبنته هكذا ، من السهل أن يسمع بحنون فلان ، ولكن مالا يستطيع احتماله ، رؤيته فى أقرب الحلق إليه . ناء باهم . وقف ، خرج فجأة ، لوبقى لحظة واحدة ربما أنهار باكياً ، لا يدرى إلى أين يذهب ؟ هل يجلس قليلاً بمقهى الداطورى ، هل يذهب إلى الخلاء ، لكن ميعاد النوم الزعفرانى أقرب ، صعد السلم إلى حجرة رومانة ، فى البيت أسرع أمه إلى الحجرة عندما سمعة صوتاً متحشرجاً ، رأت وجه زوجها متصلباً ، شفتاه ترتعشان ، تصدر عنه أصوات مكتومة تحار الأذن فى تصنيفها ، ونسبتها إلى الإنسان أو الحيوان ؟ روحه مصابة بخرج

عميق ، صيحات عديدة تطالبه بالاستسلام ، ها هوذا رئيس أركانه ، ابنه الأكبر يتخلى عنه فى أوجع اللحظات ، ستردد ذلك الاذاعات المعادية ، مستهار ممنوبيات رجاله ، قاداته يهربون ، روميل ينتحر بالنم بعد فشل الهجمات الصحراوية ، جنكيز خان يقع أسيراً ، طائرات جورنح تنهوى كالثذاب ، روحه تنتفض ، هل يقدم على ما يفعله القادة الكبار فى مثل هذه الظروف ، يصوب الطلقة الأخيرة إلى رأسه ، لكن يجب أن يسقط واقفاً ، الانتحار هروب ، لئلا يتسك بشجاعة الاستسلام ، يهز امرأته ، لتكف عن البكاء ، وتواجهه معه مصير قائد عظيم .

« ملف خاص : الثورة ... »

خلال الأيام الأخيرة نقل عويس القران عدة تعاليم مباشرة صادرة من الشيخ إلى الزعفرانيين بدا بعضها غامضا . والآخرون مزعجا برغم اعتيادهم على صدور عدد من الإجراءات التي تغير حياتهم تدريجيا ، بالأمر أعلن عويس أن الشيخ ينوى إعادة تنظيم الأمور في الزعفراني بحيث يجب على كل ساكن الاستعداد لمغادرة بيته إلى شقة أخرى ، في اليوم نفسه عقد سلام المنذر الأول اجتماعا ، دعا إليه عددا محددا من الزعفرانيين ، عاطف ، حسان ، الداطوري ، أحمد التجار ، البنان ، قال إنه عن قريب سينهى إليهم البشري ، بعد حين قصير لن يتجاوز ساعات سيجدون أنفسهم جزءاً من كل ، سيحتل الزعفرانيون مكان الصدارة في قلب العالم ، لم يدعهم ليقول لهم هذا فقط لكن لينفهم بعض الأفكار الجلية . تحدث طويلا عن القنوات والمسارات التي تتخذها حياة البشر ، كيف يحيد بعضها عما اشتبه الإنسان ، ما يريده الشيخ هو إتاحة حرية الاختيار بالنسبة للإنسان . ثم ذكر نصوصا وتلا سطورا تدور حول حق إعادة الاختيار ، قبل انتهاء الاجتماع طلب من عاطف إبلاغ حسن أفندي أنور سخط الشيخ لتخلفه عن حضور ثلاثة اجتماعات دعى إليها ، نزل عاطف متوجها إلى بيت حسن أفندي ، إنه يعلم بعض أحواله من الزعفراني ، يراه واقفا في الشرفة مرتديا حلة عسكرية قديمة ، عاطف يدرك مشاركته لما يجري من أحداث زعفرانية غريبة ، قطع شوطا غامضا ولا يدري ما ينتظره . هذا ما يجعله كايما ، فتحت امرأة حسن أفندي الباب ، عينها منتفختان بتأثير بكاء ، كتفاها منحبتان وكأن ثقلا ضغطها إلى أسفل ، خيل له أنه لمح برقا في عينيها عندما رآته ، طلبت منه الانتظار لحظات حتى تغير زوجها . ليس عنده مانع في مقابلته ، أبدت تهللا وبشرا ، همست ، إنه لأول مرة يوافق على استقبال ضيف ، ساءت حالته خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ، لكنها تأمل أن تخفف عنه هذه الزيارة ، دخل الغرفة جلس حسن أفندي ، انقبضت روح عاطف ، يمكنه أن يلوح نهاية شيء ما في الرجل ، حسن أفندي مستند إلى خافة مقعد ، حلة العسكرية

مفتوحة الأزرار ، رباط الحذاء مقكوك ، بسط أصابع يديه فوق منضدة من الصاج ، لحيته طويلة ، الأرضية مغطاة بأوراق وخرائط وأقلام رصاص . وأقلام ملونة ، قام على مهل ، نظر إلى عاطف مستسليا حتى بدا أن حركة واحدة من أصبعه كفيلة بتوجيهه إلى أي اتجاه ، قال بصوت خافت ، إنه يقبل كل شيء ، لكن ما يرجوه من المندوب المهذب ضمان معاملة تليق به ، حار عاطف ، منظر جاره يثير في أعماقه أشد الأحزان . أن حياة مضت منتظمة سنينا طويلة تنهار وتخرج عن تطورها الطبيعي ، تسلك درويا وعرة الاكتشاف ، بدت رحمة له عندئذ نائية ، بعيدة ، جهد في استرجاع ملاحظاتها . روض تطل عليه بوجهها الطيب ورفقاتها المتواضعة واستسلامها الخنون ، لا يدري لماذا تذكر مشيه ذات ليلة قرب كشك أخضر الطلاء ، شابان يندفعان فجأة ، ينحنيان فوق الأرض بجوار الكشك ، تعلو ضحكاتها ، يجلجل عبيها ، مدا أيديها إلى رجل لائم فوق طائفة ، تبينه عاطف بصعوبة ، في صيحاته شقاء ، شعر برثاء غامر تجاهه ، بدت الحياة له غريبة . مستعصية على الفهم . ما جرى له أو ما جرى لحسن أفندي الذي ضرب به المثل في الاتزان والعقل ، قال إن كثيرين يحملون السلام إلى الرجل الطيب . انفض حن أفندي ، قال إنه لن يقبل رثاء ، وأنه لم يقبل الاستماع إلى شروط الاستسلام إلا ليحمي أرواح جنوده المخلصين . ليعلم هذا الشيخ وسيد أبو المعاطي . هنا سمع عاطف بكاء خافتا ، همس المرأة « يا خراب بيتنا » ، يسأل عن حسان ، قالت إنه لا يجيء إلا في ميعاد النوم الإجباري ، طوال اليوم لا يترك رمانة السياسي . رجعت عاطف أن يطلب من رمانة ترك ابنها الذي لم يعد لها إلا هو ، قال عاطف إنه لن يقصر لكنه يرجو حضور حسن أفندي الاجتماعات التي يدعو إليها الشيخ ، مرة أخرى صاح حسن أفندي معلنا أنه ينهزم واقفا ولن يركع ، نزل عاطف متمهلا ، خرج من الزعفراني ، لم يفكر في الوقت المتبقى على ميعاد النوم . قطع الشوارع المزدحمة إلى متجر السلاح ، تردد عليه كثيرا خلال الأيام الماضية . توقف أمام المسدس الصغير في يوم واحد سمع

مرات ، في صغره اذ يستمدد فوق السرير يرقب الجدران والمقاعد ، يتخيل الأشياء تسمع وترى ، يتبادل حديثا صامتا مع المناضد ، والجدران ، يثق أن المسدس يعرفه ، يهيب به أن يحسم تردده . ان يتمنق به ثم يزهو محتالا ، بالألمس تمددت روض إلى جواره ، تميل عليه ، تقبله ، تمر يدها على شعره ، اذ تشعر بقلقه ، تحيطه بذراعيها ، ترجوه ضمها بكلتا يديه التي تمنعه من محاولة تفشل و يعقبها ضيق ، تهمس بأخبارها اليه ، شقيقتها لم تعد تهددها أو تضايقها ، ليس بسبب الظلم ، إنما لعلاقتها بعاطف ، لوجود رجل بدور حوله اهتماماتها ، يشغلها ، قالت إنها أثناء نشر القسيل وقعت فوطة وجه قديعة على جارتهم خديجة الصعيدية ، لو حدث هذا في أيام عادية لصاحت وقلبت الدنيا ، إنها تهوى الحناق والفرجة على المشاجرات ، حتى انها تكافىء أى صبي بتعريفة أو قطعة حلوى لو أخبرها عن وقوع مشاجرة خارج الزعفراني ، عندئذ تلتف بعلامتها ، تترك طبيخها فوق الموقد وتمضى لتحتل موقعا مناسباً وتتابع المشاجرة ، زعمت أم سهر أن خديجة الصعيدية تعرض لو انقضت أيام بدون أن تشهد خناقة ، قالت روض إن مشاجرات خديجة تلفت النظر بلهجتها وعدم استخدامها السباب أو الألفاظ القبيحة ، إنما تصبح بصوت عال ، متوجهة بالحديث إلى شخصها ذاته ، تسب نفسها وحفظها المائل الذي جعلها تتعامل مع أمثال فلانة أو علانة ، أو نسكن تحت هذه ، أو تشتري من تلك ، قالت روض إنها تبدو مزعجة بحديثها الذي لا يمكن إيقافها إلا بجملة واحدة ، أن يصفها أحد بمجيئها إلى الزعفراني من وراء الجماموسة ، عندئذ تبكى وتصرخ ، طول خناقتها الغريبة تلك يتيح الفرصة لتاجرة المكرونة ، تساءل عاطف بدهوة .. من هذه ؟ ضيقت روض عينها كأنها تقول . ألا تعرفها حقا ؟ نفى ، قالت إنها نبيلة المدرسة ابنة « الحمورجي » ، إنها تطبخ يوميا حلة مكرونة ، تحشوها الأرغفة ، تبعها تلاميذ مدرستها غصبا ، أم سهر كشفت سرها عندما خيل لها أن نبيلة تنف في الشرفة طويلا لحظة وقوف زوجها في الشرفة المقابلة . تحت بصوب عال وخلال توجيها الحديث أحدى

المرات إلى صبي في الحارة ، وصفت أمه بتاجرة المكرونة ، دخلت نبيلة بسرعة خوفا من لسان أم سهر ، عادة تنهز نبيلة زعيق خديجة الصعيدية وتطلب منها الكف عن الصياح حتى تستكمل محاضراتها الجامعية ، هدا صوت روض عندما قالت إنها كثيرا ما لاحظت وقوف نبيلة في مواجهة عاطف . أو صياحها منادية شقيقتها تطلب منها شراء كشاكيل لتنقل محاضرات الجامعة ، أو تنهز بانعا يصبح على بضاعة عندما كان البائعون يدخلون الزعفراني ، تأمره بخفض صوته لأنها لا تستطيع استدكار دروسها الجامعية ، قالت روض إنها لحظت نظراتها ، حتى ودلت لومدت يدها لتدفعه إلى داخل شقته ، تبعه عنها ، أضفى عاطف بدهوة ، لا يتصور نفسه موضع غيرة . لكثرة ما لاقى من صد لم يظن نفسه هدفا تخوم حوله غيرة أنسى ، لكم اقتربت منه روض في هذه اللحظة ، لكم بدت له جميلة ، طيبة ، وديعة . فتفتحت مسام نفسه لها ، وجهها بطرق خجلا أمام نظراته . هل تدرك ما تجرى بخاطره في هذه اللحظة ؟ قرر أن يقول لها . هيا بنا نتزوج ، يرجوها أن تقاسمه عمره ، أن تحتل موقعها في حياته ، لكن الألفاظ بقيت معقودة داخله ، هل ستظل رغبته في امتلاك المسدس كامنة ؟

يتأمل الجسم المعدني ، يظلم إلى داخل المتجر ، رجل قصير ميل إلى امتلاء ، يتحدث إلى سيدة عجوز ، يبدو أنه أحد الأرمن أو اليونانيين الذين يستوطنون البلاد ، عاطف يتأمل نظارات الفطس ، خراطيش الصيد ، موتور يوضع في مؤخرة القوارب الخفيفة ، صورة رجل أنيق يرتدى ملابس الصيد وقبة كبيرة ، يغمض عينا ويفتح الأخرى ، يصوب سلاحه في اتجاه هدف ما ، لا يبدو في اللوحة . « نعم يا أستاذ » يباغت عاطف ، ينسم ابتسامة سريرة ، يقول انه يرغب الاستفسار عن سعر المسدس الصغير ، يتساءل الرجل « البراوننج ؟ » ، يتجه عاطف إلى الفتريئة ، يشير اليه من الخارج ، يزيح الرجل الغطاء الخشبي الخلفي ، يهرأسه ، يعود عاطف إلى داخل المتجر ، ينظر إلى المسدس من خلال

الضوءة الضيقة ، يد الرجل المسدس ، يوشك عاطف أن يجفل ، تأخذه رهبة ،
 يستنسى ابتعاد الجسم المعدني عنه ، يتلع لعابه ، الجسم المعدني يملأ اليد ، وزنه
 أثقل مما تصور ، صوبه ، يعبد المسدس بسرعة إلى الرجل ، يتساءل عن الثمن ؟
 يتساءل الرجل ، متى تنوي ؟ يقول البائع بلهجة حادة بعد أن اتضح له أن الزبون
 يسأل فقط ولي يشتري قورا « أربعون جنياً » يخرج مسرعاً ، يستفص مذكراته
 أربعين جنياً ، أي ما يقارب الخمس ، بعد رحيل رحمة صار يتفق بلا حساب ،
 لا يضع ضوابط ، يمكنه شراء المسدس ، يشتري حزاماً جليدياً غريباً ، يراه
 الزعفرانيون ، يصوبه بين الحين والحين إلى الفراغ ، يختار مكاناً بعيداً ، يصوب
 الطلقات إلى الصخر ، سينظفه كل أسبوع ، بالتأكيد سيحصل على كتيب صغير
 يشرح طريق الاستخدام والتنظيف ، سينظفه بقمماش معين ، لكن .. « مصرع
 عاطف وهو ينظف سلاحه » « رجل يمشي فوق افريز يعلو سعة طوابق أثناء
 نومه » آه ، « عاطف يطلق الرصاص على نفسه أثناء نومه » ، حادث غريب
 « تشيع القتل بالفكرة حتى نفذها أثناء نومه » ، « .. والحقيقة أنه قام أثناء نومه
 فهو من المصابين بالمشي أثناء النوم ، أخرج المسدس بهدوء ، صوبه ناحية
 رأسه ... » ، روض تبكي ، تنظر إلى جثته ، تنزف دماؤه مبددة كل آمالها في
 نزهة يدعورها إليها يوماً ، تصحبه في الحدائق ، تجلس معه بجوار النيل ، إنه يسرع
 الخطى الآن . تأخر عن موعد النوم نصف ساعة ، العجيب إنه لم يشعر بأي خوف
 أو اضطراب ، بل تتملكه رغبة في الوقوف وسط الزعفراني والصباح . لا يدرى
 ماذا يريد أو ما سيقوله ؟ لكنه سيحدث ضجة ، ياتف حوله الزعفرانيون ،
 سيفهمون ، لا يمتلك ما يرغب فيه خوفاً منه . هل أعد الشيخ طلباً خاصاً بعجزه
 عن شراء المسدس ؟ يتجه الآن إلى مقهى صغير قريب من الزعفراني ، يطلب
 كؤياً من الحلبة ، يشفق على رجل يرتدى جلباباً مبقعاً بالجير والأصابع ، تبدوله
 روض الآن ، هل يصارحها بما فكر فيه أمس ؟ هل يطلب منها الزواج ؟ هل
 يمنحني عليها مقبلاً ، يبكي طالباً منها الزواج . أول زواج زعفراني ؟ ما أعد

حدي يمثل هذا الخبر . لشدة ما تنأى رحمة عنه ، يثق الآن من حقيقة أكيدة ، لن
 تذكره معها سمعت عنه ، ستخفى اهتمامها حتى لا يلحظ نبيل شيئاً فهي شديدة
 الحرص على عدم اغضابه . من أين لها أن تعلم بشرائه مسدساً ، حتى لو التفت به
 صدفة ، هل ستتوقف لتحذره ؟ هل ستسمح له الفرصة كي ترى المسدس الذي
 يستمنطق به يوماً ، يعلو أسى ، يجهد نفسه ليجد مبرراً لعجزه عن شراء المسدس ،
 يقوم ، لا يريد أن يجلس ، لا يريد أن يمشي ، لا يريد الذهاب إلى البيت ، لا
 يريد الاعتماد على روض . يخشى الاقتراب منها ، يقل المارة ، تهدأ الحركة ،
 كيف سيعلم الشيخ بعودته متأخراً ؟ مقهى اللاطوري مغلق ، مصباح كهربائي
 ضعيف يرسل ضوءاً شاحباً ، خيل إليه رؤية أشباح تتحرك في الزوايا المظلمة
 عند المنحني . ، البيوت كلها مغلقة ، تذكر الشتاء ولعان البلاط تحت المطر
 وضوء المصباح الوحيد ومساحة السماء الضيقة التي تبدو من خلال البيوت
 المتقاربة المهككة بالزمن ، هل سيحدث الزعفرانيون عما سيحدث له بسبب
 تحالفته التعاليم ؟ لم يفارقه إحساس قوي حتى دخوله الشقة أن ثمة من يرقبه .
 يتعقبه ، بل إنه فتح أبواب الغرف الثلاثة ، اتخفى تحت السرير ، استدار فجأة
 أكثر من مرة ليضبط هذا الشيء الذي يتعقبه ، فوق السرير ليصا قبصاً داخياً
 تركته روض ، يؤذ لو يراها الآن ، يتشمم القميص ، رائحة جسدها الممزقة ، هل
 يسمع وقع أقدام في الزعفراني ؟ هل يخصص الشيخ بعض أتباعه للمزور ، هل
 هي أصوات المكان ؟ منذ عامين سافر إلى الاسكندرية ملتصقاً بالهدوء ، استعار
 مفتاح شقة أحد زملائه ، عندما عاد إليها أول مساء يقضيه فيها ، سمع أصواتاً
 غامضة ، ثم زعيماً مفاجئاً ، احتكاك أحذية ببلاط ، زفيراً قوياً ، حفيف ثياب ،
 صفير قاطرة ، في الليلة التالية أدرك إنها أصوات المكان ، مرور الهواء من خلال
 فتحات المنزل ، أو مروق مركبات في الطريق القريب ، في صمت الليل
 تشكك هذا كله من جديد ، إن الشقة مضاءة ، يمكن للمناظر من الزعفراني
 رؤيتها وهكذا يستمر الضوء مشتتاً لأول مرة في أحد المساكن الزعفرانية منذ

بداية زمن الطلسم ، إن عاطف أفتدى لم يخلع ثيابه بعد ، يزداد اقتناعاً بضرورة ذهابه إلى بيت أم صبرى الآن ، يعود مصطحباً روضى لتواجه معه الليل .

نبيلة المدرسة ترقب من نافذة حجرتها شقة عاطف ، تجذب مصراعى الشباك ، تضيء النور ، إن حالة من الضيق المزوج بالقرف بالأسى تتابها ، منذ عدة أيام تسأل نفسها ، وماذا بعد ؟ عمرها يقترب من السادسة والعشرين ، وكل ما فعلته ، كل ما أجبرت نفسها على الالتزام به لم يؤت ثمراً ، ولم ينته إلى نتيجة ، قبل العشرين قهرت عواطفها تجاه شعراوى صاحب دكان العطار ، لم تلتفت إلى لم تستجب لنظراته الهادئة والتي أطلقت تيارات من الماء الدافئ تحت جلدها ، تعرف مراقبة العيون لأى بنت ، الانظار تتابعها بشكل خاص لسمعة والدها الذى أدمى أحرار حباته ، لم يترك مقهى أو بيتاً إلا وقف أمامه ، زعق مضالياً بفهم ما فى قلبه . عندما جاءها عريس بعد حصولها على الثانوية العامة ، رفضته . قالت أمها « نبيلة متكمل فى الجامعة ولن تتزوج الآن » . ظنت اللباسات وسيلتها إلى زيجة راقية ، وشاب ينقلها من الزعفرانى . لكن ما أكثر الفتيات الجامعيات ، حتى جهودها العبيدة ، الحذرة ، لم تجذب انتباه هذا الجامعى الأعزب الذى لا يخفى علاقته بتلك المرأة الفاضلة ، روضى ، إنها لا تفهم هؤلاء الرجال ، فى السابعة عشرة قالت : سيضمنى رجل عندما أبلغ الثامنة عشرة . عمه بلوغها الواحد والعشرين . قالت : سيحدث هذا فى الثالثة والعشرين . كلما صادفت أكواباً أو فوطاً أو ملاعق ، تشتري لبيها المقبل ، لم يطلبها رجل حتى الآن ، لم يقصها إنسان ، لم تقبل قط ، لم تنهر ، متى إذن ؟ أغلقت حجرتها وسدت ثقب الفتاح بورق صحف قديم حتى لا ينظر شقيقها الأصغر من خلالها . بعد توقف قصير أمام امرأة الدولاب ، أخرجت لسانها مرات . إنها تبدأ المشى ، تنشى ، تبرزد فيها ، تهمس « أطفى النور » ، تمر لحظات ، تهمس « لن أخلع ثيابى فى النور » ، تحدث صوتاً بنفسها كأن زر النور أغلق .

تهمس بدلع أنشوى « كن رقيقاً » تخلص قبصها متدهلة ، تنشى إلى خلف وقدام وبين وشمال ، تسمع خطى تقترب منها ، ذراعان تحيطان خصرها ، تقول بضعف « ألم أطلب منك الانتظار » تستدير ، تفك السوتيان ، تتأمل ثدييها ، توجه إليهما قبالات طائفة ، « لا . . . انتظر » ، تتجرد تماماً من آخر قطعة ثياب ، تنجس إلى السرير الذى نقلته منذ فترة ليواجه المرأة ، تعلو فوقه ، ترتكز إلى ركبتيها وساعديها ، تحبو ، تتأمل مؤخرتها من خلال انقراجة فخذها ، تنقلب على ظهرها فجأة ، « لا تكن عنيفاً » ، تضم ذراعيها ، تجول أصابعها متحسنة ظهرها ، تطلق صيحات مكتومة ، قصيرة ، تنظر إلى المرأة ، إنها وحيدة غارقة فى ضوء الغرفة البارد ، منكوشة الشعر ، لاهثة ، تعض حافة الوسادة ، إلى متى ، إلى متى إذن ؟ لا يعبثها تأخرها عن موعد النوم ، إن حزناً يكوى قلبها ، تعض الوسادة ، تبكى .

حسن أفتدى لم يفارق شرفته حتى الآن ، لم تفلح توصلات امرأته ، أنه يرى حلقات الحصار تغلق واحدة بعد الأخرى ، آخرها تخلى حسان عنه ، لم يعد يتم كثيراً بابنه الأكبر ، أو المكان الذى يقضى فيه نهاره . أو أصحابه ، ما يشغل تفكيره طينة اليومين الآخرين ، الطريقة المثلى التى سيتم بها استسلامه . اتخذ قرار الاستسلام حرصاً على أرواح الآلاف من جنوده ، فى نفس الوقت قرر ألا ينهى حياته ، لا تزال ملايين القلوب تتعلق به ، تؤمن بقدرته على تخليصهم من الشيخ وسيد أبو المعاطي وحلفائهما ، فى لحظة معينة سينطلق نداء من مكان ما ، فلول جيشه مبشرة سنهض من أركان الدنيا الأربعة ، لهذا قرر الاستسلام بأفضل الشروط الممكنة . أنه يرتدى ثيابه كاملة ، يعلق كل أوسمته ونياشينه ، صباح هذا اليوم طلب من امرأته المحافظة على أوراقه ، ورفض تسليمها إلى أى شخص ، سأنته ، إلى أين ؟ قال إنها ستعرف كل شىء فيما بعد ، حاولت منه لكنه أزاحها عن طريقه بعنف ، وهكذا شهد الزعفرانيون مشهداً غريباً فى بداية ذلك النهار عندما احترقها حسن أنور مرتدياً زيه العسكرى القديم . ينظر إلى بعض المطلات من الشرفات ، يرفع بيده التحية العسكرية ، أغرى منظره عدداً من صبية

الزعراني ، طارده ، قدوة ببعض الأحجار ، تحمل الآلهة ، مضى ، مر أمام مقهى الدائري ، حاول بعض الغرياء مناقشته بالكلمات ، رجف قلبه ، خيل إليه أنه لمح ابنه حسان ، بعد لحظات أيقن تطلع ابنه إليه من بين جمع وقف للفرجة عليه ، اعتبره المارة حول المسجد أحد المجاذيب الجدد الذين يفظون صدورهم بالنياشين ، وأعطية الزجاجات ، في نفس الوقت ، لن يتوقف عن تنفيذ ما قرره ، حتى لو ظهر سمر بنفسه وقبل يده وأعلن أنه سيواصل اتمام دراسته ، وأنه سيخرج مهندساً ، كما رغب أبوه يوماً ألا يتوقف ، وشأن كبار القادة عند اجتيازهم اللحظات الحاسمة والخطيرة في حياتهم ، والى ستؤثر بالتالي في حياة الآلاف والملايين ، فانهم يستعدون مواقف صغيرة تمت إلى حياتهم الخاصة ، تذكر بأسي ذهابه مع ولديه صباح الأعياد إلى المسجد ، عند عودتها يتوقفان لمصافحة الجيران والأحباب ، يتوقفان أمام دكان رأس الفجلة الذي يخرج من مخزنه مجموعة من لعب الأطفال والبالونات يعرضها في متجره برغم أنه بقال ، ما أبعد الزمن ، نظر إليه الساعة بدعشة لحظة دخوله المؤسسة ، تقدم من مدير مكتب سيد أبو المعاطي ، طلب منه مقابلة البك فوراً ، نظر إليه السكرتير صامتاً ، عبر الحجرة إلى الباب المغلقة بالمظليفة الخضراء ، لم يتأخر كثيراً ، لابد أنه أخبر البك بهيئة حسن أفندي فاستشار فضوله ، عندما دخل رأى ثلاثة رجال ، أحدهم ملاحه يابانية ، أو صينية ، وأوضح سيد بك أنه قطع اجتماعاً ليقبله ، أيقن أن الخالصين جاءوا خصيصاً لرؤية الشهيد الأخير ، ابتسم أبو المعاطي ، تأمل غرابة ملايحه ، تحدث إلى ضيوفه بالإنجليزية ، حسن أنور يبر بأشد اللحظات إيلافا ، لكن الشجاعة الحقيقية تتجلى في احتمال لحظات الهزيمة ، نزع سيفه ، تقدم به إلى أبي المعاطي ، قال « .. لقد سلمت لكم .. سلمت .. » ضغط سيد بك زوا ، طلب من السكرتير استدعاء مدير مكتب الأمن ، بعد لحظات جاء الرجل . بدأ حسن أنور يتنفس هواء الأسر ، ودع ماضياً معروفاً ليبدأ مستقبلاً مجهولاً ، ربما حكم عليه بالإعدام ، استدعى رئيس مكتب الأمن اثنين من رجاله . أمسك بذراعيه . صمم

على بقاء لحظاته الأخيرة مليئة بالكبرياء . رفض أن يسك . وسيمشي في أي اتجاه يشاءون ، تذكر أن نابليون في سانت هيلانة لم يكن رأساً حتى تعمدوا بناء باب منخفض في الطريق الذي يمر به يومياً ، لكنه لحظة الاقتراب منه صار يثنى ساقيه قليلاً ، وهكذا يعبر مرفوع الرأس ، سرى خبر قدوم حسن أنور بهذه الهيئة الغريبة بين الموظفين ، انزعج بعض الموظفين المعجزة الذين زاملوه زمناً على عكس الآخرين الذين وجدوا في الحدث كسراً لإيقاع يومهم الرتيب ، تجمع المعجزة في مكتب عبد العظيم أفندي ، أبدى كل منهم رأيه ، لكنهم أجمعوا على ضرورة توسط بعضهم لدى سيد بك حتى يتشروا على مرض زميلهم و يعيدوه إلى بيته ، قال أحدهم إنه ربما ارتكب أمراً فيه خطورة على المجتمع . قال آخر إنه يبدو وديعاً مسالماً وما لحقه سببه الأحوال الزعرانية ، أجمعوا على توكيل عبد العظيم أفندي لما له من كفاءة ، والحقيقة أن الرجل لم يقصر ، مشى وثقلاً . ميل جسمه إلى الخلف ، يبرز كرشه بشكل لم يلحظه زملاؤه إلا عندما حصل على جهاز التليفون الخاص به ، لم يقل ما دار بينه وبين سيد بك ، وقبل دخوله مكتب الأمن التفت إلى زملائه ، قال ، والله سيد بك رجل لا يعوض . قامت عربية خاصة بتوصيل حسن أنور ، صحبه عبد العظيم أفندي ، واثنين آخرين من الإدارة الفنية ، من النافذة خيل لحسن أفندي أنه يلوح ابنه سمر ماشياً على الأرصفة ، أو مستقلاً عربية مقبلة ، لو اقترب منه سيد في مشاعر الأبوة ، هروبه بداية الخيانة ، بداية الخطي نحو هذه النهاية المساق إليها الآن . وذلك الإذلال المتمثل في مصاحبة عبد العظيم أفندي له بدلاً من أبو المعاطي شخصياً ، ألقى اللوم على مدير رئيس الخبايا ، وروميل ، لأنها لم يحققها معها بالاندفاع والتقدم حتى تخرج حسان طبيياً ، وسمر مهندساً ، أمام المقهى لم يخف الدائري دموعه ، جاء اليوم الذي يسمع فيه البعض يصفون حسن أنور جارا العمر بأنه ليس خطراً ، كأنه حيوان لا ضرر منه إذا اقتنى ، في صمت صحبه إلى داخل المقهى ، استدأ إلى المتجمهرين ، فهم الجرسون العجوز ما يريد ، زعن طالباً عن الناس الاتصاف

ولا داعى للتقصّات ، تأمل حسن أنور ما يحيطه ، إذا وقع اختيارهم على مقهى الداطورى لسجنه ، حاول تذكر مصير مماثل واجهه أحد الزعماء ، لم يستطيع ، حقا نهاية لم تخطر على بال منتقم ، عديدون يتطلعون ، شاب يتوقف ، يخرج من جيبه آلة تصوير صغيرة ، يضغط زراً عدة مرات ، جاءه الجرسون بصينينة فوقها فتجان قهوة ، رفض أى مظاهر عناية مفتعلة حتى لا تستخدم كمادة للدعاية ضده ، هؤلاء السذج ، يريدون نشر صورهم وكأنه أمير حرب عادى يقدم له أسره كوب ماء . قال قبل أن يلفظ الداطورى أى كلمة إنه امثل لكل ما يريدونه ، وبالنسبة لمن يستطيع فرض شروطه لكنه يطلب معاملة لائقة ومحكمة عادلة . أشار الداطورى طالباً منه الجلوس . قال إن الحى كله يعرف حسن بك الطيب الذى لم يسمع له حس أو صوت . ضاق بعبارات الداطورى . لقد جرده من ربه وهذا طبيعى ، ناداه حسن بك فقط ، لكن أن يقول إنه عاش بلا حس أو صوت فهذا تزييف للتاريخ . بدأ مسخ الحقائق ، هل هى فضيلة أن يعيش الإنسان بلا حس أو صوت ؟ لكنها بداية الإهانات فليحتمل ، قال الداطورى إنه يرجو من حسن أفندى الذهاب معه ، كل ما سيطلبه سيجاب فوراً . رفع حاجبيه ، أى نهاية ذبروها له ، زعق طالباً من الداطورى الصمت ، اتجه إلى الخارج ، لحقه الجرسون العجوز ، تراحم حوله الواقفون ، مد أحدهم يده يلمسه ، دفعه البعض ، سحب سيفه من جرابه الجلدى ، هاش به على وجوههم ، بدأ يعدو محاولاً الإفلات ، قذفه أحد الصبية بطوبة ، نهز رجل ، أسرع يدخل الزعفرانى ، رفض أن يحدث زواجه ، لم يفارق حجرته منذ رجوعه ، منذ بداية الليل لم تغادر الشرفة ، إنه يقرر الآن أمراً ، يعبر الصالة ، بحذر يفتح الباب ، يقطع الزعفرانى إلى الخارج ، يتجه إلى قسم البوليس ، يسأل جندى الحراسة ، هل قائده موجود ؟ تسرى حركة فى المبنى الحكومى القديم ، لقد صدر صباح اليوم أمر بالقبض على الجنرال الزعفرانى الخامس الذى خرج من الحارة بعد أن حير هيئات الأمن طويلاً ، لكن قبل وصول القوة المختصة للقبض عليه دخل الزعفرانى من جديد ،

وها هوذا يصل بنفسه . ها هوذا يقف أخيراً أمام القائد العسكرى المعادى ، إنه يحيط خطة أبو المعاطى والشيخ فى معاملته بإهمال وازدراء .

« ها أناذا قد سلمت إليكم .. سلمت .. أطلب محاكمتى ، محاكمة عادلة .. »

يبدأ بالتخلى عن سترته العسكرية . ليكن استسلامه حاسماً . سيلتمس المؤرخون المنتصون العذر له فيما بعد ، لقد فعل ما فعل رغبة فى إنهاء الماركة الدائرة الآن غير المتكافئة بين جنوده وأعدائهم . يسأله الضابط عن اسمه ، يتباطأ فى الرد ، يصغفه أحد الجنود على قفاه ، يتسم جندى آخر وكأن هذا عمل طيب ، من الممكن لأى منهم أن يأتى معه بأى تصرف ولن يلقى رد الفعل الطبيعى ، برغم قسوة الإهانة يرد ...

« قلند مارشال متقاعد ، وقائد أعلى القوات المتحالفة ضد الظلم ، حسن أنور ... »

الضحك صاخب ، ينتهى من خلع ثيابه العلوية ، يفك أزرار بنطلونه ، الجدران حوله كالخفة ، تخفى ما تدور وراءها إنه عار الآن تماماً ، بينما يصيح الضابط فى التليفون مخاطباً جهة ما .

مع بداية النهار الزعفرانى الجديد ، أطلقت أم حنان صولتا متصلاً ، عاظت عباطاً مؤثماً أعلنت من خلاله خراب بيتها ، إن جسد أم يوسف يقشعر فزعاً ، يتوقف طاحون عن مضغ لقمة ، يبدو ما جرى فظيماً ، ولا أحد يتأذى عنه فى الزعفرانى ، خلال الفترة الأخيرة لا يكف عن التفكير فى مشروعه الخاص بحفر شبكة ضخمة من الإنفاق . هل يعد هذا جنوناً ، نفى الفكرة ، إن مشروعه واقعى تماماً ، بل يفكر فى شراء بعض لوحات الورق الأبيض ليعيد رسومات أولية

لشكرته . لم يتوقف نواح امرأة حسن أفندي ، بهمس خائفاً ، « اللهم احفظنا » ،
 إن أم سهر تمصمص شفيتها الماء ، تتساءل بصوت مرتفع عما جرى للدنيا والناس
 والزعفراني ؟ يملؤها غيظ ، يلاحظ الزعفرانيون تلميحاً إلى ما فعله الشيخ خاصة
 عندما أشارت إلى هدوء الزعفراني طوال عمرها ، في شرفتها وقتت نبيلة
 المدرسة ، إن هدوءاً يخط عليها ، لم تم الليل كله ، ترتدى ثياب الخروج ، تمسك
 كشكول المحاضرات الذي تناولته قبل خروجها من الغرفة مباشرة ، تدس أصبعها
 بين الصفحات كيفما أتفق وليس حرصاً على إبقاء موضوع معين مفتوحاً ، حتى
 توحي للأهالي بأنها الدائم ، وأنها تضطر لقطع قراءتها أو دراستها لتظل من
 الشرفة ، وكأن في مجرد ظهورها دعوة لكي يصمتوا ، لم تستطع اليوم أن تطلب
 منهم السكوت حرصاً على توفير الجو الملائم للمذاكرة ، وذلك لعدة أسباب ، إن
 النهار مازال في بدايته ، إن الاضطراب الياذي يعكس مصيبة أكبر حجماً ، إن
 عاطف لا يقف في الشرفة ، والأهم شعورها بالسأم ، وأنه لا فائدة ، وأنها لم
 تتصرف أبداً على طبيعتها بل ارتدت دائماً أحوال غير أحوالها ، الست خديجة يعلو
 بكاءها حزناً على الرجل الأمير وأحسن الجيران ، تعلن أم صبري خلو الزعفراني
 من الرجال قبل الطلسم وبعد ، يصغى الجميع إليها ، يدركون على مهل أن
 الزعفراني تتعرض للشيخ نفسه . تقول إنه لا يوجد رجل في الزعفراني يملأ
 عينها ، وإلا ، فلماذا يسكتون ، هل سيجري لهم أكثر مما جرى ؟ تجاوزها أم
 يوسف مؤمنة على كلامها ، تقول إن بيوت الزعفراني ستخرب بيتاً ، بيتاً ،
 والكل يتفرجون ، ولا أحد يتكلم ، لا أحد يلفظ احتجاجاً ، تصرخ أم يوسف ،
 لماذا لا يتكلمون ، لماذا ؟ يطلب طاحون منها الكف ، لم تستجب ، يقسم بالطلاق
 أن تدخل ، تضرب النافذة ساخطة ، تسخر بصوت عال « طلاق .. أهلاً بأسي
 طلاق » ، يشعر طاحون أنه صفع على قفاه وانه مستسلم لا يأتي بأي رد فعل ، ألم
 تتأخر امرأته أكثر من مرة ولم يسألها أو يعارضها . يسرع حسان إلى القسم ، قالوا
 له إن حالة والده خطيرة ، تسلمه مندوب خاص من وزارة الصحة بعد ثبوت أنه

من أهالي الزعفراني وذلك لوضعه تحت فحوص ضرورية ، كما يشرف عليه
 ضباط من هيئة الأمن ، نصحوه بعدم استئناف بحثه أو محاولة لقائه لصعوبة
 ذلك ، لم يقتنع حسان ، اتصل بعبد العظيم أفندي ، أبدى الرجل ازعاجاً ، قال إنه
 سيعرض الأمر على سيد بك ، ويطلب منه تدخله وإن بدا هذا صعباً نظراً لوصول
 الأمر إلى جهات رسمية أكثر تعقيداً ، اتصل حسان بعبد البرتقاني الذي أصبح
 عضواً برلمانياً لكنه لم يجده ، إنه يفكر غاضباً ، هذه المصائب كلها بدأت مع
 الطلسم ، عاد إلى الحى القديم متورماً ، لا يدري كيف سيحتمل خلو البيت ،
 تذكر حزناً ضيقه بوالده خلال الأسبوعين الأخيرين ، ليته استجاب إليه وبقي
 إلى جواره ، كيف كانت ستجري الأمور لو أن الطلسم لم يلحق الزعفراني ؟ كل
 المصائب جاءت معه ، ومازال المندرك الأول يبشر بسعادة آتية ، وعدل سيتحقق ،
 أغرب ما يقوله ، حب الشيخ للأهالي الذي سيحفظ لهم فضل الريادة في بناء
 العالم العادل ، أى حب ، أى عدل هذا ؟ ، هل يذهب إلى شيخ نفسه ؟ يخبره
 بما جرى لوالده ؟ يسأله هل يرضى بما جرى له ؟ لكنه محتجب لا يقابل مخلوقاً ،
 بل تدور همسات كثيرة بعدم وجوده في تلك الحجرة ، وأن الصوت الذي سمعه
 الأهالي عندما ذهبوا في بداية زمن الطلسم ، وما يسمعه عويس وسلام ، إنما
 يتردد بدون مصدر ، قال آخرون إنها مؤامرة من عويس والصول سلام للتحكم في
 الزعفراني ، والخطوة التالية فرض أنوات على السكان ، ومحاولة الاستيلاء على
 ثروة رأس الفجلة ، وبرغم وصول هذه المهمات إلى رأس الفجلة إلا أنه لم يحرك
 ساكناً ، لم يتخل عن هيئته التي اعتادها الناس خلال الأيام الأخيرة . اطراقة
 رأسه الدائمة ، لعابه المستمر ، في الفترة الأخيرة سمع صراخ أمه كثيراً ، منذ
 ثلاثة أيام فاجأ رأس الفجلة كابوس مزعج ، كاد يختنق ولم يوقفه أحد ، فكر في
 استدعاء أمه من حجرتها فوق السطح لتشاركه البيت ، لكنه خشى ازعاجها له ،
 لن تدعه يخلو إلى نفسه . لن تسمح له بفرصة للتفكير في فرقة واحدة . كما
 أنها سترعجة باستيقاظها المبكر ودخولها الحمام في عز الشتاء ، أمس أمسكت به

لحظة خروجه ، لا يدري أحد من أين واثها القوة التي جعلتها تطرحه أرضاً ؟
وتلكه في ضلوعه . ثم تدس يدها في جيبه ، وتخرج خمس ورفات من فئة العشر
جنيهاً . لطمت وجهها . صاحبت ليلحقها الناس ، ولينقذوا ابنها الغائب الذي
لا حول له ولا قوة ، قالت إن العاهرة التي خربت بيتها واصطحبت ابنتها إلى
بيت عشيقها ترسل إليه وتطلب منه نقوداً ، آخر ما طلبته مصاريف المصيف .
رفعت النقود ملوحة للنوافذ والشرفات ، مصصت خديجة الصعيدية - التي لم تر
في حياتها خمسين جنيهاً - شقتها ، تأسفت أم صابر على رجال هذا الزمان .
والحقيقة أن رأس الفجلة يتزايد إحساسه بالراحة منذ ذهاب امرأته وابنته ، بل
تمر به لحظات فكأنه لم يتزوج أبداً ، ولم ينجب قط . ظلت لحظات هجرها
وخيانتها له أفكاراً وصوراً في مخيلته منذ زواجه حتى تحققت أخيراً ، غير أن
خواطر مزعجة أفضت راحته وفت بجوار إحساسه بالخلاص ، تساءل ، أين
تقيمان ؟ يتخيلها تنظر إلى المدرس ، لا تبدى سخرية منه . تقبله في فمه ،
تهمس « يا حبيبي » ، بعد بلوغها ذروة النشوة يسألها عما فعله رأس الفجلة معها ؟
نجعل رأس الفجلة إذ تخيل سخرية المدرس بعد استماعه إلى ما جرى بعد
الطلمس ، لم ينتظم في تناوله الطعام الزعفراني ، عندما وقف في الطابور بعد
النقطاع يومين لاحظ نظرات الزعفرانيين ، تمنى لو انشقت الأرض وابتلعت ،
همست زنوبة المطلقة بكلمات ما إلى قرقر ، غرق رأس الفجلة في عرق غزير ،
عندما وصل إلى لولي ، الذي يتولى اليوم مسؤولية توزيع طعام الأفطار طبقاً
لنظام الزعفراني الدوري . قال لولي ، لا تضايق نفسك ياسي حسن ، رفع عينيه
المستديرتين ، غمغم غمغمات بسيطة ، تساءل بينه وبين نفسه ، هل وصل شيء
عما تقوله فريدة عنه إلى الزعفراني ، إلى لولي ؟ عاد حاملاً طبقه مضطرب
الخطى ، يود الاختفاء بسرعة ، ستحكي عنه فريدة . سهدى السيف وبدة
مصارع الشيران إلى المدرس لا لكي يعيد امرأته إليه ، إنما ليكنها إذا حكمت له
عن خيبة زوجها القديم ، لا ، بل ميرمل إليها هي ، لا بد أن يسكنها ، فكر في

الذهاب إلى عويس راجياً منه إبلاغ الشيخ بخجله الذي يمنعه من الرقاد ، أن
يعد طلسماً يخرس فريدة إذا ما شرعت في السخرية منه أمام هذا المدرس ، فكر
في كتابة خطاب إلى امرأته يذكرها فيه بطبيعته معها ، واستجابته لكل ما
تتمنئ ، ولزواتها الغربية ، ثم استقر به الحال على امتدادها الدائم بالنقود . يتمنى
الآن يقدر المدرس على مصاريفها ، أن يطلب منها نقوداً ، لن نجد إلا رأس الفجلة
تلجأ إليه ، يشترط أمراً واحداً ، ألا تسخر منه ، غير أن الخجل يتزايد به حتى
ليكاد يوقف دقائق قلبه كلما تخيل لهجتها في الحديث معه . أثناء عودته أمس من
الدكان قابله أحد الغرباء قال له إن سبب ما حل بالزعفراني رمانة السياسي ،
وأنه أحدث حالة من الاضطراب حتى ينقض على المجتمع ، وفي نفس الليلة
التقى عدد من الغرباء بالأهالي وأكدوا لهم ذلك ، لكن الزعفرانيين رفضوا ما
قيل لهم ، وصاح طاحون في وجه محدثه طالباً منه السكوت والكف عن الفتى
وقال إن رمانة من أكثر الزعفرانيين شهامة . . أوشك على التفوه بلفظ « ورجولة »
لكنه نجح ، وفي الحارة زعم بيسوني والد لولي أكثر من مرة لأمرأة ابنه وقال إن
لولي مسئول عما جرى للزعفراني ، وراح يخرض عاطف وطاحون وعويس وسلام
ولم يصدق أحد ، قويل يلا مبالاة ، عندئذ خرج إلى مقهى الداطوري وكتب
بلاعة جديدة بخصوص نشاط لولي الهدام ، لم يقتنع الزعفرانيون بما تردد ، لا يمكن
ارجاع ما جرى إلى شخص واحد ، ثمة أفكار أخرى ترددت حول خراب
الزعفراني ، دخول المصائب إلى البيوت ، اليوم بعد عودة حسان من تروده على
عدد من المعارف ، بخصوص والده فوجيء ، بازدهام مقهى الداطوري ، رأى
طاحون ، والبنان ، وزوج ابنة أم صابر ، سألوه عن والده ، قال إن كل شيء
سيكتشف خلال الأيام القادمة . سكت ، ولكنه لم يخف دهشته ، تساءل ، هل
صدرت تعليمات جديدة تسمح بتجاوزهم الخدام المسموح به الشهر ؟ قال طاحون
إنه لم تصدر تعليمات بخصوص هذا الشأن ، لكن تعليمات أخرى صدرت لا
يمكن لعائل قبلها ، لو طال الصمت ستخرب البيوت كلها ، بدا حسان مرهقاً ،

مثقل القلب واللسان ، لا يدرى ما سيفعل غداً أو بعد غد ، كيف سيسلك طريقه وسط هذه المتاهات من الإدارات ، والابواب الموصدة ، والحراس غلاظ القلوب ؟ ولا فتات المستشفيات ، وأقسام الشرطة ، لكن ما سمعه شد انتباهه ، شيئاً فشيئاً بدأ يدرك ما استجد في الزعفراني ، والحقيقة أن ثمة حركة دبت خلال الثلث الأخير من النهار بعد اجتماع المنذر الأول سلام بعدد من الزعفرانيين وبعد نداء العصر الذي أعلنه عويس ، لقد تبادلوا الحديث حول نصوص غامضة تتحدث عن إتاحة فرصة الاختيار من جديد ، اختيار المهنة ، شريكة العمر ، الآمال والامكانيات ، اختيار أهداف الطموح من جديد ، أحياء الآمال التي ماتت ، ثم أعلن عويس أنه سيتم تخصيص البيوت رقم ١ و ٣ و ٥ ، لرجال الحارة وأطفالها الذكور ، البيوت رقم ٢ ، ٦ ، ٨ ، للنساء الزعفرانيات ، وعند حد معين يبدأ كل منهم في ممارسة حرية إعادة الاختيار من جديد .

إن سكان الزعفراني يخرجون إلى شرفاتهم وتوافدهم ، يبدو وقوفهم الجماعي وكأنه تحد لليل المقبل ، خاصة عندما أطلقت أم سهر صيححتها المشهورة « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر » ، لن تنتقل من شقتها شبرا ، ولو اقتضى الأمر ستفتح حجرة هذا الشيخ الملعون ليفعل بها ما يشاء ، لن تخاف .

يندفع رأس الفجيلة خارجا ، تظهر أمه ، تتعثر خطواتها ، تعلن بكلمات ممزقة الحروف « راح لها » ، تعلو صيحة لم تعرفها الزعفراني منذ فترة تمتد إلى أبعد من تاريخ بدء سريان مفعول الطلسم ، صخب لا يعلو إلا وقت الحوادث المفاجئة ، كأن يتألم زوج عسى امرأته ضربا في تمام الثانية صباحا ، يشهر في وجهها سكيناً ، مهددا بذبحها ، عندئذ تجرى مندفعة ، تفتح الشباك ، يستيقظ الزعفرانيون ، يشاء ليون عما يجري ؟ بعد أن يفهموا يقوم بعض العقلاء منهم بالتدخل ، يذهبون إلى منزل المشاجرة حيث يرفض الزوج في البداية فتح الباب . في هذا الوقت يتبادل الجيران الحديث عبر النوافذ . بطرق موضوعات

بعيدة تماما عن الخناقة ، لفترة تتصاعد أصوات مبهمة يظلت منها بين الحين والحين عياط طفل ، أو كلمات معينة متفرقة كجبات سبحة انفرطت ، إن الضجة الزعفرانية الآن تشبه هذا الاستيقاظ المفاجيء للحارة ، صاحبها خروج البعض ، وسرت أخبار بظهور التكرلى أمام مقهى الداطوري محرضا ومهيجا ، وقيل إن امرأته هجرته إلى طالب أحبه ، لا يدرى أحد كيف تستقى الزعفراني الأخبار لكن غالبا ما يصدق المردد فيها ، أبدت زنوبة المطلقة إعجابا بما أقدمت عليه امرأة التكرلى وتمنت لها الهناء ، وفكر طاحون لحظة سماع الخبر أن الحال لا يتبدل إذا ابتعد الزعفراني عن حارته .

تستهد خديجة الصعيدية أسفا ، أين الست بثينة الآن ؟ ، تقيب أم صبرى ، إنها تهرب من بلدة إلى أخرى خوفا من الموت ، تمصمص شفيتها أسفا ، مع نزول الليل تتزايد الضجة ، يشاهد رمانة مطلا ، قبل فيما بعد إنه لم يتخل عن ابتسامة غامضة بقيت معلقة إلى شفثيه . لا يد أن أحد الزعفرانيين نقل الخبر إلى جهات الأمن ، إذ أن مسئول مكافحة الأفكار الهدامة ، رفع مذكرة يصف فيها وقفة رمانة وصمتها ، بالغ في ذكر التفاصيل التي نسبها إلى مصدر ما ، ربما أحد الأهالي ، أو حكايات سمعها المخبرون من الحى القديم ، وذلك بقصد اظهار بخاخده في إنجاز مصادر خاصة به في الحارة من ناحية ، وإسقاط أكبر قدر من المسؤولية على رمانة ثانياً .

حوالى العاشرة مساء ، رأى الزعفرانيون الذين خرقوا كل القواعد رأس الفجيلة عائدا من خارج الحارة . إنه يجبو على أربع ، يتلفت حوله ، قرب باب المخزن يقف ، يتلفت ، يكتم الزعفرانيون أنفاسهم ، ينزع العارضة الحديدية ، تفتشى بعد إغلاق الباب بصوت مسموع ، يبدو أن أمه المعجوز راقبته أو تتبعته ، إنها تظهر فجأة عند باب المخزن ، تطلق صرخات حادة ، لكن الباب بقى موصدا لا يفتح ، إن صوتها يبح بعد فترة ، تجلس أمام المخزن ، تسند الكيس الذي يتدلى

من عنقها أمامها ، تهز أصبعها وكأنها تخاطب شخصا يقف أمامها ، تقول بصوت
بالك ، بلهجة كالأطفال « .. قلبي لا يطمئني أبدا .. »

تقرير رقم (١) عاجل مرفوع الى اللجنة العليا لمتابعة الأحوال
الزعفرانية :

« .. أفادت التقارير بوقوع تمرد زعفراني ، تم على الفور تدعيم القوات
السرية المنتشرة بالخي القديم ، أصدر أمر إلى كافة المقاهي بالبقاء مفتوحة طوال
الأربع وعشرين ساعة ، ومتابعة المراسلين الأجانب لعدم اقترابهم من الخي
القديم . كما يقوم مكتب البحث والتحري الآن بالبحث عن الصحفي حدى
عباس الذي بدأ ترده على الخي منذ فترة . وتمكن من توثيق علاقاته
بالزعفرانيين ، ورفض التعاون مع كافة أجهزة الأمن . وأفاد رئيس تحرير
الجريدة أنه ليس مسئولا عن تردد الصحفي حدى عباس على الخي القديم ،
ويعتبر متغيبا منذ أربعة أيام بدون إذن . وتؤكد معلوماتنا عدم وجود علاقة بين
الصحفي وتسرب الأنباء الزعفرانية إلى خارج البلاد . وتغذية هذه الضجة
العالمية ، وباعتبارنا جهة مسئولة عن الأمن الأعلى ، نرجو من اللجنة الموافقة على
ما قررنا اتباعه من إجراءات :

توجيه رسالة علنية من جانبنا إلى الزعفرانيين جميعا ، نطلبهم باقتحام
حجرة الشيخ ، والقبض عليه حيا .

نطلب منهم انقضاء وخللاء الحارة تماما ، على أن تتولى المحافظة نقلهم
إلى مساكنها .

يمكن رصد مبلغ من مصاريفنا السرية لمكافحة كل زعفراني يساهم في
تسليم الشيخ ، والمناذير الخاص ، والنذر الأول . ويلاحظ أن معظم أهالي

الزعفراني فقراء ، ويمكن أن يمثل مبلغ مائة جنيه إغراء شديدا لهم . مع الوعد
بشفائهم جميعا ...

— المشرف على الأمن الأعلى —

خبر عن مؤتمر شبابي في باريس :

« .. عقد جمع ضخم من الشباب مؤتمرا كبيرا بالعاصمة الفرنسية ،
ويبدو أن هذا الاجتماع أقيم كرد مسبق على الاجتماع الذي قرر أنصار
« الزعفرانيين » عقده صباح الغد . تند الخطباء بهذا المشعوذ الآتي من الشرق ،
أجمعوا على وصول الإنسانية إلى مرحلة لا يمكن معها تقبل هذه الأفكار ، ولكي
تسود العدالة حياة البشر ، ولكي تنتهي المذابح والحروب فليأت هذا عن
طريق التطور الطبيعي ، وليس بالخوارق المشكوك فيها . وأثناء الاجتماع وصل
عدد جم من الزعفرانيين المؤيدين للشيخ ، وعلى الفور وقعت اشتباكات دامية
بين الطرفين . من ناحية أخرى علقت صحيفة (لوجريون) قائلة أن الحضارة
الأوروبية وصلت إلى حد من الميكانيكية بحيث أصبح الإنسان الأوروبي على
استعداد لتصديق أي غيبات أو أي قضايا لا عقلية .

ملحوظة .

« .. لم ينشر هذا الخبر ، شأن كل الأخبار الواردة من الخارج والتي
تمس أحوال زعفرانية ... »

نص تقرير عاجل من المشرف على علاقات الجوار الحسن
والصداقات الدائمة ، الى رئيس اللجنة العليا للأحوال الزعفرانية .

« .. أرسل ممثلنا الدائم في موسكو تقريراً هاماً ، فقد أصدرت اللجنة
الإعلامية العامة ، بالحزب الشيوعي السوفيتي ، بياناً نشر في الصفحة الأولى من
« البرافدا » العمود الثالث » ، ويبدو أن هذا البيان وزع على كوادر الحزب قبل
نشره وأشار البيان إلى وجود لخط في صفوف الجماهير حول ما يسمى
بالزعفرانيزم ، وما تتضمنه من طسمة العالم تمهيدا لاجداث عدد من المتغيرات ،
تؤدي إلى مساواة شاملة . ثم استعرض البيان المحاولات التي بذلها الإنسان من
أجل إيجاد عالم خال من الفوارق الطبقية ، وتسوده المساواة . إلى أن يلور كارل
ماركس نظرية الصراع الطبقي مع وصول المجتمع الرأسمالي إلى درجة معينة من
التطور ، وتعد الماركسية هي السلاح النظري للطبقة العاملة في خوض آخر
لصراعات الاجتماعية . وهذا هو التطور الطبيعي ، وإذا ظهرت محاولات تستعين
بقوى غيبية لاسراع بتطوير الصراعات الاجتماعية والإنسانية ، فإنها تعتبر
مرفوضة من وجهة النظر العلمية . إن نمص الصراع إلا التصادم المستمر ضد
الطبقات المستقلة . والتصادم من أجل تحقيق الاشتراكية . واختتمت البرافدا
مقالتها - الذي يعد أول رد فعل من جانب الدول الاشتراكية - بقولها إن
لصراعات لن تحسم بالوصفات السريعة أو الخوازيق التي لا يدعيها إلا المخاض ،
وسلي هذا فإن الحزب الشيوعي السوفيتي سوف يتدخل بلا هوادة ضد أي مروج
لزعفرانيزم » .

« « «

تعليق مسئول مكافحة الأفكار الهدامة على النسخة
الخاصة به من التقرير

« .. يجب تناول ما كتبه « البرافدا » بحذر ، إذ لا نستبعد أن يعد
المقال كستغطية للدور الذي يقوم به رمانة من نشاط في الزعفراني ، والتي تشير
كل الدلائل إلى قيامه بذلك ، وأهمها ثبات أعصابه وعدم مغادرته الحجيرة ،
وابتسامته التي أشار إليها ما وصلنا من التقارير ، لهذا يجب الحذر ... »

« تقرير رقم « ٢ » عاجل جدا »

« بمجر - وقوع الأحداث المشار إليها سابقا في الزعفراني قنا يتدعيم القوة
المرابطة في الحى القديم ، ونشطت الجماعات الخاصة في استخلاص المعلومات ،
ويمكن إيجاز أهم الأحداث فيما يلي :

« حتى ساعة إعداد هذا التقرير لم ترد أى أخبار عن رأس الفجلة ما لا
تزال أمه تجلس أمام المخزن ، تبكى ، وتردد الفاظا غامضة .

« سرت إشاعات حذرة في الزعفراني ملخصها أن ثمة حجراً وجد أمام
بيت رأس الفجلة ، حجر يشبه جزيرة أو فجلة ، ما هو إلا رأس الفجلة ، مسحه
الشيخ حجراً لا ينطق إنما يعي كل ما يدور حوله ، وهذا انذار للالهالى وأن الشيخ
فى سبيله إلى أن يمسح الزعفرانيين كلهم ، غير أن أحد النجار أعلن بصوت عال
تفضيله المسخ على البذاء كما هو ، ثم توجه إلى الحجر وتأمله قليلا ثم صفعه بقوة .
على أثر ذلك تجمع عدد من الصبية الزعفرانيين ، راحوا يصفعونه ، يبدقون عليه .
وقيل إن اثنين سمع من الحجر ، ولما سأل منه ، عندما قال البعض لأم رأس
الفجلة إن ابنها مسخ حجراً . رفضت أن تصدق ، أشارت إلى باب المخزن
الموصد ، قالت إنه اختفى هنا ، وتنتظر خروجه .

« أشارت التقارير إلى أن عاطف حسنين لم يعد يقيم بمفرده ، لا تقصد بهذا روض التي ترددت عليه كثيراً منذ بدء الطلسم ، لكننا نشير إلى وجود شاب معه . لم يتحقق أحد مصادرتنا من شخصية هذا الساكن الذى يعتبر أول إنسان غريب يدخل إلى الزعفرانى ، كما لوحظ أن عاطف المذكور لا يخفى علاقته بجارته « روض » وشوهدا معا صباح اليوم ، يخرجان معا ، يمسك كل منهما بيد الآخر ، وباقتفاء أثرهما اتضح اتجاهاهما إلى حديقة الحرية ، جلسا فوق الحشائش فى الشمس ، وضحكا ، ولعبا معا ، وأكلا جبنا روميا ، وسميطا ، وبيضاً ، ودفعت روض عاطف حسنين المذكور ثلاث مرات فى صدره ، كما قرصها مرة فى ذراعها .

« فى العاشرة صباحا طلب طاحون غريب بصوت عال من الأهالى حفر مجموعة من الأنفاق تؤدى إلى أسفل حجرة الشيخ حتى يمكن مهاجمته ، وابطال أثر الطلسم ، قال إن الاتفاق ستنهى كل المشاكل .

« دار عبده البنان وامراته على جميع رواد المقاهى بالحى وتوسلوا إليهم لمنع ولدهما من دخول الزعفرانى لولحوه ، لأنه أرسل يخطرهما بقرب وصوله ، الآن لا يغادران مكانها الذى اتخذاه أمام الحارة لمنع ابنهما .

« منذ ساعتين وصل إلى الحارة ، شخص مختل اسمه رضوان ، وبائع غزل بنات ، أعلن أنها سيلزمان الزعفرانى ، لأن الطلسم لحقهما .

« حتى الآن لم يتحرك المنذر الأول سلام ، كذلك لم يقيم عويس بتوجيه نداءاته فى مواعيدها .

« قامت احدى مجموعاتنا بتركيب مكبر صوت وجهت من خلاله نداءات متوالية إلى أهالى الزعفرانى ، وذلك « لطرق الحديد الساخن » ،

واستغلال الحالة التى وصل إليها الأهالى . وتضمنت النداءات نصحا باقتحام حجرة الشيخ والقبض عليه ، وتسليمه .

« زعم أحمد النجار مطالبا الشخص الوحيد الذى استثناه الشيخ من الطلسم بالكشف عن حقيقة شخصيته حتى تهدأ الخواطر وتتكشف الحقائق . هذا ملخص باجمالى الموقف حتى الساعة الثالثة بعد الظهر » .

تعليمات الهيئة العليا المشرفة على الاعلام .

« لوحظ خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ورود أخبار كثيرة من مختلف انحاء العالم بخصوص الأحوال الزعفرانية ، يراعى استمرار عدم النشر .

• • •

تقرير رقم « ٣ » عاجل جدا .

« بعد العصر ، خرج وفد زعفرانى يضم الآتى اسماؤهم :

المعلم أحمد حسنى حنفى الداطورى .

طاحون غريب .

عاطف حسنين .

أبلغوا رجالنا أن أهالى الزعفرانى سمعوا كل ما وجه إليهم من نداءات ، ويعتبرون ما يجرى فى الزعفرانى أمراً يخصهم ، وهم بأنفسهم الذين سيتولون أمورهم مع الشيخ ، ولن يسمحوا إطلاقاً لأى جهة مسئولة أو غير مسئولة بالتدخل ، وفيما يلى نص ما قاله طاحون غريب :

« لو أخذتم الشيخ فن يضمن لنا زوال الطلسم » :

وطلب قائد المجموعة من طاحون غريب مساعدته باعتباره موظفا رسميا ، لكن طاحون قال إن الأمر ليس بيده ، ومهما بلغت الاغراءات والوعود فالأهالي مصرون على معالجة الأمور بأنفسهم » .

برقية عاجلة لوكالة « رويتر » من بيونس ايرس .

« هرع آلاف من سكان العاصمة إلى الأطباء ، تجمهروا أمام العيادات ، والمستشفيات يشكون عجزا جنسيا غريبا » .

برقية عاجلة لوكالة « ١.ون » من باريس .

« صرح مصدر مسئول بوزارة الصحة الفرنسية ، أن العجز الجنسي ظهر في البلاد بشكل وبائي ، صرح في بيان وجهه إلى الشعب الفرنسي أن الوباء يبحث بشكل علمي واسع . وحاول أن يطمئن الجماهير ، لكن هذا لم يمنع حالات الفوضى والاضطراب التي سادت ، امتلأت الشوارع برجال يحاولون اختبار قواهم مع أقرب النساء إليهم في الطرقات » .

برقية من مالا واندا ، وكالة أ. ب

« اختفت جميع المقويات والمنشطات الجنسية ، أصدرت المعارضة بياناً تهتم فيه الحكومة بالتهاون في شأن التصدى لهذا الوباء الذي يحتاج البلاد ،

وطوال اليوم استمر الراديو يذيع موسيقى جنسية وأغاني فاضحة لمساعدة الرجال » .

برقية من جالانشيا :

أعلنت منظمة الزعفرانيزم المشكلة حديثا ، أن البلاد كلها سوف تخضع لتأثير الطلسم اعتباراً من اكتمال القمر بدرا ، وأن الأمور منذ الآن ستتخذ مسارا جديداً وعلى الإنسانية أن تفيق » .

برقية من اصطفانديال :

« أغلقت الموانئ والمطارات ، بأمر من رئيس الجمهورية في محاولة لمنع الوباء الزعفراني » .

نبا عاجل من عاصمة كيرليانا الهندية :

نظم أنصار « الزعفرانيزم » مسيرة ضخمة اتجهت إلى مركز المدينة ، قام شخص نخيل ، يتحدث إليهم واصفا نفسه بأنه المنذر الثاني ، وبعد أن تلا نصوصا من المناظير الزعفرانية المعروفة ، أعلن جزءاً من منظور جديد لم يعرف بعد ، يتضمن بشرى للمتزعفرين ، بأن الأوان حل ، وأن اللطمة قد وجهت إلى الانسان في كل مكان ليفيق إلى الأبد ، لتعدل الأوضاع ، لتصحح الأحوال ، في البداية ستضطرب الأمور ، كما يخلط العجان الدقيق ، واللبن ، والماء ، لتظهر الفطائر والكعكات . أو كما يتكلم الأثاث فيبدو بلا معنى قبل تنظيم البيت ، ثم تبطل القلوب برضى ، قال إن الدنيا ستقسم إلى سبعة أقسام ، يتولى كل منها منذر

يبلغ، ينبه، يشرح، يفسر، يوضح، ينظم العلاقات والمصائر، ويرتب الأحوال، قال إن كل شيء سيبدل تبديلا، وإن الأحوال الخاطئة ستصحح، وإن الجماد سيتركلم، وستضيق البحور بالحب، واليوم العظيم الذي تسود فيه العدالة آت لا ريب فيه. ثم ختم حديثه قائلا: «وداعا للزمن القديم، لعصور الضلال، وتحريف الحقائق، والموت جوعا. والحب التعس، والأمل المحقق، والرغبة المكبوتة، والوعد الملوع، والنظام الجائر، والعدالة النسبية، وتعقيد السهل، وتصعيب البسيط، لن يطول الانتظار.. فقد بدأ زمن الطلسم، ليتغير العالم».

جمال الغيطاني ١٩٧٣ - ١٩٧٥

صدر للمؤلف

- أوراق شاب عاش منذ الف عام مجموعة قصصية — طبعة أولى ١٩٦٩ طبعة رابعة ١٩٨٠
- أرض — أرض مجموعة قصصية — طبعه أولى ١٩٧٢ طبعة ثانية ١٩٨٠
- الزيني بركات رواية — طبعة أولى ١٩٧٤ طبعة ثالثة ١٩٨٤
- الزويل قصص طبعة أولى ١٩٧٥ طبعة ثانية ١٩٨٠
- الحصار من ثلاث جهات مجموعة قصصية طبعة أولى ١٩٧٥ طبعة ثانية ١٩٨٠
- وقائع حارة الزعفراني رواية طبعة أولى ١٩٧٦
- حكايات الغريب مجموعة قصصية طبعة أولى ١٩٧٦ طبعة ثانية ١٩٨٠
- ذكر ما جرى مجموعة قصصية طبعة أولى ١٩٧٧ طبعة ثانية ١٩٨١
- الرفاعي رواية طبعة أولى ١٩٧٨ طبعة ثانية ١٩٨١
- خطط الغيطاني رواية طبعة أولى ١٩٨١

• كتاب التجليات (السفر الأول) طبعة اولى ١٩٨٣

• اتحاف الزمان بحكاية جليى السلطان مجموعة قصصية طبعة اولى ١٩٨٤

• كتاب التجليات - السفر الثانى ١٩٨٥

• دراسات ومشاهدات

• المصر يون والحرب ١٩٧٤

• حراس البوابة الشرقية ١٩٧٥

• نجيب محفوظ يتذكر ١٩٨٠

• مصطفى امين يتذكر ١٩٨٣

• ملامح القاهرة فى الف عام ١٩٨٣

• قاهر يات (اسبله القاهرة) ١٩٨٤

تحت الطبع

كتاب التجليات « السفر الثالث »

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٥ / ٣٢٨٠

الترقيم الدولى ٢ - ١٣٢ - ١٣٣ - ٩٧٧